الدكتور كمال محمد عيسى

Mngool.com

العقيدة الإسلامية

سفينة النجاة

وَأَنجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ

دار الشروق
جدة
للنشر والتوزيع والطباعة

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَٰمِلُونَ ١٢١
وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ١٢٢ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ
بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ١٢٣

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث بالحنيفية السمحة رحمة للعالمين وعلى إخوانه الهداة من الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

ففي هذا العصر الذي تتصارع فيه معاني الحياة بين:

التوحيد والتعطيل
والروح والمادة
والأمل واليأس

وقد غرق كثير من الناس في حمأة الضلال والإلحاد فأنكروا وجود الله وما يتبع ذلك من:

الإلهيات.. والروحانيات.. والنبوات.. والسمعيات وتعلقوا بزائف من القول، وباطل من الرأي، وأفكار مادية من صنع العقل القاصر. والإنسان الملحد:

فنسبوا كل ما كان وما سيكون إلى المصادفة أو الطبيعة . ومن هؤلاء :

- المكابرون الذين يقولون :

﴿مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١)

وفي أمثالهم يقول الله تعالى :

﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ (٢)

- المضطربون المضللون الذين يقولون :

﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ (٣)

وفي أمثالهم يقول الله تعالى :

﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (٤)

وهؤلاء وأولئك لن ينفعهم نصح إن أراد الله أن يغويهم .

إنما ينتفع بالحجة كل متعلم يطلب الحق . وكل قاصد يبغي الحقيقة .

---

(١) الأعراف : ١٣٢ .

(٢) الأنعام : ١١١ .

(٣) الجاثية : ٣٢ .

(٤) الحجر : ١٤ - ١٥

وكل نادم يرجو النجاة.

من أجل هذه النفوس المتطلعة للنور. التي تمد يدها إلى العروة الوثقى نقدم العقيدة الإسلامية كما جاءت في الكتاب والسنة تدفع إفك المبطلين. وضلالات الملحدين، وستبقى وضاءة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها:

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (١)

يقوم البحث فيها على تمهيد.. وأربعة أبواب

التمهيد: مبحثان:

أ - الثقافة الإسلامية أو التربية الإسلامية

ب - دين الله الذي ارتضاه.

الباب الأول: الإلّهيات

الفصل الأول: صفة الوجود

الفصل الثاني: أنواع التوحيد

الفصل الثالث: بقية الصفات.

الباب الثاني: الروحانيات والنبوات

الفصل الأول: الملائكة

الفصل الثاني: الكتب

الفصل الثالث: الرسل

---

(١) الرعد: ١٧.

الباب الثالث: السمعيات والقدر

الفصل الأول: اليوم الآخر
الفصل الثاني: القدر

الباب الرابع: أثر العقيدة.

الفصل الأول: صلة العقيدة بالعبادات
الفصل الثاني: صلة العقيدة بالأخلاق

وقد عرضت لأباطيل الملحدين، ونزعات المستغربين مثل:

نسبة الخلق إلى المصادفة أو الطبيعة..
دعوى أن الملائكة بنات الله..
ادعاء صحة الكتب المحرفة..
القول بعدم الاحتجاج بالسنة..
الفرية القائلة الدين ثقافة..
خرافة مناقضة القرآن للعلم الحديث..
تساؤلاتهم حول الإنسان: ما؟ ولماذا؟ وإلى أين؟..

وغير ذلك في نقاش علمي هادىء كي تذهب زاهقة عن ساحة الحق، وطريق أهله.

كما تناولت عناية القرآن والسنة بتكوين الفرد، وبناء الأمة، وحماية الأخلاق في محاضنها.

وقدمت قبساً من مواقف السلف الصالح يتمثل فيها الخلق الإسلامي حقائق حية ذات روح.. أنقذ من الهاوية، وخلص من الضلالة، فغير أهله

وجه الأرض، وحرروا موازين العدل.

فالعقيدة سفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلف عنها هلك.

وإني أحمد الله تعالى أن أعانني على جهد البحث. وأمانة النقل، وأسلوب العرض والأداء..

سائلاً المولى عز وجل القبول والمثوبة.

كمال محمد عيسى

تمهيد

المبحث الأول: الثقافة الإسلامية أو التربية الإسلامية

المبحث الآخر: دين الله الذي ارتضاه

المبحث الأول

الثقافة الإسلامية
أو
التربية الإسلامية

مفهومها

المفاهيم الصحيحة:

أ - عن الله.

ب - عن الكون.

جـ - عن الإنسان.

مصدرها - مزاياها - غايتها

مفهوم الثقافة

يرى البعض أن الثقافة تطلق على الشيء الزائد على الحاجة، والزاد الذي يقدم بعد استكمال الشخصية جميع مقوماتها وعناصرها.. ويراها لوناً من الترف النفسي، وسعة الأفق، وامتداد الخبرة.

وليست دراسة العقائد والأخلاق ثقافة بهذا المعنى إلا في منظور الغرب الذي يفصل بين الدين والحياة.

وقد زحف إلينا هذا الفهم الخاطىء مع ثنائية التعليم: تعليم ديني.. وتعليم مدني.

وأرادت أبواق التبشير وأقلام الملحدين ومن يدور في فلكهم أن يلووا أعناقنا إلى هذا الانحراف فقالوا في مغالطة خبيثة: الدين ثقافة، ومن قبل قالوا: الدين لله.

وكلتا العبارتين نغمة مرذولة نشاز في ميزان الإسلام يقصدون من ورائها عزل الإسلام عن الحياة، وخنق صوته بين جدران المساجد. وجعله ديناً فردياً شخصياً لا يتدخل في علاقات الأفراد. ولا رسم السياسات العامة للأمة محاولين بذلك فرض العلمانية وإحلال القوانين الوضعية محل الشريعة الإسلامية.

واللغة تبطل هذا الفهم ولا تقره يقال: ثقفت الرمع إذا عدلته وسويته

وينتقل الاستعمال من المحسوس إلى المعنوي مجازاً فيقال ثقفت الفتى والفتاة أي هذبت كلاً منهما وقومته فكراً وسلوكاً.

تقول أم حكيم بنت عبد المطلب: إني حصان فما أكلم، وثقاف فما أُعلم[1]!

فهي من مقومات الشخصية، وأسس تكوينها، وقواعد بنائها وليست من نافلة القول، وزخرف الحديث.

وكيف يكون ترسيخ العقيدة الإسلامية الصحيحة وفق الأسس العلمية من نافلة القول؟

كيف يكون تسليح الشباب بما يدافعون به عن دينهم وتراثهم الإسلامي من نافلة القول؟

كيف يكون شحن القلوب بالعاطفة الإسلامية الرشيدة من نافلة القول؟

كيف يكون دين الله ثقافة؟

أليس دين الله هو الإسلام؟ فما معنى الإسلام؟

إنه: استسلام لمنهج الله
تحاكم إلى شريعة الله
طاعة للرسول فيما بلغ عن الله
إفراد لله بالألوهية
إفراد لله بالحاكمية

---

(١) لسان العرب جـ ١٠

التي تجعل التشريع ابتداء حقاً لله، لا يشاركه فيه سواه.

﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ (١)

إن وظيفة القرآن ليست ثقافية لإمتاع العقول لكنه: نذير.. وذكرى. واتباع

قال تعالى:

﴿كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ۝ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢)

حتى قصصه لم ينزله الله للإمتاع، إنه عبرة..

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (٣)

إنه تثبيت وموعظة وذكرى..

﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤)

---

(١) يوسف: ٤٠

(٢) لأعراف: ٢. ٣

(٣) يوسف: ١١١

(٤) هود: ١٢٠

إن وظيفة السنة ليست ثقافية لإمتاع العقول لكنها بيان وأسوة.. قال تعالى:

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (١)

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (٢)

وقال إن وظيفة التراث الإسلامي ليست ثقافية لإمتاع العقول فحسب، لكنه اقتداء وتربية.. وسنة متبعة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين».

«اتبعوا ولا تبتدعوا فقد كفيتم».

وللخروج من المماحكات اللفظية. وحتى نقطع الطريق على ذوي النيات الخبيثة، فلا يبقى مجال للخداع والتضليل نقول:

إنها التربية الإسلامية

لها مصادرها الأصيلة ومنابعها النقية التي تتناول الإنسان المسلم فكراً وقلباً.. جسماً ونفساً.. خلقاً وسلوكاً فغايتها تكوين اللبنات الإسلامية.

كما تقدم - في عطاء غير مجذوذ - المفاهيم الصحيحة:

---

(١) النحل: ٤٤

(٢) الأحزاب: ٢١

أولاً: عن الله

فالله هو الولي الرازق. وضل من اتخذ من دونه أولياء..

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾﴾ (١)

الله هو الإله. وضل من اتخذ من دونه آلهة

﴿قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ (٢)

الله هو الحكم المشرع وحده. وضل من اتخذ التشريع عن غيره.

﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ (٣)

الله هو رب كل شيء والمحاسب على كل شيء وضل من اتخذ رباً سواه.

استمعوا إلى هذا الحوار الذي دار بين موسى عليه السلام وفرعون:

قال فرعون: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾

قال موسى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾

قال فرعون: ﴿لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾

---

(١) الأنعام: ١٤

(٢) الأعراف: ١٤٠

(٣) الأنعام: ١١٤

قال موسى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾

قال فرعون: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾

قال موسى: ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (١)

إنها الربوبية:

ربوبية الخلق والإيجاد

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ۝٦ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ (٢)

ربوبية التعليم والإرشاد.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (٣)

ربوبية التمليك والإمداد:

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ (٤)

ربوبية التكريم والاستخلاف:

---

(١) الشعراء: ٢٣ - ٢٨.

(٢) الانفطار: ٦ - ٨.

(٣) العلق: ١ - ٥

(٤) البقرة: ٢٩

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (١)

نعم.. لقد ضل من اتخذ رباً سواه

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ
إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ
فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ (٢)

فلله للأسماء الحسنى والصفات العلى:

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ
ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ
ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (٣)

الله قل وذر الوجود وما حوى ... إن كنت مرتادا بلوغ كمال
فالكل دون الله إن حققته ... عدم على التفصيل والإجمال
واعلم بأنك والعوالم كلها ... لولاه في محو وفي اضمحلال
من لا وجود لذاته من ذاته ... فوجوده لولاه عين محال

---

(١) البقرة: ٣٠

(٢) الأنعام: ١٦٤

(٣) الحشر: ٢٢ - ٢٤

ثانياً: عن الكون

فالكون سماؤه وأرضه.. شمسه وقمره.. نجومه وجباله.. بحاره وأنهاره.. ليله ونهاره مسخر للإنسان نعمة من الله وكرماً. اقرأ تلك الآيات: إنها وثائق التحرير من دعاوى التسلط والتملك.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْأَنْهَٰرَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ (١)

﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ (٢)

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (٣)

هذا هو الكون كله صدر عليه حكم واحد هو التسخير. من سخره؟ إنه الله. لمن سخره؟ للإنسان!

فهل يتأدب الإنسان عند تملكه فيقول:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ﴾ (٤)

---

(١) ابراهيم: ٣٢ - ٣٣.
(٢) لقمان: ٢٠
(٣) الجاثية: ١٣
(٤) الزخرف: ١٣

وفي تكرار الفعل (سخر) دليل على تأكيد الانتفاع وإظهار نعمة الله.
كما أن تكرار (لكم) دليل على فتح باب الاستثمار للجميع. ودعوة لكل فرد إلى ميدان العمل.
جعله الله معرضاً للتأمل. ومنطلقاً للتفكير الراشد فكم فيه من آيات!
قال الله تعالى:

﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾(١)

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾(٢)

﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ﴾(٣)

ولقد أعطى القدوة محمد بن عبد الله - ﷺ - فقد كان يتعبد الليالي ذوات العدد
يتأمل في كتاب الله الصامت وهو الكون
قبل أن يتنزل عليه كتاب الله الناطق وهو القرآن
فكلاهما آيات
هذه ترى..
وتلك تتلى..

---

(١) يونس: ١٠١
(٢) الطارق: ٥
(٣) عبس: ٢٤

وكلها رسائل للإنسان يقرأ فيها وحدانية الله عز وجل هذا خلق الله.. أضافه الله إلى نفسه

مقترناً بالحق:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ (١)

مقترناً بنفي اللعب:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾ (٢)

مقترناً بنفي الباطل:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ (٣)

مقترناً بتحديد الزمن في سبعة مواضع من كتابه

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (٤)

فالله هو المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبرها ومقدرها وحده ليس معه في ذلك شريك ولا وزير.

---

(١) الحجر: ٨٥
(٢) الأنبياء: ١٦
(٣) ص: ٢٧
(٤) ق: ٣٨

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)

يقول ابن عباس: من كان له شيء بعد ذلك فليطلبه وما ادعى خلقه أحد فثبت أن الخلق لله وحده دون منازع وما يهرف به الملاحدة والماديون من نسبة الخلق إلى المصادفة أو الطبيعة فهو خرافة وضلال.

يكذبهم الله حيث ينفي أن يكون أحد منهم شهد خلق هذا الكون. فمن أين لهم بعلمه؟

﴿مَّا أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾ (٢)

وسيأتي في الصفحات التالية إبطال مذهبهم.

ثالثاً: عن الإنسان

يحلو لبعض ذوي النيات الخبيثة أن يلقوا ببعض التساؤلات حول الإنسان مادة ووظيفة ومصيراً ابتغاء الفتنة وإثارة للشكوك فيقول:

السؤال الأول: ما الإنسان؟

ويأتي الجواب القاطع لكل لسان زائغ في قول الله تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (٣)

---

(١) الأعراف: ٥٤
(٢) الكهف: ٥١
(٣) البقرة: ٣٠

لكنها خلافة مقيدة:

حدد الله لها دائرة العمل في شخص داود

وقد حمل الخطاب إليه:

بشارة: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾

أمراً: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ﴾

نهياً: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾

إنذاراً: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ﴾ (١)

ثم هي خلافة مسئولة:

﴿فَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرۡسِلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَنَسۡـَٔلَنَّ ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ (٢)

وقال تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمُۢ﴾ (٣)

---

(١) ص: ٢٦

(٢) الأعراف: ٦

(٣) الأنعام: ١٦٥.

وحتى لا تكون الخلافة خاصة بالسلطان الأكبر قال: الرسول ﷺ: كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته فالحاكم راع وهو مسئول عن رعيته. والرجل راع وهو مسئول عن رعيته. والمرأة راعية في بيت زوجها وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده وهو مسئول عن رعيته.

السؤال الثاني: من أين جاء هذا الإنسان؟

ويحمل القرآن إجابة العليم الخبير في آيات بينات:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ (١)

﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ (٢)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (٣)

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ (٤)

﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ﴾ (٥)

---

(١) الروم: ٢٠
(٢) السجدة: ٧
(٣) المؤمنون: ١٢
(٤) الحجر: ٢٦
(٥) الرحمن: ١٤

تقرر هذه الآيات:

أ - أن الله هو الخالق وليست المصادفة أو الطبيعة

ب - أن الإنسان آدم خلق من تراب أو طين أو صلصال وكلها شيء واحد فالطين: هو التراب إذا أضيف إليه الماء والصلصال: هو الطين اليابس يصوت إذا نقر.

والحمأ: الطين إذا تغير واسود لطول مجاورته للماء.
ومسنون: مصور أو مصبوب لييبس.
أما الإنسان الذرية فقد قال تعالى في شأنه:

﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ﴾ (١)

والآية تقرر أن الإنسان خلق من النطفة.
قرر القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرناً من الزمان.

ثم يأتي العلم الحديث بمعامله وتحاليله فيعلن أن جسم الإنسان يتركب من العناصر التي تتركب منها الأرض. وأن النطفة هي خلاصة التراب.

وينفرد القرآن بالإعجاز الباهر والسبق المعجز فيقول:

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ﴾ (٢)

---

(١) الإنسان: ٢
(٢) العلق: ٢.

إنها تشير إلى أن الحيوان المنوي يشبه دودة العلق فمن شاهده وهو من الصغر بحيث لا تراه العين المجردة؟.. لقد ظلت المعجزة القرآنية مطوية حتى ظهر (المكروسكوب) فثبت بالمشاهدة أن الحيوان المنوي له رأس ورقبة وذيل.. فسبحان الخلاق العليم.

السؤال الثالث: لماذا نحن في هذا الوجود؟

لا شك أننا في خدمة واهب الحياة، ومدبر الوجود فهو الذي خلق الإنسان، وعلمه البيان وفضله على كثير من خلقه.

ألا يكون لهذا الخلق والتعليم من غاية؟

ألا يكون لهذا المخلوق من رسالة؟

بلى.. خلقه الله لعبادته قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (١)

خلقه خليفة في أرضه. قال تعالى:

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢)

وشأن الخلفاء

أن يعمروها لا أن يخربوها، أن يصلحوها لا أن يفسدوها أن ينموها لا

---

(١) الذاريات: ٥٦

(٢) النمل: ٦٢

أن يبددوها ، أن تكون وسيلة للبناء والخير لا سبباً للفساد والبغي . قال الله تعالى :

﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (١)

فطريق الله واحد أوله في الدنيا ونهايته في الآخرة طريق لا يختلف فيه العمل عن العبادة ولا العبادة عن العمل .

وقد جمع الله بين الغايتين : الاستخلاف والعبادة في آية واحدة :

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ﴾ (٢)

السؤال الرابع : إلى أين المصير ؟

ويجيب الله تعالى عن ذلك في خبر تقريري باهر مؤكد بتقديم ضمير الحق تبارك وتعالى وضمير التعظيم لله الكبير المتعال وقد تكررت هذه الحقيقة في القرآن ثلاث مرات :

﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ (٣)

---

(١) القصص : ٧٧

(٢) النور : ٥٥

(٣) الحجر : ٢٣

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ﴾ (١)

﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ (٢)

ويجمع الله البدء والخلق والمصير في آية واحدة..

﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (٣)

تلك مادتك التي منها نشأت أيها الإنسان.
هذا خالقك الكبير المتعال.
هذه غاية وجودك كما حددها القرآن.
كيف تتغنى بهذه الطلاسم كما سماها صاحبها؟

جئت لا أعلم من أين ولكني أتيت
ولقد أبصرت قدامي طريقاً فمشيت
وسأبقى سائراً إن شئت هذا أم أبيت
كيف جئت؟ كيف أبصرت طريقي
لست أدري!

بعد هذا..
أيليق أن تتساءل من أين جئت تقليداً للملحدين

---

(١) ق: ٤٣
(٢) يس: ١٢
(٣) طه: ٥٥

أيليق أن تتساءل من الصانع جرياً وراء الضالين
أيليق أن تتساءل لم جئت؟ تبعاً للحائرين

إن الإلحاد يريد لك التميع والذوبان حتى لا تقف على قدميك في دنيا أطماعهم، ويقطع الوشائج التي تربطك بالخالق والكون من حولك.

رابعاً: عن الحياة الدنيا

هي الفترة الزمنية من الميلاد إلى الممات جعلها الله لعباده مزرعة للعمل ومجالاً للتحصيل على أسس إسلامية صحيحة أحل الله لهم فيها الطيبات، وحرم عليهم الخبائث،

ووهبهم العقل والإرادة ليكون ذلك مناط التكليف والسؤال والحساب والجزاء.

وجعل فيهم الغرائز والشهوات للاختبار والابتلاء فمن غلب عقله غرائزه سما إلى درجة الملائكة. ومن غلبت غرائزه عقله دنا إلى درك الحيوان.

« وجعل لهم بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه وأطيب وألذ فيقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام ويسعه الحلال فلا يضيق عنه »[١]

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٣٩.

فهي دار ابتلاء..

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾(١)

وأكثر الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل: هذا أبو الأنبياء ابراهيم ابتلاه ربه بالكوكب والقمر والشمس فصبر:

﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(٢)

ابتلاه ربه بالنار فصبر حتى جاء النداء:

﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾(٣)

ابتلاه ربه بذبح ولده فأخذ في التنفيذ صابراً حتى سمع النداء:

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ ۝١٠٤ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝١٠٥ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝١٠٦ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾(٤)

---

(١) محمد: ٣١.
(٢) الأنعام: ٧٨ - ٧٩
(٣) الأنبياء: ٦٩
(٤) الصافات: ١٠٤.

وكأنما كان البلاء والصبر ترشيحاً للإمامة في الناس فقال تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (١)

فلا يشمل عهد الإمامة من ظلم وبغى وانحرف عن صراط الله المستقيم إنها أنفاس معدودة، وساعات محدودة.

دقـات قلـب المرء قائلـة لـه
إن الحيـاة دقائـق وثوان

عند انقضائها تلف أعماله، ويطوى سجله، ويحال بينه وبين هذه الدار فإما إلى جنة وإما إلى نار.

ومن ثم يوصي رسول الله صلى الله عليه وسلم باغتنام تلك الفترة من الحياة فيقول:

«اغتنم خمساً قبل خمس
حياتك قبل موتك.
وصحتك قبل سقمك. وفراغك قبل شغلك.
وشبابك قبل هرمك. وغناك قبل فقرك. رواه البيهقي والحاكم.

فهذه الحياة هي الفرصة المعطاة للإنسان ليعمل، ويسعى، فاليوم عمل ولا حساب، وغداً حساب ولا عمل،

---

(١) البقرة: ١٢٤.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَـٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ (١)

فيأتيه الجواب:

﴿كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾

نعم ليس للإنسان في الآخرة إلا ما زرع في الدنيا.

فمن زرع خيراً وجد نعيماً وملكاً كبيراً.

ومن زرع شراً وجد ناراً وزقوماً.

وقد حدد القرآن مبادىء:

١ - التبعة الفردية، ومسئولية كل عن عمله:

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾

وقد عد الرسول صلى الله عليه وسلم من عمل الرجل بعد موته ثلاثاً:

فقال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث:

من ولد صالح يدعو له.. وصدقة جارية.. وعلم ينتفع به»

٢ - تقدير أعماله وعدم خفاء شيء منها:

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾

٣ - عدالة الجزاء:

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾

---

(١) المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠

٤ - نهاية الطريق، ووحدة المرجع والمآب

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ (١)

مصادرها

المصدر الأول: القرآن

إنه نهج الله، ودستور الحياة

في العقيدة والعبادة

في الاقتصاد والسياسة

في التربية والسلوك

في السلم والحرب

تربية للفرد، وبناء للشعب، وتمكيناً للأمة لتنهض بمسئولياتها نحو الحق والعدل والسلام.

هو الروح: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ (٢)

هو الهدى: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ (٣)

---

(١) النجم: ٣٨ - ٤٢

(٢) الشورى: ٥٢.

(٣) النجم: ٢٣.

هو النور: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾(١)

هو الفرقان ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾(٢)

هذا بعض تقديم القرآن لنفسه!

فماذا عنه في رياض النبوة؟

من علي كرم الله وجه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ستكون فتن كقطع الليل المظلم.

قلت: يا رسول الله وما المخرج منها؟

قال: كتاب الله تبارك وتعالى.

فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل:

من تركه من جبار قصمه الله.

ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله.

هو حبل الله المتين. ونوره المبين، والذكر الحكيم والصراط المستقيم.

وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء، ولا تشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء. ولا يخلق من كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا:

﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾

---

(١) النساء: ١٧٤.

(٢) الفرقان: ١.

من علم علمه سبق..
ومن قال به صدق..
ومن حكم به عدل..
ومن عمل به أجر..
ومن دعا إليه فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم. رواه الترمذي.
هو الكتاب الجامع.
فيه العقائد والعبادات
فيه الحدود والمعاملات
فيه القصص والأحكام
فيه الحلال والحرام

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ (١)

أنزله الله حكماً:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (٢)

ودعا إلى تدبره..

﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٣)

في تلاوته نور وذخر:

---

(١) الأنعام: ٣٨
(٢) النساء: ١٠٥
(٣) ص: ٢٩.

من وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر:
عليك بتلاوة القرآن فإنه نور لك في الأرض وذخر لك في الدماء. رواه ابن حبان.

وقال: يا أبا ذر لأن تغدو فَتَعْلَمَ آية من كتاب الله خير لكم من أن تصلي مائة ركعة. رواه ابن ماجة.

أهله هم أهل الله.

قال صلى الله عليه وسلم:

«إن لله أهلين منا، قالوا: يا رسول الله من هم؟
قال: هم أهل القرآن هم أهل الله وخاصته» رواه ابن ماجة

وقال سليمان بن عبد الملك:

اتخذوا كتاب الله إماما، وارضوا به حكما، واجعلوه لكم قائدا، فإنه ناسخ لما قبله، ولم ينسخه كتاب بعده» (١).

المصدر الثاني: السنة النبوية

هي ما ثبت وصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقوال وأفعال وتقريرات تتصل بمعاشه ومعاده.. وعلمه وعمله.. وحربه وسلمه.. وعاداته وعباداته.. وسلوكه وأخلاقه..

فقد كان صلى الله عليه وسلم:

زوجاً وأباً.. راعياً وتاجراً.. مربياً ومرشداً.. مسالماً ومحارباً.. عابداً وزاهداً.. مبشراً ومنذراً..

---

(١) البيان والتبيين

جاز بهذه الأعمال كل عقبات الحياة نقياً طاهراً.. ومرَّ بها بين أمواج المصاعب والفتن قوياً زاهراً..

فهي المصدر الثاني لجوهر الدين ولبابه، والجانب التطبيقي لتكاليفه، وتعد ركناً في الدين وشريعة المؤمنين.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

تركتكم على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

ويقول: تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب الله وسنتي..

منزلة السنة من القرآن

يزعم بعض الزائغين أنه لا يحتج إلا بالقرآن ولا يصح الاحتجاج بالسنة. وهذا ضلال وكفر، لأن من أنكر السنة فقد أنكر القرآن وكذبه لأمور:

(١) فرض الله طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وقرنها لطاعته تعالى فقال سبحانه:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (١)

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٢)

---

(١) المائدة: ٩٢.

(٢) النساء: ٨٠

(٢) حذر الله من مخالفة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال:

﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (١)

(٣) أنزل الله عليه الكتاب. ودعاه إلى بيانه فقال:

﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (٢)

والبيان منه صلى الله علبه وسلم على ضربين:

أ - بيان لمجمل في الكتاب كبيان الصلوات الخمس:

عدد ركعاتها، وهيآتها، وسائر أحكامها، قال صلى الله عليه وسلم: صلوا كما رأيتموني أصلي وقال في الحج: خذوا عني مناسككم.

ب - زيادة حكم على أحكام القرآن كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها، وتحريم الحمر الأهلية وكل ذي ناب من السباع.

(٤) قال صلى الله عليه وسلم:

«ألا وإني أوتيت الكتاب ومثله معه. ألا يوشك رجل شبعان يجلس على أريكته يقول:

عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السباع.

رواه أبو داود

---

(١) النور: ٦٣.

(٢) النحل: ٤٤.

فالحديث يدل على أمرين:

أ - إن الرسول صلى الله عليه وسلم أوتي بجانب القرآن وحياً غير متلو، أو أذن له ببيان ما في الكتاب فيعم ويخص، ويزيد ويفسر.

ب - التحذير من هؤلاء الذين لم يطلبوا العلم من نطاقه، ولم يجتهدوا في تحصيله، ولم يهاجروا في سبيله، ومع هذا يدعون إلى التعلق بظاهر القرآن وترك السنن مما ليس له في القرآن ذكر.

(٥) ذكر ابن عبد البر في كتابه - جامع بيان العلم وفضله - عن عبد الرحمن بن يزيد: أنه رأى محرماً عليه ثيابه فنهى المحرم، فقال: ائتني بآية من كتاب الله تنزع ثيابي

قال: نقرأ عليه:

﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ (١)

وعن هشام بن حجير قال:

كان طاوس يصلي ركعتين بعد العصر فقال ابن عباس: اتركهما.

فقال: إنما نهى عنهما أن تتخذ سنة.

فقال ابن عباس: قد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صلاة بعد العصر، فلا أدري أتعذب عليهما أم تؤجر؟

لأن الله تعالى قال:

---

(١) الحشر: ٧.

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ [1]

« وترك السنة خطأ من ناحيتين.

إهمال الحقيقة التاريخية أولاً . فإن الدنيا لم تعرف بشراً أحصيت آثاره ، ونقدت بجذر ، ومحصت بدقة كما حدث ذلك في آثار محمد بن عبد الله - صلى الله عليه وسلم .

فكيف ترمى بعد ذلك في مطارح الإهمال؟

والناحية الأخرى: أن في السنة كنوزاً من الحكمة العالية لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين ، فلم تضيع على صاحبها ، ويحرم الناس خيرها [2]؟

قال مالك رحمه الله : السنة مثل سفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها هلك ، وهذا حق : فإن سفينة نوح إنما ركبها من صدق المرسلين واتبعهم ، وأن من لم يركبها فقد كذب المرسلين .

واتباع السنة هو اتباع للرسالة التي جاءت من عند الله ، فتابعها بمنزلة من ركب مع نوح السفينة ظاهراً و باطناً ، والمتخلف عن اتباع الرسالة بمنزلة المتخلف عن اتباع نوح عليه السلام وركوب السفينة معه [3]

---

(١) الأحزاب: ٣٦ . تفسير القرطبي جـ ١ ص ٣٢ .
(٢) فقه السيرة ص ٢٨
(٣) نقض المنطق ص ١١٣

وإنما يتم الانقياد لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم والاستسلام له والإذعان بثلاثة أشياء:

الأول: ألا يعارض المسلم شيئاً مما جاء به بشيء من المعارضات الأربعة السارية في العالم المسماة:

بالمعقول.. والقياس.. والذوق.. والسياسة

فالمعقول: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين الذين عارضوا نصوص الوحي بمعقولاتهم الفاسدة، وقالوا:

إذا تعارض العقل والنقل: قدمنا العقل وعزلنا النقل

القياس: للمتكبرين من المنتسبين إلى الفقه، قالوا:

إذا تعارض القياس والرأي والنصوص، قدمنا القياس على النص، ولم نلتفت إليه.

الذوق: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التصوف والزهد فإذا تعارض عندهم الذوق والأمر، قدموا الذوق والحال، ولم يعبأوا بالأمر.

السياسة: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين، إذا تعارضت عندهم الشريعة والسياسة، قدموا السياسة، ولم يلتفتوا إلى حكم الشريعة.

الثاني: ألا يتهم دليلاً من أدلة الدين بحيث يظنه فاسد الدلالة أو ناقص الدلالة أو قاصرها، أو أن غيره كان أولى منه ومتى عرض له شيء من ذلك فليتهم فهمه، وليعلم أن الآفة منه. والبلية فيه كما قيل:

وكم من عائب قولاً صحيحاً وآفتـــــه من الفهم السقـــــيم
ولكن تأخذ الأذهان منه عـــلى قـــدر القرائـــح والفهوم

وكذلك بالنسبة للآخرين، فاتهم آراء الرجال على نصوص الوحي. وليكن ردها أيسر شيء عليك للنصوص.

قال الإمام الشافعي: أجمع المسلمون على أن من استبانت له سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد.

الثالث: ألا يجد إلى خلاف النص سبيلاً ألبتة: لا بباطنه ولا بلسانه، ولا بفعله، ولا بحاله[1].

ومن ظن أنه يستغني عما جاء به الرسول - صلى الله عليه وسلم - بما يلقى في قلبه من الخواطر والهواجس فهو من أعظم الناس كفراً. فما يلقى في القلب لا عبرة به، ولا التفات إليه إن لم يعرض على ما جاء به الرسول، ويشهد له بالموافقة، وإلا فهو من إلقاء النفس والشيطان.

كتب كاتب لعمر رضي الله عنه بين يديه: هذا ما أرى الله عمر، فقال: لا، امحه واكتب: هذا ما رأى عمر. وقال رضي الله عنه أيضاً:

أيها الناس اتهموا الرأي على الدين، فلقد رأيتني يوم أبي جندل لو أستطيع أن أرد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم لرددته.

وكان رضي الله عنه يقول الشيء فيرده عليه من دونه فيتبين له الخطأ، فيرجعه إليه، وكان يعرض هواجسه وخواطره على الكتاب والسنة، ولا يلتفت إليها، ولا يحكم بها، ولا يعمل بها.

---

(١) مدارج السالكين حـ ٢ ص ٣٣٤

واتهام الصحابة لآرائهم كثير مشهور، وهم أبر الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأبعدها عن الشيطان[1].

فكيف بمن دونهم علماً وفهماً ونبالة وطهراً؟

المصدر الثالث: التراث الإسلامي

ما يحفظ التاريخ لنا، ويحمل إلينا من سنن الخلفاء، وأقوال الصحابة، وآراء التابعين، واجتهادات الأئمة، واستنباطات العلماء، وما خلقوا من علم وحكمة..

وهذا قبس من نور ماضينا الماجد ليكشف الطريق أمام الحاضر المجاهد:

أولاً: في السياسة والحكم

هذا أبو بكر رضي الله عنه يرسم سياسته أول حكمه فيقول: أيها الناس إني وليت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني. الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي حتى آخذ الحق له إن شاء الله والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه إن شاء الله.

لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١٤٣ - ١٤٤

عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم[١].

تلك سياسة أبي بكر.. وهذا حكمه يقوم على: التواضع والصدق.. والأمانة والشجاعة.. والإصرار على جهاد الأعداء.. وتطهير الأمة من الفحشاء، ومع هذا فإن طاعته مشروطة بطاعة الله ورسوله.

ثانياً: في التشريع والقانون

قال ابن عمر: قدمت رفقة من التجار، فنزلوا (المصلى) فقال عمر لعبد الله بن عوف: هل لك أن نحرسهم الليل من السرقة؟ فباتا يحرسان الناس، ويصليان ما كتب الله. فسمع عمر في جوف الليل بكاء صبي، فتوجه نحوه، وقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى طفلك!

ثم عاد إلى مكانه، فسمع بكاءه، فعاد إلى أمه، فقال لها مقالته، وعاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاء الصبي، فقال لأمه ويحك: مالي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت - وهي لا تعرفه -:

يا عبد الله، إني أعالجه الفطام، فيأبى عليَّ إلا رضاعا.
قال عمر: ولمه؟
قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم.
قال: كم لابنك من العمر؟

قالت: كذا وكذا شهراً، قال لها: ويحك لا تعجليه! ثم صلى الفجر، وما يستبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما انتهى من صلاته قال: يا بؤساً لعمر! كم قتل من أولاد المسلمين؟ ثم أمر منادياً فنادى: لا تعجلوا صبيانكم

---

(١) ابن هشام حـ ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١

على الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام.

وكان عمر قد سن قانوناً يفرض لكل طفل جاوز الرضاع عطاء في بيت المال فلما رأى احتيال الناس على القانون سارع بإصلاحه، وبادر بتعديله لخير الأمة ونفعها[1]

تلك أثارة من منابع تراثنا الإسلامي فليسمع الساسة والمتشرعون!

مميزاتها

أولاً: إنها إنسانية عالمية

لا تخص جنساً دون جنس، ولا تتعصب لقوم ولا لوطن، بل هي للأبيض والأحمر والأصفر والأسود، الكل في ميزانها سواء فلا فضل للأنساب، ولا نبالة للأحساب، بل النبالة للتقوى، والفضل للعاملين. قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾[2]

ينادي كتابها الناس جميعاً نحواً من عشرين مرة.

---

(١) محاضرات إسلامية ص ٨٤

(٢) الحجرات: ١٣.

تقرر آياته:

وحدة الرب: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (٢)

وحدة الأصل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (٣)

وحدة الرسول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (٤)

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (٥)

ومن ثم كان:

فضل الله على الجميع: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ (٦)

---

(١) الفاتحة: ٢.
(٢) البقرة: ٢١.
(٣) النساء: ١
(٤) الأعراف: ١٥٨.
(٥) سبأ: ٢٨.
(٦) البقرة: ٢٤٣.

رحمة الله للجميع: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)

كتابها للجميع.. بلاغاً وبياناً وبصائر:

﴿هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ (٢) ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾ (٣) ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ﴾ (٤)

رسولها للجميع رحمة من الله وكرماً

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (٥)

ثانياً: إنها نظام كامل

شريعة الله فيها أسس عامة:

للحكم والقضاء..

للسياسة والاقتصاد..

للتربية والاجتماع..

رضيها الله لعباده، فهي صالحة لكل زمان ومكان، أتم بها عليهم نعمته حيث أكملها لهم فلا تقبل تحويراً ولا تبديلاً، ولا تحتمل ترقيعاً بما يستورد من نظريات غريبة، ومبادىء مناقضة لعقيدتها ورسالتها.

---

(١) الحج: ٦٥.

(٢) الجاثية: ٢٠.

(٣) آل عمران: ١٣٨.

(٤) إبراهيم: ٥٢.

(٥) الأنبياء: ١٠٧.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (١)

في ظلها أمن الحياة:

على الأرواح: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ (٢)

على الأعراض: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ﴾ (٣)

على الأموال: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (٤)

تعالج أمراض الفرد وأدواء الأمة، وتعطي أسلوباً فريداً للعمل والتعامل يقوم على:

العدل لا الهوى.. الإحسان لا الإساءة.. السخاء لا البخل.. الطهر لا القبح.. المعروف لا المنكر.. التواضع لا الكبر كل هذا في آية واحدة.. يقول الله تعالى:

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) النور: ٢

(٤) المائدة: ٣٨.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [١]

يقول عثمان بن مظعون:

قرأتها على الوليد بن المغيرة فقال: والله إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وما هو بقول البشر،

وقال أبو جهل:
إن إلّهه ليأمره بمكارم الأخلاق[٢].

ثالثاً: أنها إيجابية مرنة

تعطي المسلم حرية التزود بالمعارف الجديدة والاطلاع والدراسة والبحث والتنقيب في أسرار الكون، فلا يجمد والدنيا من حوله تتحرك، ولا يعيش في عزلة وانزواء، بل لا بد من النماء والعطاء، يتفاعل مع ما حوله مؤثراً وموجهاً، مفيداً ومستفيداً

ولقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلبس الثياب التي نسجها المشركون، ويصلي فيها[٣].

أيليق بعد ذلك أن يقع المسلم في أخيلة سقيمة؟

---

(١) النحل: ٩٠.
(٢) النسفي جـ ٢ ص ٢٩٧ ط دار الكتاب العربي
(٣) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١٧٣.

فيحرم على نفسه كثيراً مما أباح الله من بسط صنعت في الغرب أو الشرق، أو استعمال أدوات الطعام، ووسائل الركوب مما لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

كيف؟ والله يقول:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣٢ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١)

وكان الصحابة أقل الأمة تكلفاً اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾ (٢)

ولما قدم عمر رضي الله عنه الجابية استعار ثوباً من نصراني فلبسه حتى خاطوا له قميصه وغسلوه.

وكان سلمان وأبو الدرداء في بيت نصرانية، فقال أبو الدرداء هل في بيتك مكان طاهر فنصلي فيه؟

---

(١) الأعراف: ٣٢ - ٣٣.
(٢) ص: ٨٦.

فقالت: طهرا قلوبكما، ثم صليا أين أحببتما.

فقال له سلمان: خذها من غير فقيه.

وكان عمر بن الخطاب يقول: سنت لكم السنن، وفرضت لكم الفرائض، وتركتم على الواضحة، إلا أن تميلوا بالناس يميناً وشمالاً[1].

ومن ثم فإن الإسلام يحتفي بالعقل ويقدره، ويبعثه إلى التأمل والنظر، ويجعله أساس التكليف، ومناط الثواب والعقاب.

قال صلى الله عليه وسلم:

رفع القلم عن ثلاثة:

المجنون حتى يفيق..

والنائم حتى يستيقظ..

والصبي حتى يبلغ..

فالإسلام يفسح للعقل والتجربة في شئون الحياة العملية المتروكة للتجربة والمعرفة كشئون الزرع وخطط القتال وأمثالها من المسائل العملية البحتة.

أما التصور الاعتقادي، والنظام الاجتماعي، والارتباطات الخاصة بتنظيم الحياة مما يتصل بالعقيدة والمنهج فقد كان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يتشدد في أمر تلقيه عن الله وحده.

روى الإمام أحمد عن عبد الله بن ثابت قال:

جاء عمر إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله: إني أمرت

---

(١) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١٧٣ - ١٧٩

بأخ يهودي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة، ألا أعرضها عليك؟

قال: فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قلت له: ألا ترى ما وجه رسول الله - صلى الله عليه وسلم؟

فقال عمر: رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً.

قال: فسري عن النبي - صلى الله عليه وسلم - وقال:

« والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى - عليه السلام - ثم اتبعتموه، وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم، وأنا حظكم من النبيين »

وقال الحافظ أبو يعلى عن جابر: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله لو كان موسى حياً بين أظهركم ما حلّ له إلا أن يتبعني »

وفي رواية: « لو كان موسى وعيسى حيين لما وسعهما إلا اتباعي »[(١)]

رابعاً: أنها تدعو إلى العلم

حض الإسلام على طلبه، وحث على مدارسته، ورفع من شأن أهله قال الله تعالى:

﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

---

(١) في ظلال القرآن » ص ٤٣٩ المجلد الأول الطبعة الثانية دار الشروق

وقال صلى الله عليه وسلم: طلب العلم فريضة على كل مسلم.

وقال معاذ بن جبل:

تعلموا العلم، فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومذاكرته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة.

لأنه بيان الحلال والحرام، ومنار سبل الجنة.

التفكر فيه يعدل الصيام..

ومدارسته تعدل القيام.. رواه ابن عبد البر

وقال الإمام أحمد: الناس إلى العلم أحوج منهم إلى الطعام والشراب، لأن الرجل يحتاج إلى الطعام والشراب مرة أو مرتين، وحاجته إلى العلم بعدد أنفاسه.

وقال الشافعي: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

وقال ابن وهب: كنت بين يدي مالك رضي الله عنه، فوضعت ألواحي، وقمت أصلي.

فقال: ما الذي قمت إليه بأفضل مما قمت عنه[1]

خامساً: إنها تدعو إلى العمل

فالعمل صنو العبادة.. وقرين الجهاد.. عليه تقوم عمارة الكون، وسعادة البشر.

دعا إليه القرآن في أكثر من آية قال تعالى:

﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾[2]

---

(١) مدارج السالكين حـ ٢ ص ٤٦٧

(٢) الجمعة: ١٠

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾(١).

فقد بنى الله الحياة على الأسباب والمسببات:

هذه مريم كانت في بيت المقدس

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(٢)

فلما خرجت إلى دنيا الناس قال لها:

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾(٣)

ماذا تصنع يد رقيقة في جذع نخلة؟

ما قدرة نفس ضعيفة ساعة المخاض؟

لكنها التربية الإسلامية التي تعلم المسلم حكمتها المضيئة «اعقلها وتوكل»

والمتوكل من بذر الحب وتوكل على الرب.

ولقد عمل رسول الله صلى الله عليه راعياً وتاجراً ومجاهداً يأكل من كسب يده، وعرق جبينه، وكان في بيته يخصف نعله ويرقع ثوبه، ويحلب

---

(١) الملك: ١٥.

(٢) آل عمران: ٣٧.

(٣) مريم: ٢٥.

الشاة لأهله، ويعلف البعير[1] ويخرج إلى السوق يشتري حاجته، ويحملها بنفسه[2]

ويعلن خوفه على أمته

من انتفاخ بطونهم.. وقصر هممهم.

من طول رقادهم.. وانعدام نشاطهم.

فيقول صلى الله عليه وسلم:

أخشى ما خشيت على أمتي كبر البطن، ومداومة النوم والكسل. رواه الدارقطني

ويتوعد الفارغ المتواكل فيقول:

«أشد الناس عذاباً يوم القيامة المكفى الفارغ»

سادساً: إنها تقدم المبادىء في نماذج بشرية

فليست المبادىء في الإسلام مثلاً علياً تخيلها الفلاسفة دون تحقيق، وصوراً كاملة أو حائلة لا تنبض بالحياة.

بل قد تحولت المبادىء الإسلامية حقائق حية تجري في الناس على قدمين، وتسعى في الأرض نوراً يخطف أبصار الأعداء على القرب والبعد. هذا كسرى يبعث رسوله إلى المدينة، ليتعرف على خليفة المسلمين عمر بن الخطاب.. أي رجل هو؟ ويتلمسه فإذا هو نائم تحت شجرة بلا حرس، فقال:

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٣٢٨

(٢) إغاثة اللهفان جـ ١ ص ١٤١

« حكمت فعدلت فأمنت فنمت يا عمر »

وصورها حافظ ابراهيم فقال:

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا بين الرعية عطلاً وهو راعيها
وعهده بملوك الفرس أن لها سوراً من الجند والحراس يحميها
فقال قولة حق أصبحت مثلا وأصبح الجيل بعد الجيل يرويها
أمنت لما أقمت العدل بينهم فنمت نوم قرير العين هانيها[(١)]

غايتها

تكوين الشخصية المسلمة الزاكية التي تؤمن بالكتاب كله، فإنها تربي المسلم فكراً وقلباً على أساس من عقيدة:

لا إله إلا الله محمد رسول الله

فالأولى شهادة التوحيد فلا معبود بحق سواه

والأخرى شهادة الرسالة فهو مبعوث الهداية الإلهية

وحقهما على كل مسلم: الإخلاص والاتباع

قال الفضيل بن عياض في قول الله تعالى:

ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا

العمل الحسن: هو أخلصه وأصوبه

قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم - قصيدة العمرية

قال: إن العمل

إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل.

وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل.

ولا يقبل حتى يكون خالصاً صواباً.

والخالص: ما كان لله وحده.

والصواب: ما كان على السنة.

وفي الصحيح عن عائشة عن النبي صلى الله عليه وسلم:

«كل عمل ليس عليه أمرنا فهو رد»

فكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله إلا بعداً، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره لا بالآراء والأهواء[1].

والتلفظ بالشهادتين عن طريق الوراثة دون قيام بحقها، والتزام بمقتضياتها لا يغني شيئاً.

قال صلى الله عليه وسلم:

«أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله تعالى» البخاري

إنها تربي المسلم داعية وقدوة على أساس أنه صاحب رسالة:

هي: إخراج الناس من الظلمات إلى النور

من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده.

---

(١) مدارج السالكين حـ ١ ص ٨٤

قال الله تعالى:

﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾(١)

فلا يكفي أن يسلم الإنسان في نفسه بل لا بد أن يكون داعية إلى الله يحمل رسالته مجاهداً في سبيله يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر بالحكمة والموعظة الحسنة قال تعالى لموسى وهارون:

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾(٢)

أتدري ما طغيانه؟

نازع الله الربوبية فقال:

﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾(٣)

نازع الله الألوهية فقال:

﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾(٤)

كفر بنعمة الله فقال:

﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾(٥)

---

(١) إبراهيم: ١.
(٢) طه: ٤٢.
(٣) النازعات: ٢٤.
(٤) القصص: ٣٨.
(٥) الزخرف: ٥١.

ومع هذا يقول الله لهما:

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾[1]

وأئمة الإيمان هم: ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾[2]

فحق الإسلام على أهله أن ينشروه في الناس، ويبلغوه للخلق، ويحموا طريق الدعوة والدعاة من عنت الظالمين قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[3]

وتحقيق هذا المنهج يقتضي أمرين:

أولهما: دعوة إلى الخير يعرف منها الناس هذا المنهج

الآخر: سلطة تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر فتطاع

لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾[4]

فمنهج الله في الأرض ليس مجرد وعظ وإرشاد وبيان فهذا شطر..

أما الشطر الآخر: فهو القيام بسلطة الأمر والنهي على تحقيق المعروف،

---

(١) طه: ٤٤.
(٢) الأحزاب: ٣٩.
(٣) آل عمران: ١٠٤.
(٤) النساء: ٦٤.

ونفي المنكر من الحياة البشرية، وصيانة تقاليد الجماعة الخيرة من أن يعبث بها كل ذي هوى، وكل ذي شهوة، وكل ذي مصلحة، وضمانة هذه التقاليد الصالحة من أن يقول كل برأيه، وبتصوره زاعماً أن هذا هو الخير والمعروف والعدل[1].

إنها تربي المسلم جسماً ونفساً على أساس أنه: مادة وروح.

فقد أحل الله للإنسان الاستمتاع والزينة، فنادى الناس جميعاً أن ينتفعوا بسائر ما في الأرض من الحلال الطيب فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[2]

وفي استفهام لاذع ينكر على كل من حرم حلالاً مما أخرج الله لعباده من الزينة أو طيب الرزق فقال:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[3]

وما حرم الله شيئاً إلا جعل لهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه وألذ وأطيب يقوم مقامه ليستغني العبد عن الحرام، ويسعه الحلال.

فحين نهى الله عن المنكر أمر بالمعروف.

---

(١) في ظلال القرآن ص ٤٤٤.
(٢) البقرة: ١٦٨.
(٣) الأعراف: ٣٢.

وحين حرم الله الخبائث أحل الطيبات.

قال تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ (١)

إن الإسلام يأبى إرهاق الجسم، وإذلال النفس: فلم يكلف شططاً ولم يجعل في الدين حرجاً.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (٢)

﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ (٣) ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (٤)

روى أحمد وأبو داود وابن ماجة والبيهقي بسند جيد عن رجل من باهلة: أنه أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، أنا الرجل الذي جئتك عام الأول.

فقال: فما غَيَّرك، وقد كنت حسن الهيئة؟

قال: ما أكلت طعاماً إلا بليل منذ فارقتك.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لِمَ عذبت نفسك؟

---

(١) الأعراف: ١٥٧.
(٢) الحج: ٧٨.
(٣) النساء: ٢٨.
(٤) التغابن: ١٦.

ثم قال: صم شهر الصبر، ويوماً من كل شهر.

قال: زدني، فإن بي قوة.

قال: صم يومين.

قال: زدني.

قال: صم من الحرم واترك، صم من الحرم واترك،

صم من الحرم واترك.

وقال بأصابعه الثلاثة، فضمها، ثم أرسلها. فليسمع المتكلفون تساؤل الرسول في عجب وإنكار.

ما غير هيئتك؟

لم عذبت نفسك؟

وتأتي وصاته - صلى الله عليه وسلم - الإنسانية الرحيمة تدعو إلى الرفق، ومنع الإفراط المؤدي إلى الملل، وتبين أوقات النشاط للعبادة فيقول:

«إن الدين يسر، ولن يشادَّ الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالقدوة والروحة وشيء من الدُّلجة»

البخاري

ونعى على قوم من النصارى ابتدعوا في دين الله ما لم يأمر به الله، كما نعى عليهم عدم قيامهم بذلك مما زعموا أنه قربة إلى الله. قال تعالى:

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ (١)

وعن أنس رضي الله عنه. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«لا تشددوا على أنفسكم فيشدد الله عليكم، فإن قوماً شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم. فتلك بقاياهم في الصوامع والدِّيارات: رهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم.

ورأى عمر رجلاً يطأطيء رأسه فقال له:

إرفع رأسك، فإن الإسلام ليس بمريض، ولا تمت علينا ديننا أماتك الله.

وفي رواية: أن عائشة رأت رجلاً كاد يموت تخافتاً (أي تخشعاً وتذللاً)

فقالت: مال هذا؟ قيل: من القراءة والعبادة.

فقالت: كان عمر سيد القراء. وكان أعبد لله منه.

فكان إذا مشى أسرع. وإذا قال أسمع. وإذا أطعم أشبع. وإذا ضرب أوجع. البخاري

وحث الإسلام المسلم على العمل في نشاط من أجل الحياة

قال تعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ (٢)

وعلم المسلم أن يقول في دعائه:

﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (٣)

---

(١) الحديد: ٢٧.

(٢) القصص: ٧٧.

(٣) البقرة: ٢٠١.

والحسنة هنا وهناك تشمل:
الإيمان والأمان
الإخلاص والخلاص
السنة والجنة
القناعة والشفاعة
المرأة الصالحة والحور العين
العيش على سعادة والبعث على شفاعة

وحين حرم رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسه العسل أو مارية على سبيل الزهادة. وحمل النفس على الصبر عنه قال الله تعالى في استفهام للعظة والتذكير:

﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ (١)

ويحدد الرسول صلى الله عليه وسلم الحقوق فيقول فيما رواه أحمد:

عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:
لقد أخبرت أنك تقوم الليل. وتصوم النهار.
قال: قلت: يا رسول. نعم.
قال: فصم. وأفطر، وصلِّ، ونم.
فإن لجسدك عليك حقاً..
وإن لزوجك عليك حقاً..
وإن لزورك عليك حقاً..
وإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام.

---

(١) التحريم: ١.

قال: فشددت فشدد عليّ

قال: فقلت: يا رسول الله، إني أجد قوة.

قال: فصم من كل جمعة ثلاثة أيام.

قال: فشددت فشدد عليّ

قال: فقلت: يا رسول الله إني أجد قوة.

قال: صم صوم نبي الله داود، ولا تزد عليه.

قلت: يا رسول الله وما كان صيام داود عليه الصلاة والسلام؟

قال: كان يصوم يوماً، ويفطر يوماً.

ويكره الأذناب الإمعات فيقول:

لا يكن أحدكم إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسنوا أحسنت وإن أساءوا أسأت! ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم. الترمذي.

ويأمر صلى الله عليه وسلم بالحزم. والاستعانة بالله فيقول:

المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير.

احرص على ما ينفعك.

واستعن بالله، ولا تعجز.

وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل

فإن لو تفتح عمل الشيطان.

وعناية الإسلام بالتربية الجسمية والنفسية عملياً أظهر ما تكون فيما شرع الله من عبادات.

إنها تربي المسلم خلقاً وسلوكاً على أساس أن ذلك ثمرة للعقيدة ونورها

فتدعوه إلى الوقوف عند حدود كتاب الله، والتزام سنة رسول الله:

يحل الحلال، ويحرم الحرام، ويتخلق بأخلاق الإسلام، ويتحلى بآدابه، ليكون قرآنياً في تصرفاته، إسلامياً في معاملاته يعطي للآخرين القدوة الحسنة نبلاً وفضلاً وإيثاراً وحباً، فلا يضمر شراً، ولا يبيت حقداً.

وفياً بالعهد
شجاعاً في الحق
داعياً للخير
متنافساً فيه

تلك شخصية المسلم.. أرادها الإسلام متميزة مستقلة قوية حتى لا تذوب في أهل الأديان الأخرى.

ولهذا حارب الطراوة والضعف، وألزمها بالقوة والصرامة والجد. قال تعالى:

﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ﴾ (١)

﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (٢)

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ٦٣.
(٢) مريم: ١٢.
(٣) الأنفال: ٦٠.

وحين نزل قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

قال صلى الله عليه وسلم: مضى عهد النوم يا خديجة.

هذه تربية الإسلام..

غايتها:

تكوين الإنسان المسلم. واللبنة المسلمة على هدى من نور الله: عامرة قلوبهم بالإيمان. مأنوسة بالرحمن. مغمورة بالرضوان. باعوا أنفسهم لله:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ (١)

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

المبحث الآخر

دين الله الذي ارتضاه

معاني الدين - مادة الإسلام - وحدة دين الله - معالم العقيدة - أقسام الكلام فيها.

معاني كلمة الدين

يقال في اللغة: دان الناس: أي قهرهم على الطاعة

وتقول: دنتهم فدانوا - أي قهرتهم فأطاعوا، ودنت القوم: أي أذللتهم[1]

وقد ذكرت كلمة الدين في القرآن أكثر من تسعين مرة بياناً لمكانته، ورعاية الله له.

جاء معرفاً بالألف واللام: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِ﴾[2]

جاء معرفاً بالإضافة إلى الله: ﴿أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ﴾[3]

جاء معرفاً بالإضافة إلى الحق: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾[4]

وكما جاء معرفاً جاء منكراً: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ﴾[5]

---

(١) لسان العرب جـ ١٧ ص ٢٤

(٢) البقرة: ٢٥٦.

(٣) آل عمران: ٨٣.

(٤) الصف: ٩.

(٥) النساء: ١٢٥.

وكلها تمثل في الذهن العربي تصورات أربعة:

أولها: القهر والغلبة من ذي سلطة عليا.

الثاني: الإطاعة والتعبد والعبدية من قبل خاضع لذي سلطة.

الثالث: الحدود والقوانين والطريقة التي تتبع.

الرابع: المحاسبة والقضاء والجزاء والعقاب.

وقد يراد بكلمة الدين نظام الحياة الكامل الشامل لنواحيها: الاعتقادية.. والفكرية.. والخلقية.. والعملية[1].

- فالطاعة والخضوع كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا﴾ أي أحسن طاعة.

وقوله تعالى في تحدٍّ معجز لمن أنكر النشأة الآخرة:

﴿فَلَوْلَا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ أي غير خاضعين لله

﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ أي الروح لمن فارقته.

﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[2] إنكم غير مربوبين ومقهورين لله

- الجزاء والملك: كقوله تعالى:

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[3] اي يوم الجزاء والملك إشارة إلى قوله تعالى:

---

(١) المصطلحات الأربعة ص ١٢٦.

(٢) الواقعة: ٨٦ - ٨٧.

(٣) الفاتحة: ٣.

إلى قوله تعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾(١)

وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾(٢)

ومنه قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

« البر لا يبلى ، والذنب لا ينسى ، والديان لا يموت ، اعمل ما شئت كما تدين تدان ».

- النظام السياسي والحكم:

كقوله تعالى في قصة يوسف، وضمه لأخيه بنيامين:

﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾(٣)

أي في قانون الملك ونظامه.

وقوله تعالى في الزانية والزاني غير المحصنين:

﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾(٤) أي حكم الله

- المنهج والطريقة: كقوله تعالى: ﴿لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ﴾(٥)

- العقيدة والملة: كقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ﴾(٦)

---

(١) غافر: ١٦.
(٢) المدثر: ٤٦.
(٣) يوسف: ٧٦.
(٤) النور: ٢.
(٥) الكافرون: ٦.
(٦) الشورى: ١٣.

- نظام الحياة عقيدة وشريعة وخلقاً.

كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (١)

وسمى ما شرعه الله على لسان أنبيائه من الأحكام ديناً، لأننا ندين لله به وننقاد.

ويسمى ملة: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ (٢)

من حيث أن الملك يمليه على الرسول، والرسول صلى الله عليه وسلم يمليه علينا.

ويسمى شريعة:

قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾ (٣)

من حيث أن الله شرع الأحكام منهاجاً للحياة، ونظاماً للناس.

مادة الإسلام:

وقد ذكر لفظ الإسلام في ستة مواضع من كتاب الله عز وجل، وهي تعلن عن حقائق باهرة:

---

(١) آل عمران: ٨٥.

(٢) الحج: ٧٨.

(٣) الجاثية: ١٨.

- إنه الدين عند الله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾ (١)

- إنه الدين الذي ارتضاه: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (٢)

- إن الله لا يقبل ديناً سواه. ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (٣)

- إن من شرح الله صدره إليه فقد هداه: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ (٤)

- إن من شرح الله صدره إليه فهو على نور الله: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ (٥)

- إن أظلم الظالمين من يدعى إليه فيأباه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ (٦)

كما ذكرت مادة الإسلام في أكثر من سبعين موضعاً في القرآن جاءت:

---

(١) آل عمران: ١٩ .
(٢) المائدة: ٣ .
(٣) آل عمران: ٨٥ .
(٤) الأنعام: ١٢٥ .
(٥) الزمر: ٢٢ .
(٦) الصف: ٧ .

بصيغة الماضي: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(١)

بصيغة المضارع: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾(٢)

بصيغة الأمر: ﴿فَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ﴾(٣)

بصيغة اسم الفاعل: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾(٤)

وكلها تحمل معاني:

الإخلاص لله.. والاستسلام لحكم الله.. والانقياد لأمره، واتباع منهج الله كما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في الآيتين السابقتين «فالإحسان: اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم. والتزام هديه وسنته ومن ثم لا يتقبل الله عملاً إلا بشرطين:

أحدهما: أن يكون خالصاً لله وحده.
الآخر: أن يكون صواباً موافقاً للشريعة.

فإذا كان العمل خالصاً لكنه على غير الهيئة الشرعية التي رسمها الرسول المعصوم فلن يتقبله الله. قال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) النساء: ١٢٥.
(٢) لقمان: ٢٢.
(٣) الحج: ٣٤.
(٤) يونس: ٧٢.

من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد. رواه مسلم

فعمل الرهبان ومن شابهم - وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله - فإنه لا يتقبل حتى يكون متابعاً للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث إليهم وإلى الناس كافة، وفيهم وفي أمثالهم قال الله تعالى:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (١)

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا﴾ (٢)

وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة في الصورة الظاهرية لكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله.

وهذا حال المنافقين المرائين الذين: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٣)

ولهذا قال الله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (٤)

---

(١) الفرقان: ٢٣.
(٢) النور: ٣٩.
(٣) النساء: ١٤٢.
(٤) الكهف: ١١٠.

فمن فقد الإخلاص كان منافقاً.

ومن فقد المتابعة كان ضالاً جاهلاً.

ومن جمعهما فقد عمل عمل المؤمنين الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة وعد الصدق الذي كانوا يوعدون[1].

وحدة دين الله

لقد ارتضى الله لعباده ديناً واحداً منذ كانت الرسالات ومنذ كان المرسلون. لا يقبل منهم غيره هو الإسلام.

قال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾

وقال: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾

وقد ثبت في الصحيح أن نوحاً أول رسول بعث إلى أهل الأرض وقد كان قبله أنبياء: كشيث وإدريس وقبلهما آدم كان نبياً مكلماً. قال ابن عباس: وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام[2].

ولو تتبعت مادة الإسلام في القرآن لوجدتها تحكي في ضياء باهر دعوة الرسل جميعاً إليه، والتقاءهم في حب وإخاء عليه.

---

(١) ابن كثير ص ٥٩٥ ط الفجالة الجديدة.

(٢) النبوات لابن تيمية.

هذا نوح أبو البشرية الثاني يقول لقومه:

﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١)

هذا أبو الأنبياء إبراهيم يعلن إسلامه:

﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢)

وذهب لوط يدعو قومه إليه فما آمن له إلا ابنتاه

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣)

وينطق بها إبراهيم وإسماعيل دعاء ندياً وهما يرفعان قواعد البيت:

﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (٤)

ويحفظها الزمن وصية زاكية من إبراهيم ويعقوب لأبنائهما:

﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (٥)

---

(١) يونس: ٧٢.
(٢) البقرة: ١٣١.
(٣) الذاريات: ٣٥ - ٣٦.
(٤) البقرة: ١٢٨
(٥) البقرة: ١٣٢.

وتأتى على لسان يوسف سؤالٌ حبيب من أعماق النفس الصابرة الشاكرة:

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (١)

ويجهر بها موسى في قومه:

﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (٢)

ثم تأتى على ألسنة سحرة فرعون في مناجاة لله:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (٣)

وحين جاء عيسى يصرخ في أتباعه:

﴿مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٤)

وفي أعقاب المرسلين، وانقطاع الوحي، وتتابع الأجيال تترى يفد محمد صلى الله عليه وسلم، لينشرها في الناس نغماً ربانياً حلواً، ونشيداً إلهياً عذباً بلغة محمدية صافية اللحن، قوية النبرات.

---

(١) يوسف: ١٠١.

(٢) يونس: ٨٤.

(٣) الأعراف: ١٢٦.

(٤) آل عمران: ٥٢.

﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (١)

وبهذا يلتقي أبو الأنبياء إبراهيم ومن قبله أبو البشرية نوح مع قمة النبوات محمد صلى الله عليه وسلم على دين الله القيم:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾

تلك قضية شهد الله عليها والملائكة وأولو العلم:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ (٢)

فالذين يؤمنون بالله يجدون في كل لمحة من لمحات الوجود آيات تشهد بوحدانية الله المطلقة.. وتفرده بالوجود المطلق، وإسلام الوجه له دون سواه، ومن لم يوصله نظره إلى هاتين الحقيقتين فقد حملتهما إليه ثلاث شهادات:

شهادة الله سبحانه.. شهادة الملائكة.. شهادة أولي العلم فبعد أن بين الله صفته، بين دينه الذي ارتضاه لعباده فالشهود ثلاثة.
والمشهود عليه أمران.. (٣)

---

(١) الأنعام: ١٦٣.
(٢) آل عمران: ١٩.
(٣) الإشارات الإلهية.

وتتم الوحدة الكبرى بين الرسالات كلها، وبين الرسل جميعاً لتدمغ من فرقوا دينهم وكانوا شيعاً وقالوا:

﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (١)

ويؤكد ذلك قوله تعالى:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٢)

يقول ابن القيم:

« قال ابن عباس: افتخر المشركون بآبائهم، فقال كل فريق: لا دين إلا دين آبائنا وما كانوا عليه، فأكذبهم الله تعالى فقال: إن الدين عند الله الإسلام.

يعني الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، وهو دين الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، ليس لله دين سواه.

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ١٣٦.

(٢) آل عمران: ٦٧.

(٣) آل عمران: ٨٥.

فدين جميع أنبياء الله ورسله وأتباعهم من أولهم إلى آخرهم، وأنه لم يكن لله قط، ولا يكون له دين سواه».

فالإسلام دين أهل السموات. ودين أهل التوحيد من أهل الأرض.

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾[1]

فأديان أهل الأرض ستة: واحد للرحمن، وخمسة للشيطان فدين الرحمن الإسلام.

والتي للشيطان: اليهودية والنصرانية والمجوسية والصابئة ودين المشركين[2].

* * *

قال ابن كثير:

«أخبر الله تعالى أنه بعث رسله بالإسلام. ولكنهم متفاوتون فيه بحسب شرائعهم الخاصة التي ينسخ بعضها بعضاً إلى أن نسخت بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم التي لا تنسخ أبد الآبدين، ولا تزال قائمة منصورة، وأعلامها مشهورة إلى قيام الساعة ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد».

---

(١) آل عمران

(٢) مدارج السالكين جـ ٣ ص ٤٧٦

فإن أولاد العلات هم الإخوة من أب واحد وأمهات شتى فالدين واحد وهو عبادة الله وحده لا شريك له وإن تنوعت الشرائع التي هي بمنزلة الأمهات.

* * *

ويقول الشهيد سيد قطب:

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس.. وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية.

فدين الله للبشر، ومنهجه للناس هو هو لا يتغير في أساسه كما أنه لا يتغير في مصدره.

بهذا الشمول كان الإسلام هو الدين الذي لا يقبل من الناس غيره، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله ومقتضيات هذه الوحدانية[1].

ولا يرغب عن تلك الملة إلا ظالم لنفسه سفيه عليها.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾[2]

---

(١) في ظلال القرآن.
(٢) البقرة: ١٣٠.

معالم العقيدة...

قال الله تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١)

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (٢)

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ
آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ
وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (٣)

من هذه النصوص نرى العقيدة الإسلامية موجزة في كلمة واحدة هي الإيمان، وكل آية من الآيات السابقة تعطي معلماً من معالمها.

فالآية الأولى تدل على أنه إدراك عقلي يبلغ حد اليقين الجازم الذي

---

(١) الحجرات: ١٥.
(٢) النساء: ٦٥.
(٣) الأنفال: ٤.

يسمو فوق الشبهات فلا يلحقه شك، ولا يرقى إليه ريب، ينبثق منه الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله.

والآية الثانية تدل على أنه إذعان قلبي يتمثل في الخضوع لحكم الله، والرضا بما قضاه، والاستسلام لأمره، والسمع والطاعة لله ولرسوله:

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)

فشأن المؤمن أن يتحاكم إلى ما آمن به، وإلى من آمن به، ينزل عند شرعه. ويستجيب لدعوته.

والآية الثالثة تدل على أنه حرارة وجدانية تلزم بمقتضيات الإسلام ومبادئه.

من:

تمثل عظمة الله ومهابته عند ذكره.
والشعور بحلاوة القرآن عند تلاوته.
والتوكل على الله والتحرر من عبادة غيره.

وبجانب هذه الصفات القلبية الباطنية صفات أخرى عملية كإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة.

تلك معالم العقيدة، وحقيقة الإيمان، فليس كلمات تقال.. ولا دعوى بلا برهان. قال صلى الله عليه وسلم:

---

(١) النور: ٥١.

ليس الإيمان بالتمني، ولكنه ما وقر في القلب وصدقه العمل. وإن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقالوا: نحن نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

البخاري في التاريخ

وعن الحارث بن مالك أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له:

كيف أصبحت يا حارث؟

قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: أنظر ما تقول فإن لكل شيء حقيقة، فما حقيقة إيمانك؟

فقال: عزفت نفسي عن الدنيا: فأسهرت ليلي.. وأظمأت نهاري
وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزاً.
وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها.
وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها.

فقال: يا حارث عرفت فالزم. رواه الطبراني

فالإيمان عمل يبلغ أعوار النفس، ويحيط بكل جوانبها وجوارحها والمؤمنون الصادقون لا يقبلون الواقع المنحرف، ولا يثنيهم بغي الجاهلية من حولهم عن المجاهدة والمصابرة في سبيل التوحيد بين تصورهم الإيماني وواقعهم العملي.

فليس الإيمان ادعاء باللسان فما أكثر المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، ومن ثم نفاه عن الأعراب حين لم تستقر حقيقته في قلوبهم، ولم

تشربها أرواحهم.. ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ (١)

ليس عملاً بالجوارح فما أكثر المرائين وقلوبهم هواء:

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (٢)

ليس مجرد إدراك ذهني فكم من قوم أدركوا حقيقته ولم يؤمنوا فقد علم فرعون وقومه صدق موسى ولم يؤمنوا، ولهذا قال له موسى:

﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ (٣)

وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ (٤)

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم كما يعرفون أبناءهم، ولم يكونوا مؤمنين. قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٥)

---

(١) الحجرات: ١٤.

(٢) النساء: ١٤٢.

(٣) الإسراء: ١٠٢.

(٤) النمل: ١٤.

(٥) البقرة: ١٤٦.

الصلة بين الإيمان والإسلام:

سواء أكان الإيمان هو الإسلام فهما مترادفان لقوله تعالى في قصة لوط:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٣٥ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[1]

أو كان الإيمان التصديق والإسلام القول والعمل فهما مختلفان لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾[2]

ولحديث جبريل حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالأصول الخمسة. أو كان بينهما عموم وخصوص فالإيمان يشمل التصديق أساساً والقول والعمل لقول الرسول صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس: آمركم بالإيمان بالله وحده. أتدرون ما الإيمان بالله

شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخمس من الغنائم.

سواء أكانت الأعمال داخلة في مسمى الإيمان، أو أن الإسلام علانية والإيمان في القلب - فلا خلاف بين أهل السنة في أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل. وعلى هذا يفسر قول الرسول صلى الله عليه وسلم: لا يدخل النار من قال لا إله إلا الله. فإن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط إذ المنافقون يقولونها بألسنتهم وهم تحت الجاحدين في الدرك الأسفل من النار.

---

(١) الذاريات: ٣٦.

(٢) الحجرات: ١٤.

فمثل الإسلام من الإيمان كالشهادتين إحداهما من الأخرى فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية فهما شيئان في الأعيان، لكن إحداهما مرتبطة بالأخرى في المعنى والحكم كشيء واحد، كذلك الإسلام والإيمان.

لا إيمان لمن لا إسلام له
ولا إسلام لمن لا إيمان له
إذ لا يخلو المسلم من إيمان يصح به إسلامه.
ولا يخلو المؤمن من إسلام يتحقق به إيمانه[1].

« فالعقيدة تنفذ إلى العقل فتقنعه، وإذا اقتنع العقل. وتحرك القلب، واتجهت الإرادة استجابت الجوارح، واندفعت للعمل »[2]

وفرق كبير بين أن ترى الرأي، وأن تعتقده، إذا رأيت الرأي فقد أدخلته في دائرة معلوماتك. وإذا اعتقدته جرى في دمك، وسرى في مخ عظامك. وتغلغل في أعماق نفسك[3].

ولها أصول تقوم عليها إذ ما لا أصل له فرع مجرد لا وثوق به. وبناء هش لا أساس له.

وجملة هذه الأصول لا تخرج من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر كما صرح بذلك الكتاب والسنة.

وجاء ترتيب الأصول الخمسة الأولى في القرآن على وجهين: فتارة تذكر

---

(١) شرح الطحاوية ص ٢٥١
(٢) الإيمان والحياة ص ١٧
(٣) فيض الخاطر ص ١

طرفين وواسطة كقوله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ (١)

وتارة تذكر على الترتيب الوجودي قال تعالى:

﴿وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ (٢)

وفي حديث جبريل قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال صلى الله عليه وسلم: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره.

فالعقيدة:

جملة مبادىء متى بلغت أغوار النفس، وأحاطت بكل جوانبها.

كان العقل مؤمناً بالله، والقلب خاضعاً لله، والإرادة متجهة لتنفيذ ما قضاه الله، والجوارح مندفعة للعمل بأوامر الله.

وينقسم الكلام فيها أربعة أقسام رئيسية:

الأول: الإلهيات

الثاني: الروحانيات

الثالث: النبوات

الرابع: السمعيات

---

(١) البقرة: ١٧٧.
(٢) النساء: ١٣٦.

الباب الأول

الإلٓهيات

الفصل الأول

صفة الوجود

أولاً: البداهة والفطرة

ثانياً: الآيات الصامتة: في الأرض - في السماء - في النفس - الرد على الملاحدة

ثالثاً: الآيات الناطقة: العناية والتسخير - التصنيف الشامل - الحركة الدائبة.

أولاً: البداهة والفطرة

إن وجود الله تعالى حقيقة بدهية لا تحتاج إلى برهان يثبتها، أو دليل يؤيدها، لأن وجوده تعالى أظهر للعقول والفطر من وجود النهار، وطلب الدليل على البدهيات إفساد لكل القضايا الأولية التي يؤمن بها العقل كالواحد نصف الاثنين، والكل أكبر من الجزء.

وليس يصح في الأذهان شيءٌ إذا احتاج النهار إلى دليل

كما أن الإيمان به سبحانه شعورٌ فطري في الإنسان مودع في أصل خلقته، مستقرٌ في صميمها، تستشعره بذاتها فهو مغروز في الجبلة الإنسانية بالأدلة الآتية:

أولاً: العهد المعقود بين الفطرة وبارئها

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ﴾

يقول الزجاج والزمخشري:

إن الله أخرج من ظهور بني آدم ذرياتهم على ما يتوالدون عليه قرناً بعد قرن، وأشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته، وعجائب قدرته، ثم كان سؤالهم:

ألست بربكم، ومالك أمركم، ومربيكم دون أن يكون لأحد دخل في شأن من شئونكم؟

قالوا: بلى. شهدنا على أنفسنا بأنك ربنا وإلهنا، لا رب غيرك ولا إله سواك.

وذلك كله بلسان الحال، ودلالة الواقع، فالآية من باب التمثيل كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (١)

وقيل: المعنى أن الله تعالى أخرج الأرواح قبل خلق الأجسام وأنه جعل فيها من المعرفة ما فهمت به خطابه سبحانه.

والأرجح أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره بيمينه فاستخرج منه ذريته، وأخذ عليهم العهد وهم في عالم الذر وهذا ثبت مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم وموقوفاً على غير واحد من الصحابة (٢).

يقول الشهيد سيد قطب:

إنها قضية الفطرة والعقيدة يعرضها السياق القرآني في صورة مشهد فريد.. مشهد الذرية المكنونة في عالم الغيب السحيق، المستكنة في ظهور بني آدم قبل أن تظهر إلى العالم المشهود، تؤخذ في قبضة الخالق العظيم.

فيسألها.. ألست بربكم؟
فتعترف له سبحانه بالربوبية..
وتقر له سبحانه بالعبودية..

---

(١) فصلت: ١١.

(٢) فتح البيان جـ ٣ ص ٤٥٢

وتشهد له سبحانه بالوحدانية..

وهي منثورة كالذر، مجموعة في قبضة الخالق جل وعلا.

عرض القرآن هذا المشهد قبل قرابة أربعة عشر قرناً من الزمان حيث لم يكن إنسان يعلم عن طبيعة النشأة الإنسانية وحقائقها إلا الأوهام.

ثم يهتدي البشر بعد هذه القرون إلى طرف من هذه الناسلات وهي خلايا الوراثة التي تحفظ سجل الانسان وتكمن فيها خصائص الأفراد، وهم بعد خلايا في الأصلاب أن هذه الناسلات التي تحفظ سجل ثلاثة آلاف مليون من البشر، وتكمن فيها خصائصهم كلها لا يزيد حجمها على سنتيمتر مكعب أو ما يساوي ملء قمع من أقماع الخياطة. كلمة لو قيلت للناس يومذاك لاتهموا قائلها بالجنون والخبال.

أخرج ابن جرير وغيره بإسناده - عن ابن عباس قال:

مسح ربك ظهر آدم فخرجت كل نسمة هو خالقها إلى يوم القيامة فأخذ مواثيقهم، وأشهدهم على أنفسهم:

ألست بربكم؟ قالوا: بلى.

فأما كيف كان هذا المشهد؟ وكيف أخذ الله من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم؟ وكيف خاطبهم؟ ألست بربكم؟ وكيف أجابوا: بلى شهدنا؟

فالجواب عليه:

أن كيفيات فعل الله - سبحانه - غيب كذاته، ولا يملك الإدراك البشري أن يدرك كيفيات أفعال الله ما دام أنه لا يملك أن يدرك ذات الله،

إذ أن تصور الكيفية فرع عن تصور الماهية[1].

ثانياً: نزعة الإيمان بالله قديمة في الإنسان قدم خلقه:

يقول الله تعالى في الحديث القدسي:

خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم

مسلم

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء حتى تكونوا أنتم تجدعونها؟

ثم قال: اقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَةَ اللهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾.

البخاري ومسلم

ثالثاً: لجوء الإنسان إلى قوة خفية تسيطر عليه. ويفزع إليها عند الحاجة، ويطمئن بوجودها في حياته:

من الهادي في ظلمات الحياة ودروبها؟
من الملجأ عند اشتداد المخاوف في برها وبحرها؟
إنه الله.

---

(١) في ظلال القرآن ص ١٣٩٢

قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ (١)

وعن عمران بن حصين قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي:

كم تعبد اليوم إلهاً؟

قال:سبعة..ستة في الأرض، وواحد في السماء.

قال: فأيهم تعده لرغبتك ورهبتك؟

قال: الذي في السماء

قال: أما إنك لو أسلمت علمتك كلمتين ينفعانك، فلما أسلم الحصين قال: يا رسول الله علمني الكلمتين اللتين وعدتني.

قال: اللهم ألهمني رشدي.. وأعذني من شر نفسي.

ومن ثم حين يفاجأ الإنسان بالسؤال عن مصدر الكون ومدبر أمره ينطلق معلناً: الله.

قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾

كذلك انطلاقه حين تنزل به كارثة لا قبل له بها - داعياً ربه منيباً

---

(١) يونس: ٢٢.

إليه، وقد تعرت الفطرة من ركام الضلال، وأدركت انعدام الشريك.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾(١)

وقال: ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾(٢)

هذا فرعون رفض الإيمان بإله موسى حتى إذا أدركه الغرق وأحاط به الماء، وتعرت فطرته من ضلالات الزيغ أعلن إيمانه.

قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾(٣)

كرر فرعون المعنى الواحد ثلاث مرات في ثلاث عبارات حرصاً على القبول، ثم لم يقبل منه حيث أخطأ وقته، وكانت المرة الواحدة تكفي في حالة الاختيار.

وهؤلاء قوم يونس حين كذبوه ذهب عنهم مغضباً فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فعجوا بالدعاء أربعين ليلة فرحمهم الله وكشف عنهم.

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾(٤)

رابعاً:

أجمع الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات على أن الفطرة

---

(١) الإسراء: ٦٧.

(٢) الأنعام: ٦٤.

(٣) يونس: ٩٠.

(٤) يونس: ٥٨. ٩٨.

حقيقة ثابتة، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين، ويتعبد، ويؤمن بإله. حتى قال أحد المؤرخين:

لقد وجدت في التاريخ مدن بلا قصور، ولا مصانع، ولا حصون، ولكن لم توجد مدن بلا معابد[1].

خامساً:

إن الرسل جميعاً لم يدعوا أممهم إلى الإقرار بوجود الله وإنما دعوهم إلى عبادته وتوحيده:

﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [2]

وخاطبوهم خطاب من لا شبهة عنده قط في الإقرار بالله تعالى، ولا هو في حاجة إلى الاستدلال عليه:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [3]

سادساً:

إن العرب حين نزول القرآن كانوا يؤمنون بالله، ولذا عجبوا حين

---

(١) الإيمان والحياة ص ٩٩

(٢) الأعراف: ٥٩.

(٣) ابراهيم: ١٠

دعاهم الرسول إلى عبادة الله وحده وقالوا:

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (١)

ولم ينكر وجوده تعالى فيهم إلا قلة لا تذكر، وواجهم القرآن بأمرين:

أ - نفي العلم عنهم، وقصور الحجة لديهم.. فحين قالوا:

﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾

قال: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ (٢)

ب - مطالبتهم بالدليل على اعتقادهم الفاسد.. ودعواهم الباطلة بأنهم خلقوا من غير شيء.

فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣)

لكن كما تصاب الأجسام بالعلل والآفات فلا تؤدي وظيفتها

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد
وينكر الفم طعم المـــاء من سقم

كذلك تمرض الفطرة، وتفسد بفساد البيئة.

كيف تحيا الفطرة في دنيا تحكمها نعرات التعصب من طائفية أو قومية.

كيف تحيا الفطرة في دنيا تحكمها دعوات التحلل من ماسونية أو علمانية.

---

(١) ص: ٥.

(٢) الجاثية: ٢٤.

(٣) الطور: ٣٥.

ومن ثم أقام الله الآيات، وبعث الرسل لإصلاحها وردها إلى حالتها التي خلقت عليها فمن استجاب لنقاء الفطرة فهم الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل، ويخشون ربهم أو يخافون سوء الحساب وما أسرع أن تستيقظ حين تنبه.

يقدم القرآن الكريم نماذج من إيمان الفطرة الصافية:

هذا إبراهيم عليه السلام. يعلن - بعد أفول الكواكب - التقاء إيمان فطرته وقلبه بإيمان عقله وحسه فيقول:

﴿يَٰقَوْمِ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ۝٧٨ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (١)

هؤلاء سحرة فرعون حين تحرك الإيمان في قلوبهم، واستيقظت الفطرة قوية في ضمائرهم، وغمرت نفوسهم إشراقة الحق نوراً وهدى - يستعلون بإيمانهم على قوى الطغيان والتهديد لأن صوت الفطرة في قلوبهم أقوى من كل ما يقع بأجسامهم من بطش وتعذيب، فقالوا:

﴿قَالُواْ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ۝٧٢ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ (٢)

هذا رجل سمع الحق فاتبعه، وتحرك إيمان الفطرة في قلبه حين رأى

---

(١) الأنعام: ٧٩.

(٢) طه: ٧٣.

دلائل المنطق في دعوة المرسلين، الذين جاءوا إلى القرية، يدعون إلى عبادة إله واحد. ولا يطلبون على دعوتهم أجراً.

ماذا كان؟

إنه لم يقبع بعقيدته في داره بل جاء من أقصى المدينة يسعى داعياً قومه إلى الحق، يناشد فيهم الفطرة التي استيقظت فيه قائلاً:

﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٢٠ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٢١ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٢٢ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ۝٢٣ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ (١)

ثم يعلن بلسان الفطرة الصادقة قراره الأخير

﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ﴾ (٢)

هذا القدر من الإيمان بالله والتصديق به هو ما كلفنا به الشارع الحكيم.. وتطلع الإنسان إلى معرفة كنه الله، أو إدراك ذاته سبحانه - غرور وجهل، ودخول في متاهات من الضلال والزيغ.. فالعقول قاصرة، والطاقات محدودة وإذا عجز الإنسان عن فهم روحه التي بها يعيش فكيف يتطلع إلى فهم ذات الله العلي الكبير.

ولذا نهى الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا: خلق الله الخلق فمن خلق الله؟ فمن وجد شيئاً من ذلك،

---

(١) سورة يس: ٢٠ - ٢٤.
(٢) سورة يس: ٢٥

فليقل: آمنت بالله، وفي رواية فليستعذ بالله ولينته. (مصابيح السنة)

وليس ذلك حجراً على حرية الفكر، ولا تضييقاً على العقل، ولكن عصمة له.. ولذا كان التوجيه النبوي إلى مجالات التفكير الإنساني المثمر فقال: «تفكروا في مخلوقات الله ولا تفكروا في ذات الله فتهلكوا». (الترغيب والترهيب)

ثانياً: آيات الله الصامتة

في: الأرض - السماء -

الإنسان - الرد على الملحدين

إن آيات وجود الله ماثلة في كل ما يحيط بمختلف حواسنا، نشرها الله في الناس ليقرءوها فيعبدوه. ليعبدوه فيوحدوه، ليوحدوه فيقروا إليه.

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملأ الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل
تشير بإثبات الصفات لربها فصامتها يهدي ومن هو قائل[1]

تأمل هذه الأرض، من بسطها ودحاها وأخرج ماءها ومرعاها وألقى عليها الرواسي حتى لا تميل بأهلها؟

من وطأ مناكبها، ووسع مخارجها، وبارك فيها، وقدر أقواتها، وأخرج منها أزواجاً من نبات شتى؟

من جعلها قطعاً متلاصقة وجنات وثمرات تسقى بماء واحد، ونفضل بعضها على بعض في الأكل؟

من أبدع فيها الجمال السافر، والمشهد الساحر، والانسجام الرائع، والكمال الباهر؟

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك

---

(١) مدارج السالكين جـ ٣ ص ٣٥٦

عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

هل تعلم أن قشرة الأرض لو زادت بضع أقدام على ما هي عليه ثاني أوكسيد الكربون والأوكسجين، وامتنعت، عليها الحياة؟

هل تعلم أن نسبة الأوكسجين لو زادت على ٢١٪ إلى ٥٠٪ لأصبحت كل المؤاد القابلة للاحتراق في العالم عرضة للاشتعال بأية شرارة في البرق؟

هل تعلم أن العناصر لو لم تكن قابلة لاتحاد بعضها إلى بعض لما أمكن وجود تراب ولا ماء ولا شجر؟

هل تعلم أن مياه البحار والمحيطات لو كانت حلوة لصارت كلها عفناً منتشراً، وانتهت الحياة من الأرض، وأصبحت خراباً قفراً؟

ذلك لأن مياه البحار والمحيطات مياه واقفة مقفلة والملح فيها مادة حافظة تمنع عنها العفن والعطن.

هل تعلم أن الماء العذب من الماء الملح فالشمس تبخر مياه البحار والمحيطات التي تعتبر مستودعاً لا ينفد من المياه المحفوظة، فتصعد إلى الطبقات الباردة في السماء، فتتكثف لتسقط مياهاً حلوة تجري في الأنهار تسقي الزرع والضرع، وتمد الكون بالحياة.
من صنع كل هذا؟[1]

---

(١) الله والعلم الحديث

تأمل هذه السماء..

من رفعها سقفاً محفوظاً بلا عمد ترونها؟

من خلقها مبرأة من كل خلل تتشامخ في ثبات واستقرار مزينة بملايين نجومها؟

من جعل شمسها ضياء، وقمرها نوراً، وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب؟

هل تعلم أن إشعاع الشمس لو زاد إلى ضعف ما هو عليه لصار العالم رماداً، ولو قل إلى النصف لتحول الحي جماداً؟

هل تعلم أن القمر لو قل بُعده [٤٠٠٠] أربعة آلاف ميل عن بعده الحالي وهو [٢٤٠٠٠٠] لبلغت قوة المد بحيث تغمر الأرض مرتين في اليوم بماء يزيح الجبال الرواسي؟

هل تعلم أن عدد الأجرام السماوية التي تسبح في الفضاء يعادل عدد ذرات الرمال في جميع شواطىء البحار في المعمورة؟

هل تعلم أن النجم الواحد من الأغلبية العظمى منها يساوي في حجمه مئات الألوف من حجم الأرض؟

هل تعلم أن من الأجرام ما يربو حجم الواحد منها حجم المعمورة ملايين المرات؟

من كون هذا؟

أي قدرة صنعته؟

تأمل الإنسان مم خلق؟

أليس مخلوقاً من قطرة ماء؟

من كونها لحوماً منضدة، وعظاماً مركبة، وأوصالاً متعددة، مشدودة بالعروق والأعصاب، مجمعة بجلد متين مشتمل على ثلاثمائة وستين [٣٦٠] مفصلاً ما بين كبير وصغير؟

من جعل فيه تسعة أبواب: فبابان للسمع، وبابان للبصر، وبابان للشم، وباب للكلام والطعام والشراب والتنفس، وبابان لخروج الفضلات التي يؤذيه احتباسها؟

من جعل داخل بابي السمع مراً قاتلاً لئلا تلج فيه دابة تتصل بالدماغ فتؤذيه؟

من جعل داخل بابي البصر ملحاً لئلا تذيب الحرارة الشحم الذي فيه؟

من جعل داخل باب الطعام والشراب حلواً، ليسيغ ما يأكله ويشربه، فلا يتنغص به لو كان مراً أو ملحاً؟

من جعل له مصبّاحين كالسراج المضيء في أعلى مكان، وفي أشرف عضو طليعة له؟[١]

هل تعلم أن أفخر ما تعرضه الحياة في متجرها المملوء بالأعاجيب هي العضلات؟

هل تعلم أنها سبب بداية الحياة حيث تدفع عضلات الرحم بالجنين إلى خارج البطن؟

---

(١) التبيان في أقسام القرآن

هل تعلم أنها سبب استمرار الحياة حيث تدفع الغذاء من الفم إلى القناة الهضمية، وتمتص الهواء، لتدفعه إلى الرئتين، وتحول الأكل إلى حركة.. أي الطاقة الكيميائية إلى طاقة ميكانيكية؟

هل تعلم أنها سبب نهاية الحياة حيث تتوقف عضلة القلب فتحدث الوفاة؟[١]

من خلق كل هذا؟

تأمل هذه العجائب فإنك ستجد لسانك مسبحاً:

سبحان من أسمع بعظم..
سبحان من أبصر بشحم..
سبحان من أنطق بلحم..

﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾[٢]

قال الإمام علي كرم الله وجهه:

لو فكروا في عظيم القدرة، وجسيم النعمة لرجعوا إلى الطريق، وخافوا عذاب الحريق، ولكن القلوب عليلة، والبصائر مدخولة.

أنظروا إلى النملة في صغر جسمها، ولطافة هيأتها، لا تكاد تنال بلحظ البصر، ولا بمستدرك الفكر، كيف دبت على أرضها، وسعت على رزقها تنقل الحبة إلى جحرها وتعده في مستقرها[٣].

---

(١) الله والعلم الحديث ص ٦٥
(٢) البلد: ٨ ــ ١٠
(٣) نهج البلاغة حـ ٢ ص ١١٦

ومن أروع أمثلة الإلهام ما يحدث من حيوان الإكسيلوكوب الذي يعيش منفرداً في فصل الربيع ومتى باض مات. فالأمهات لا ترى صغارها، ولا تعيش لتساعدها في غذائها. إذ لا تستطيع الحصول على غذائها لمدة سنة.

لذلك تعمد الأم إلى قطعة خشب، فتحفر فيها حفرة مستطيلة، ثم تجلب طلع الأزهار، وبعض الأوراق السكرية، وتحشو بها ذلك السرداب، ثم تبيض بيضة ثم تأتي بنشارة خشب، وتجعلها عجينة، لتكون سقفاً لذلك السرداب، وتصنع بعد ذلك سرداباً آخر فمتى فقست البيضة، وخرجت الدودة كفاها الطعام المدخر سنة[1].

فانظر إلى ذلك التدبير الحكيم، وتلك الرحمة من حيوان على ولده الذي سيرى العالم بعد موته.

من أودع فيه تلك الرحمة؟

من ألهمه ذلك الحنان؟

إنه الله..

إن الكون كله مجال النظر والتأمل، ومعارض لآيات الله التي لا تنفد ولا تغيب.

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2]

---

(١) الله والعلم الحديث ص ١١٩.

(٢) لقمان: ٢٧.

فيـا لها من آيات حق لو اهتدى
بهن مريـــد الحـــق كن هواديـــا
ولكن عــلى تلــك القلوب أكنــة
فليست وإن أصغـت تجيــب المناديـا

موقف الملحدين

إذا ناقض الملحدون البداهة، وكذبوا الفطرة فماذا يقولون في تلك الآيات؟

إنهم يصرون على إنكار وجود الله، وينسبون هذا الخلق العظيم:

تارة إلى المصادفة..
وتارة إلى الطبيعة..

وهذا باطل.

أما المصادفة فإنها لا عقل لها، ولا نظام فيها، ولا تتكرر فكيف تكون صانعة لهذا الكون العظيم المحكم؟

يقول العلامة فرنكلين وهو من المتخصصين في علم الحيوان:

إن تطور الإنسان وتقدمه في الطريق المرسومة للرقي من الحيوانية إلى الإنسانية من غير استمداد من قوة معنوية يستحيل كما يستحيل جمع كتاب في مطبعة تمثيليات شكسبير بإلقاء الحروف دون تفكير.

وليس من شك في أن التطور أوجد الإنسان لا من المصادفة البحتة بل

هو تطور كانت فيه من أوله إلى آخره يد الله القادر المتعال[١].

يقول كاميل فلاماريون في كتابه: الله في الطبيعة:

إن النظام العام الحاكم في الطبيعة، وآثار الحكمة المشهودة في تكوين كل شيء، والحكمة البالغة المبسوطة المنتشرة كضياء الفجر تدل على أن القدرة المطلقة الإلهية هي الحافظة المسيرة للكون[٢].

أما الطبيعة:

فإن قالوا: إنها حافلة حكيمة مدبرة فقد اتفقنا والعبرة بالمسميات لا بالأسماء.

وإن قالوا: لا، كذبهم ما في الكون من مظاهر التدبير والحكمة والتنظيم. فمن القواعد الأولية أن فاقد الشيء لا يعطيه[٣]

يقول الدكتور جون أدولف بوهار:

إن الانسان يشاهد التنظيم والإبداع حيثما ولى وجهه في نواحي هذا الكون[٤].

ويقول الدكتور واين أولت:

إن ذلك النظام البديع الذي يسود هذا الكون يدل دلالة حتمية على

---

(١) الدين والعلم ص ٣٥.
(٢) المصدر السابق ص ٣٦.
(٣) الجفوة المفتعلة ص ٤٠
(٤) الله يتجلى في عصر العلم ص ١٠٣

وجود إله منظم[1]

ويقول السيد جمال الدين الأفغاني في رسالته: الرد على الدهريين:

هذه الأشجار القائمة في غابات الهند، والنباتات المتولدة فيها من أزمان بعيدة، لا يحدها التاريخ إلا ظناً، وأصولها تضرب في بقعة واحدة، وفروعها تذهب في هواء واحد.

فما السبب في اختلاف كل منها عن الأخرى: في بنيتها وشكلها وأوراقها، وطولها وقصرها، وضخامتها ورقتها، وزهرها وثمرها وطعمها ورائحتها؟

أي فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء؟ لا سبيل إلى الجواب سوى العجز.

هذه أسماك بحيرة أورال وبحر قزوين مع تشاركها في المأكل والمشرب، وتسابقها في الميدان، نرى فيها اختلافاً نوعياً، وتبايناً في الألوان والأشكال والأعمال.

فما السبب في هذا التباين والتفاوت؟
لا سبيل إلى الجواب سوى الحصر.

ولئن قيل: إن علماء النبات يعرفون الأسباب الطبيعية لهذا الاختلاف، ويستطيعون الكشف عنه لكل طالب وراغب فلا ضرورة والحال هذه إلى افتراض وجود المدبر فيما وراء الطبيعة.

---

(١) المصدر السابق ص ١٣٤.

الجواب:

لو سلمنا جدلاً بأن علماء النبات يعرفون ذلك فإن لمعرفتهم حداً تقف عنده، ولا تتجاوزه، وهو السبب القريب المباشر للتفاوت.

لكن لو سئلوا عن السبب البعيد الذي أوجد السبب القريب لم يجدوا تفسيراً له إلا بأحد الفرضين.

إما الصدفة.. وإما وجود مدبر حكيم وراء الطبيعة. والفرض الأول باطل، لأن الصدفة لا تتكرر ولا تدوم فتعين الثاني.

ولقد أسند القرآن لله جميع الحوادث الطبيعية المتولدة من أسبابها الكونية من باب إسناد الشيء إلى فاعله الأول لهدف التذكير بالله وأنه خالق الكون بأرضه وسمائه.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾(1)

وللدهريين.

أن يسألوا ما السبب لوجود المدبر وراء الطبيعة؟

ونجيب: إن هذا السؤال غير وارد من أساسه، لأن الفرض أن المدبر لا سبب له، وأنه سبب الأسباب

فالسؤال عن سببه كالسؤال: من خلق الله؟

والفرض أنه خالق غير مخلوق.

وكالسؤال عن صدق العين فيما ترى، والأذن فيما تسمع، مع الفرض أنهما

---

(1) الزمر: ٦٢

حجة قاطعة لكل شك وشبهة،

والإلحاد مهما تزايدت قوته، وبهرت الغافلين ضلالته فإنه يناقض البداهة، ويكذب الفطرة، ويعاند العقل ويعارض الله ورسوله، ويحارب المؤمنين.

ومن ثم فإن القرآن يتحدى منكري الألوهية فيطالبهم بالبرهان على دعواهم الظالمة، ويلقي في وجوههم هذا التساؤل.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (١)

إن كان الله فهذا منطق البداهة والفطرة

وإن خلقت من غير رب فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

(١) الرعد: ١٦.

ثالثاً: آيات الله الناطقة

عناية الله الكاملة في الكون التسخير التام للظواهر
العناية والتسخير في أوسع أفق - التصنيف الشامل
الحركة الدائبة

أولاً: عناية الله الكاملة

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ
سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا
شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِ
حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ (١)

هذا هو الكون كله في إحدى عشرة آية: أرضه وسماؤه.. جباله وأنهاره ليله ونهاره.. ذكوره وإناثه.. شمسه وسحابه.. ماؤه وثماره.

إنها تشير إلى عناية الله بخلقه، فجميع الموجودات موافقة للإنسان، وهذه الموافقة من قبل خالق قاصد مريد لذلك وليس من المعقول أن تكون ملاءمة الكون وظواهره لحياة الإنسان وليدة المصادفة فقد سبق إبطالها.

من دبره في إحكام؟

---

(١) النبأ: ٦ - ١١.

من ضبطه في نواميس؟
من أعده مفيداً للناس؟
إنه الله.. فليس شيء يحدث من تلقاء نفسه.

ثانياً:

التسخير التام للظواهر

قال تعالى:

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ (١)

هذا خطاب للعرب، وحث لهم على الاستدلال، والمرء إنما يستدل بما تكثر مشاهدته.. وما أكثر نظرهم في الأرض والسماء إلى الإبل والجبال. فلينظروا في مظاهر الإبداع نظر اعتبار واهتداء، ليروا قدرة الله على الاختراع والتسخير فكل مظاهر الكون مسخرة لوظائف محددة.

أفلا ينظرون..؟

من خلق الجمال باركة ناهضة.. منقادة صابرة.. لا تعاز ضعيفاً ولا تمانع صغيراً.. جامعة لكل المآرب في الحيوان من نسل ودر.. وحمل وركوب؟

أفلا ينظرون..؟

من رفع السماء بلا عمد ترونها.. بعيدة المدى.. لا علاقة من فوقها

---

(١) الغاشية: ١٧ - ٢٠

تمسكها .. ولا عمد تحتها تسندها.. ولا تدخل في حساب الخلق نجومها ؟

أفلا ينظرون..؟

من نصب الجبال ثابتة راسخة لا تنتقل من مكانها، ولا تميل مع طولها، تختلف ألوانها كما يختلف غيرها ؟

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۝٢٧ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ (١)

أفلا ينظرون..؟

من بسط الأرض ودحاها، وجعلها بساطاً ممتداً في الطول والعرض، لتسلكوا منها سبلاً فجاجاً، تثبت عليها الأقدام، ويتقلب عليها الحيوان، ويتمتع بخيراتها الإنسان ؟

إنه الله.. فلا شيء يخلق نفسه.

ثالثاً:

العناية والتسخير في أوسع أفق

قال تعالى:

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمْ فِيهَا

---

(١) فاطر: ٢٧

جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝٧ وَٱلْخَيْلَ وَٱلْبِغَالَ وَٱلْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً ۚ وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ[1]

هذه الآيات تتضمن الجمع بين العناية والتسخير في أوسع أفق إنها تعلن أن نعم الله تأتي ملبية لضرورات الحياة وأشواقها ففي الأنعام دفء: من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها قال مجاهد: لكم فيها دفء من لباس ينسج ولكم فيها منافع من ركوب ولحم ونسل ودر.

وفي الأنعام جمال: في مناظرها فارهة حين تردونها من مراعيها بالعشي، وحين ترسلونها إلى مراعيها بالغدو وقدمت الإراحة على التسريح، لأن الجُمال فيها أظهر.

ومنها تأكلون.. وعليها تحملون الأثقال - الأحمال - وقيل: الأبدان.. ومنه الثقلان للجن والإنس، ومنه: وأخرجت الأرض أثقالها أي بني آدم.

وخلق الله الخيل والبغال والحمير تلبية للضرورة في الركوب واستجابة لحاسة الجمال في الزينة والإمتاع تلك نظرة الإسلام للحياة.. الجمال عنصر أصيل فيها، فالإنسان ليس عبداً للآلة، ولا ترساً فيها، بل هو خليفة في الكون كل شيء فيه من أجله، مسخر له، يلبي أشواقه ووجدانه.

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ

---

(١) النحل: ٥ - ٨

(٢) الأعراف: ٣٢

ثم إن القرآن يهيىء العقول لكل جديد حتى يتوقعوه، ويأنسوا به، فلا يعادوه عند ظهوره..

فالله الذي خلق سفينة الصحراء هو الذي هدى إلى سفينة الماء، ثم إلى سفينة الفضاء، وكل ما يحقق العقل من روائع العلم فهو خلق الله.. قال تعالى:

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾

من الخالق المدبر؟

من الوهاب المنعم؟

إنه الله..

رابعاً:

التصنيف الشامل

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (١)

هذا هو الماء النازل من السماء يقول العلم:

---

(١) النحل: ٨

(٢) النحل: ١٠ - ١١

إنه ينشأ من اتحاد ذرتي أيدروجين وذرة أوكسجين تحت ظروف معينة.

من الذي صاغ هذا الكون

فأوجد فيه الأيدروجين

وأوجد فيه الأوكسجين

وأوجد فيه الظروف التي تسمح باتحادهما بهذه النسب المعينة وتمت بقدرته وتدبيره النعمة الكبرى؟

وكان الماء الذي لولاه ما كانت حياة!

من ينزل من السماء ماء وفق نواميس خلقها؟

من يدبر حركته، ويحكم دورته كما قدرها؟

من ينشيء نتائجها

فللسائمة مرعاها.. وللإنسان ثمارها؟

من سلكه ينابيع في الأرض؟

ثم أخرج بهذا الماء الواحد كل الثمرات في تصنيف شامل مختلفة في أنواعها وأشكالها وطعومها وروائحها في جنات معروشات وغير معروشات متشابهاً وغير متشابه؟

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ﴾ (١)

من خلق كل هذا.؟

إنه الله..

---

(١) الأنعام: ١٤١

خامساً:

الحركة الدائبة

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١)

ليل ونهار.. شمس وقمر.. نجوم وأفلاك كلها مسخرات للإنسان.. انظر كيف تجري في حركة دائبة، ونظام محكم.

الليل والنهار يتعاقبان على حد معلوم، وقدر مقسوم، كل منهما يتعقب الآخر مسرعاً في طلبه، ويتغلب على المكان الذي كان فيه وامتنّ الله بذلك على الإنسان فقال:

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾(٢)

الشمس والقمر يدوران.. والنجوم الثابتة والسيارة كل في فلك يسبحون بسير مقدر.. ونور مقرر.. وانتظام دقيق.. وحركة محسوبة.. وترابط عجيب تبعاً لسنن كونية مقررة.

وعد الله ذلك آية من آياته فقال:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾

---

(١) النحل: ١٢

(٢) غافر: ٦١

وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ
وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ
لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (١)

من الممسك بأجرامها العظيمة؟

من المنظم لحركتها السريعة؟

إنه الله الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هداه وسخره لما خلق له:

وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٢)

ومن ثم حين عبد بعض الصابئة الشمس والقمر وسجدوا لها تقرباً لله نهاهم الله عن هذه الواسطة، وأمرهم بالسجود لله وحده إن كانوا له عابدين: فقال:

وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣)

* * *

---

(١) يس: ٣٧

(٢) الأعراف: ٥٤

(٣) فصلت: ٣٧

هذه بعض آيات الله الناطقة تعلن براهين الله في كونه من:
التدبير الكامل لظواهره.
التصنيف الشامل لأنواعه.
الحركة الدائبة لأجرامه.
الانتظام الدقيق في جريانه.
الإبداع المعجز في هيآته.
التسخير المحكم.. تلبية لضرورات الحياة، وأشواق الإنسان.

* * *

أي يد دبرت هذا التدبير؟
أي يد أحكمت هذا الإحكام؟
من الذي كون هذا الكون؟
أهي المصادفة؟
أهي الطبيعة؟ كما يقول الملاحدة؟
الجواب:

﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ (١)

الله الخالق المقدر لسننه:

﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (٢)

---

(١) الأنعام: ٩١
(٢) الفرقان: ٢

الله الذي بسط كرسيه على ملكه:

وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ [١]

الله الذي انقادت الأكوان لمشيئته:

ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ
كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ [٢]

---

(١) البقرة: ٢٥٥

(٢) فصلت: ١١

الفصل الثاني

أول عقيدة في الأرض

التوحيد أقدم العقائد

أنواع التوحيد

التوحيد

قال تعالى: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ (١)

إن عقيدة التوحيد في أصلها أقدم في تاريخ البشرية من العقائد الوثنية جميعاً.

وجدت كاملة منذ وجدت لأنها ليست نابعة من أفكار البشرية ومعلوماتهم المترقبة، إنما هي آتية من عند الله سبحانه فهي حق منذ اللحظة الأولى، وهي كاملة منذ اللحظة الأولى.

هذا ما يقرره القرآن الكريم، ويقوم عليه التصور الإسلامي فقد هبط آدم إلى الأرض ليقوم بمهمة الخلافة فيها بعد أن تلقى من ربه كلمات فتاب عليه، وأخذ عليه العهد والميثاق أن يتبع ما يأتيه من هدى الله، ولا يتبع الشيطان فإنه عدوه وعدو لله.

قال الله تعالى:

﴿قُلۡنَا ٱهۡبِطُواْ مِنۡهَا جَمِيعٗاۖ فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٣٨ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ (٢)

---

(١) الأعراف: ٥٩.

(٢) البقرة: ٣٨.

هبط آدم إلى الأرض مسلماً لله متبعاً هداه.

وما من شك في أنه علم بنيه الإسلام جيلاً بعد جيل وأن الإسلام كان أول عقيدة عرفتها البشرية في الأرض ثم انحرفت عن الإسلام بفعل الشيطان عدو الله وعدو الإنسان، وعبدت يغوث ويعوق ونسراً.

فجاء نوح ومن بعده من المرسلين ليعيدوها إلى أول عقيدة عرفت في الأرض.

إنها الإسلام القائم على توحيد الإلهية والربوبية والحاكمية لله وحده. وكذب علماء الأديان المقارنة القائلين بتطور العقيدة: من التعدد إلى الانتخاب ثم التوحيد(١).

أنواع التوحيد

أولاً: توحيد الربوبيات.. وهو توحيد الله بأفعاله.

قال الله تعالى:

﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾(٢)

هذه أسئلة يوجهها الله على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إلى مشركي مكة ومن على شاكلتهم من أهل الإلحاد والشرك في كل زمان ومكان..

---

(١) في ظلال القرآن ص ١٨٨٣

(٢) يونس: ٣١

إنها توجه العقول إلى ما يجري حولهم من نعم الله:
يلمسونها في واقعهم..
يعلمونها في نفوسهم..
يشاهدونها في حياتهم..
إنها تلك:
من يرزقكم من السماء والأرض؟

من ماء ونبات، وطير وأسماك، ومعادن وحيوانات، ودفء وحرارة، وضياء وهداية.

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ
ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ
لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ
أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ
ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ
لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (١)

أفرأيتم إن أمسك الله رزقه؟

من يرزقكم؟

أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢)

---

(١) الواقعة: ٦٣ - ٧٠
(٢) الملك: ٢١

أفرأيتم إن منع عنكم الماء؟

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾[1]

من يملك السمع والأبصار؟

أم هي المتقطعة بمعنى بل تفيد إضراب الانتقال من سؤال إلى سؤال.

من يستطيع خلقها؟ من يستطيع تسويتها؟ من يقدر على حفظها من الآفات؟ من يهبها القدرة على أداء وظائفها أو يحرمها؟

إن العلم يكشف عن دقائق صنع الله فيها مما يلوي أعناق المكذبين المشركين.

ومن ثم كانت أمانة عند صاحبها.

ومن ثم كان مسئولاً عنها أمام واهبها.

جاء في الكشاف: يقال للإنسان:

لَمَ سمعت ما لم يحل لك سماعه؟

لَمَ نظرت إلى ما لم يحل لك النظر إليه؟

لَمَ عزمت على ما لم يحل لك العزم عليه؟

إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً. من يخرج الحي من الميت؟

أي الطائر من البيضة، والنبات من الحبة، والإنسان من البويضة.

من يخرج الميت من الحي؟

أي البيضة من الطائر، والحبة من النبات، والبويضة من الإنسان. وما

---

(١) الملك: ٣٠.

أعجب ذلك حتى بعد أن أثبت العلم أن في كل منها حياة واستعداداً.

« وإن وقفة أمام الحبة والنواة تخرج منهما النبتة والنخلة أو أمام البيضة والبويضة يخرج منهما الفرخ والإنسان لكافية لاستغراق حياة في التأمل والارتعاش.

أين كانت تكمن السنبلة في الحبة؟

أين كان الفرخ في البيضة؟

أين كان الكائن البشري في البويضة؟

ينقضي العجب العجيب، ولا تفسير له ولا تأويل إلا قدرة الله.

وخير مثل يعطيه العلم لإخراج الحي من الميت والميت من الحي هو الدم الحي في جسم الحي يتولد من الطعام الذي يموت بالطهي والنار ثم يتحول هذا الدم الحي إلى فضلات ميتة بالاحتراق »[1].

من يدبر الأمر..؟

أي من يقدره ويقضيه بين الخلائق وهذا من عطف العام على الخاص.

من يدبر حركة الأفلاك؟

من يدبر حركة الحياة؟

من يدبر السنن الاجتماعية في الناس؟

فسيقولون الله..

هذا جوابهم عند كل سؤال إنه الله

فقل أفلا تتقون؟

ما بالكم لا تخشون قدرته وتشركون في العبودية سواه؟

---

(١) في ظلال القرآن ص ١٧٨١

ثم يتتبعهم القرآن مؤيداً إجابتهم، منددا بانحرافهم عن الفطرة، وانصرافهم عن التوحيد إلى الشرك ومن الحق إلى الضلال والحق واحد لا يتعدد

فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون.

ثانياً: **توحيد الألوهية**.. وهو توحيد الله بأفعال خلقه. هناك أعمال تصدر من العباد لا يصح أن يتوجهوا بها إلا إلى الله وحده، لأنها تخص الله دون سواه، فإن اتجهوا بها إلى غيره فقد وقعوا في الشرك منها:

- **الدعاء**:

قال الله تعالى:

﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١)

★ ★ ★

عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الدعاء هو العبادة ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (٢)

لكن الناس في تناقض عجيب، فحين يكونون على صفحة الماء، تلعب بهم الرياح، وتتقاذفهم الأمواج، تستيقظ فطرتهم التي تحس وحدانية الله، فيلبون نداءها، ويستجيبون لوحيها.

لجوءاً إلى الله بمشاعرهم.

---

(١) العنكبوت: ٦٥

(٢) غافر: ٦٠

ودعاء إليه بألسنتهم.

فإذا نجوا إلى البر، وأمنوا المخاوف، عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك بالله، ودعاء غير الله.

- النية والقصد:

قال الله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (١)

اختلف أهل التفسير في الآية:

فقال الضحاك: نزلت في الكفار وأهل الشرك، واختاره النحاس.

وقال أنس: نزلت في اليهود والنصارى.

وقيل: نزلت في المنافقين.

والأولى حملها على العموم لتشمل الناس كافرهم ومسلمهم وإذا كانت النية مدار الثواب والعقاب على الأعمال لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات فإن من تصدوا بعمل الخيرات والطاعات الدنيا وحدها، وأرادوا بسعيهم زخارفها الكاذبة، ومتعها الزائلة من ثراء ورياء - ينالون أجور أعمالهم وافية كاملة من غير بخس في الدنيا: رزقاً وصحة ومتاعاً لكن ليس لهم في الآخرة إلا النار فكل عملهم حابط باطل

---

(١) هود: ١٥

حيث لم يريدوا به الآخرة[1].

وفي الحديث القدسي: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه .

مسلم

حق التشريع:

قال الله تعالى:

﴿اتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[2]

الأحبار: جمع حبر بالفتح والكسر وهم علماء اليهود

والرهبان: جمع راهب وهم علماء النصارى

أما كيف اتخذهم اليهود والنصارى أرباباً؟

فيفسره حديث عدي بن حاتم قال:

أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ في سورة التوبة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهم...﴾ الآية

فقال «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكن كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه» الترمذي

فقد أطاعوهم فيما كانوا مخالفين لحكم الله كما تطاع الأرباب وقال السدي:

---

(١) التوبة ٣١

(٢) فتح البيان حـ ٤ ص ١١٥

استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً﴾.

أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام، وإذا حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع، وما حكم به نفذ.

وقال الألوسي في التفسير:

« الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم. بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم »

« والآية تقرر أن الشرك بالله يتحقق بمجرد إعطاء حق التشريع لغير الله من عباده، ولو لم يصحبه شرك في الاعتقاد بألوهية ولا تقديم الشعائر التعبدية له، ومن ثم تسوي الآية في الوصف بالشرك بين اليهود الذين قبلوا التشريع من أحبارهم وأطاعوهم وبين النصارى الذين قالوا بألوهية المسيح »[١].

الحب القلبي:

قال الله تعالى:

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ[٢]

---

(١) في ظلال القرآن ص ١٦٤٢

(٢) البقرة: ١٦٥

تذكر الآية حالة من حالات المشركين: وهي أنهم يجعلون لله الأمثال والنظراء يعبدونهم، ويحبونهم كحب الله.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قلت يا رسول الله أي الذنب أعظم؟

قال: أن تجعل لله نداً وقد خلقك.

إن مجرد إشراك الأنداد في الحب القلبي مع الله شرك فكيف إذا نزع حب الله من قلبه، وأفرد هذه الأنداد بالحب الذي لا يكون إلا لله؟

«وفي الناس من تشمئز قلوبهم، وتنقبض نفوسهم كلما دعوا إلى الله وحده إلَهاً، وإلى شريعة الله وحدها قانوناً، وإلى منهج الله وحده نظاماً حتى إذا ذكرت المناهج الأرضية والنظم الأرضية، والشرائع الأرضية هشوا وبشوا، ورحبوا بالحديث، وفتحوا صدورهم للأخذ والرد»[1]

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[2]

اتخاذ الشفعاء

قال الله تعالى:

﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ

(١) في ظلال القرآن ص ٣٠٥٥

(٢) الزمر: ٤٥

ٱللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ [1]

نعى الله في الآية على هؤلاء الذين لم يكتفوا بعبادته وحده فعبدوا معه ما ليس من شأنه النفع والضر زاعمين أنهم يشفعون لهم في الآخرة فلا يعذبهم الله بذنوبهم.

قال ابن جريج:

هذا غاية الجهل منهم حيث ينتظرون الشفاعة في المآل ممن لا يوجد منه نفع ولا ضر في الحال.

ومن ثم أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يجبه هؤلاء مبكتاً لهم في استفهام تهكمي إنكاري

أتخبرون الله أن له شركاء في ملكه يعبدون كما يعبد

أتخبرون الله أن له شفعاء بغير إذنه

إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً ولا شفيعاً بغير إذنه من جميع مخلوقاته في سمواته وفي أرضه

إن هذا الزعم شرك تنزه الله عنه[2]

سبحانه مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ[3]

فالآيات تقرر:

أن دعاء غير الله شرك.

أن النية والقصد لغير الله شرك.

---

(١) يونس: ١٨

(٢) فتح البيان حـ ٤ ص ٢٤٤

(٣) البقرة: ٢٥٥

أن طاعة العلماء والعباد في معصية الله شرك .

أن محبة غير الله كحب الله شرك .

أن اتخاذ شفعاء لم يأذن بهم الله شرك .

أن اتخاذ شفعاء لم يأذن بهم الله شرك .

فالدعاء والنذر والرجاء والخوف والرغبة والرهبة ، والتوكل كلها أفعال تصدر عن العباد لا بد أن يتجهوا بها إلى الله وحده

ومن ثم كانت الإلهية أساس الإسلام ولواءه ، ومادة القرآن ورواءه ، دفع كل شبهة تعلق بها عبدة الشركاء ، ومنكرو الإلهية لله وحده .

ثالثاً : توحيد الذات والأسماء والصفات

قال الله تعالى :

وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١)

لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢)

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٣)

---

(١) الأعراف : ١٨٠ .

(٢) الشورى : ١١ .

(٣) الإخلاص : ١ - ٤ .

هذه الآيات تقدم مفاهيم عن الله تبارك وتعالى تزكو بها نفس المؤمن، ويستقيم إيمانه

إنها تلك:

١ - لله الأسماء الحسنى

جاء ذلك في أربع »سور من كتاب الله عز وجل

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾(١)
﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (٢)
﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (٣)
﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ (٤)

وذلك إخبار بما له سبحانه من أسماء على الجملة دون التفصيل، وقد وصفها بالحسنى تأنيث الأحسن أي التي هي أحسن الأسماء لدلالتها على أحسن مسمى، وأشرف مدلول.

أخرج البخاري عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«إن لله تسعة وتسعين اسماً - مائة إلا واحداً - من أحصاها دخل

---

(١) الأعراف: ١٨٠.
(٢) الإسراء: ١٠٠.
(٣) طه: ٨
(٤) الحشر: ٢٤.

الجنة، إنه وتر يحب الوتر »

وهذا لا ينفي أن يكون له أسماء غيرها.

يقول ابن القيم - ويجري عليه ابن كثير في تفسيره -:

« إن الأسماء الحسنى لا تدخل تحت حصر، ولا تحد بعدد، فإن لله تعالى أسماء وصفات استأثر بها في علم الغيب عنده لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل، كما في الحديث الصحيح[1] « أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك » فجعل اسماءه ثلاثة أقسام:

قسم سمى به نفسه فأظهره لمن شاء من ملائكته أو غيرهم ولم ينزل به كتابه.

وقسم أنزل به كتابه فتعرف به إلى عباده

وقسم استأثر[2] به في علم غيبه، فلم يطلع عليه أحداً من خلقه.

ومن هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم في حديث الشفاعة:

« فيفتح عليّ من محامده بما لا أحسنه الآن » ومنه قوله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) روى أحمد والحاكم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أصاب عبداً قط هم ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك وابن عبدك ابن أمتك. ناصيتي بيدك. ماض فيّ حكمك. عدل فيّ قضاؤك. أسألك بكل اسم هو لك. سميت به نفسك. أو أنزلته في كتابك. أو علمته أحداً من خلقك. أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن ربيع قلبي. ونور صدري. وجلاء حزني. وذهاب همي وغمي... إلا أذهب الله همه وغمه. وأبدله مكانه فرحاً.

(٢) انفرد بعلمه

« لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك »[1]

٢ - دعاء الله لا يكون إلا بتلك الأسماء

ودعاؤه بها مرتبتان:

أحدهما: دعاء ثناء وعبادة

ثانيهما: دعاء طلب ومسألة

فلا يثنى عليه إلا بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، وكذلك لا يسأل إلا بها [2] دون غيرها، فأسماؤه سبحانه توقيفية على ما جاء في كتابه أو على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم.

٣ - من الناس من يلحدون في أسمائه تعالى، فيميلون بها، وينحرفون بحقائقها عن الحق الثابت.

« والإلحاد في أسمائه تعالى أنواع:

أحدها: تسمية الأصنام بها. كتسميتهم اللات من الإلهية. والعزى من العزيز.

الثاني: تسميته - تعالى - بما لا يليق بجلاله، كتسمية النصارى له أباً.

الثالث: وصفه بما يتعالى عنه، ويتقدس من النقائص كقول اليهود إنه فقير.

الرابع: تعطيل الأسماء عن معانيها. وجحد حقائقها كقول من يقول من الجهمية وأتباعهم إنها ألفاظ مجردة لا تتضمن صفات ولا معاني

---

(١) بدائع الفوائد حـ ١ ص ١٦٦

(٢) بدائع الفوائد حـ ١ ص ١٦٤

فيطلقون عليه اسم السميع والبصير والحي ويقولون: لا حياة له ولا سمع ولا بصر.

خامسها: تشبيه صفاته بصفات خلقه تعالى الله عما يقول المشبهون علواً كبيراً »[1].

فهم إذن يلحدون في أسماء الله تعالى بالتغيير أو بالزيادة أو بالنقصان. والأمر بترك الملحدين معناه الوعيد

كقوله تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[2]

وقوله: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾[3]

وهذا أولى لقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[4]

٤ - لله الصفات العليا

الله الأحد، الله الصمد، الله لم يلد ولم يولد، فلم يتفرع منه أحد، ولم يتفرع هو من أحد هو السميع البصير.

والقرآن الكريم حين يعرف بالله عز وجل يتخذ أسلوباً مشرقاً لا غموض فيه ولا التواء، يقوم على تقديم الله بأوصافه وأفعاله.

---

(١) المرجع السابق ص ١٦٩

(٢) المدثر: ١١

(٣) الحجر: ٣

(٤) الأعراف: ١٨٠

روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك فأنزل الله تبارك وتعالى:

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

٥ - ليس كمثله شيء فلا شبيه له ولا ند ولا نظير.

فيجب الإيمان بكل صفة وصف الله بها نفسه في قرآنه على الحقيقة وعدم التعرض لها بشيء من التكييف أو التمثيل أو التشبيه مع الاعتقاد بأنه سبحانه منزه عن مشابهة المخلوقات

الفصل الثالث

بقية الصفات

الأول والآخر، لماذا جاءت معطوفة - ليس كمثله شيء - القيوم - الأحد - القدرة - الإرادة - العلم - الحياة - السمع والبصر - الكلام - الاستواء - العلو والفوقية - المعية - المجيء والإتيان والحب والرضا - الوجه واليد والعين.

إن الله واجب الوجود الذي نطقت بوجوده الفطر الإنسانية، والآيات الكونية، ورسالات المرسلين، بل من الوجود الإلهي يستمد كل وجوده.

وهذه الصفة الأولى من صفاته العلى التي تفرد بها، ومنها:

الأول والآخر

قال الله تعالى:

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [1]

﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [2]

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ۝٢٦ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [3]

فالأولية دالة على أزليته وأنه لا شيء قبله.
والآخرية دالة على أبديته وأنه لا شيء بعده.
والظاهرية دالة على عظمته وأنه لا شيء فوقه.

---

(١) الحديد: ٣.
(٢) القصص: ٨٨.
(٣) الرحمن: ٢٦ - ٢٧.

والباطنية دالة على معيته وأنه لا شيء دونه.

أحاطت أوليته وآخريته بالزمان كله، فلا أول لوجوده، إذ لم يسبقه عدم، كما لا آخر لوجوده فلا يلحقه - سبحانه - فناء.

وأحاطت ظاهريته وباطنيته بالمكان كله، فهو سبحانه محيط بكل ظاهر وباطن، كما أنه محيط بالأوائل والأواخر.

وتدل الآيتان الأخيرتان على أنه - سبحانه - الدائم الباقي الذي تموت الخلائق ولا يموت، فكل الذوات فانية زائلة إلا ذاته تعالى.

وقد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« أصدق كلمة قالها لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل.

لماذا جاءت هذه الأسماء الأربعة معطوفة؟
الأصل في ذكر صفات الله الذاتية تجريدها من العطف كما في الكتاب:
العزيز العليم - السميع البصير - الغفور الرحيم.
يجيب، عن هذا ابن القيم فيقول:

(١) أتى بحرف العطف الدال على التغاير بين المعطوفات إيذاناً بأن هذه المعاني مع تباينها فهي ثابتة للموصوف بها.

(٢) لأن في العطف مزيد تقرير وتوكيد، لا يحصل بدونه، يدرأ به توهم الإنكار لاجتماع هذه المقابلات في موصوف واحد...

فقطع هذا الوهم بحرف العطف الدال على أن الموصوف بالأولية هو

الموصوف بالآخرية، فكأنه قيل: هو الأول، وهو الآخر، وهو الظاهر، وهو الباطن لا سواه.[1]

ليس كمثله شيء

قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[2]

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾[3]

نفى القرآن في الآيتين عن الله عز وجل مشابهته لخلقه، ومماثلته لغيره، فليس له مماثل ولا مكافىء، فالخالق غير المخلوق

« ومماثلة غير الله له في بعض الصفات إنما هي من حيث التسمية لا من حيث الحقيقة، فإذا قيل: إن فلاناً عالم، حي، قادر...

فهو من حيث الظاهر فقط، ومع ذلك فإن وجود العلم والحياة والقدرة في الله كاملة غاية الكمال، ووجودها في الأفراد ناقصة غاية النقص بالإضافة إلى الله جل شأنه »[4]

---

(١) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٩٠.

(٢) الشورى: ١١.

(٣) الإخلاص: ٤.

(٤) العقائد الإسلامية ص ٥٧

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (١)

أين المخلوق من الخالق سبحانه؟

الله هو الباقي والناس إلى فناء.

الله هو الغني والناس إليه فقراء.

الله هو القوي والناس أمامه ضعفاء.

الله هو العزيز والناس له أذلاء.

القيوم

قال الله تعالى:

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (٢)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (٣)

---

(١) النحل: ٦٠.

(٢) البقرة: ٢٥٥.

(٣) فاطر: ١٥.

تتضمن الآية الأولى عشراً من قواعد التصور الإسلامي الكلية إنها تلك:

١ - الله المنفرد بالإلهية لا مجال فيها لأي انحراف أو لبس.

٢ - الله الحي القائم بنفسه، القيم لغيره، فهم مفتقرون إليه، وهو عنهم غني.

٣ - الله شهيد على كل شيء، لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه.

٤ - الله مالك الكون كله ملكيّة شاملة مطلقة، فالجميع عبيده.

٥ - الله صاحب الجلال والرهبة لا يجرؤ أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنه.

٦ - الله صاحب العلم الشامل بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

٧ - الله الذي علم الإنسان فلا يطلع أحد على شيء من علمه إلا بما شاء.

٨ - الله وسع كرسيه السموات والأرض كما أراد، وكيف شاء.

٩ - الله لا يثقل عليه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما.

١٠ - الله المتفرد سبحانه بالعلو، المتفرد سبحانه بالعظمة.

كما تقرر الآية الثانية:

أن الله هو الغني والناس إليه فقراء

فالله سبحانه وتعالى قائم بذاته، مستغن عن جميع خلقه، به قامت الموجودات كلها، فهي فقيرة إليه فقراً ذاتياً بحيث لا تستغني عنه لحظة.

هو وحده مدبر أمرها ، يمدها بما تحتاج إليه في بقائها ، وفي بلوغ الكمال الذي قدر لها .

الأحد

لقد احتفى القرآن الكريم بهذه الصفة ، فحشد كثيراً من آياته لإثبات وحدانية الله ونفي الشريك عنه وهذه ثلاث مجموعات كل منها ناطقة بأنه الأحد ، شاهدة على أنه لا شريك له.

المجموعة الأولى

قال الله تعالى :

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)

﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (٢)

﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ (٣)

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ

---

(١) الإخلاص : ١

(٢) الزمر : ٤

(٣) البقرة : ١٦٣

ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (١)

تقرر الآيات هذه الحقائق:

- وحدانية الله في ذاته وصفاته وأفعاله

فليست ذاته مركبة من أجزاء وليس له شريك.

وليس لأحد صفة تشبه صفة من صفاته.

وليس لأحد فعل من أفعاله.

- نفي الشريك والقسيم والشبيه

- إقامة الدليل على ذلك بأمور ثمانية هي أعظم خلق الله. إنها تلك:

- خلق السموات والأرض
- اختلاف الليل والنهار
- الفلك الجارية في البحر
- المطر النازل من السماء
- إحياء الأرض
- الدواب المبثوثة عليها
- تصريف الرياح
- تسخير السحاب

---

(١) البقرة: ١٦٤

في هذه الأنواع الثمانية ﴿آيات لقوم يعقلون﴾.

دلالات عظيمة على وحدانية الله لمن ينظر ببصره، ويتفكر بعقله وإنما جمع (آيات) لأن في كل واحد من هذه الأنواع آيات كثيرة تدل على أن لها خالقاً مدبراً مختاراً.

أيتهيأ هذا أو بعضه لأحد من الآلهة التي تعلق بها الكفار؟

﴿هَٰذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ﴾ (١)

إن هذا مدعاة للعجب والإنكار:

﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (٢)

المجموعة الثانية

قال الله تعالى:

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ ۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا ۚ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ﴾ (٣)

تقرر هذه الآيات:

- النهي عن اتخاذ الشركاء والأنداد.

---

(١) لقمان: ١١

(٢) النحل: ١٧

(٣) النحل: ٥١ - ٥٣

- اختصاص الله بالإلهية والرهبة والملك والدين والانعام والدعاء.
- شهادة الفطر البشرية بذلك حين يصهرها الضر، وينفض عنها ظلمات الشرك.

« وفائدة وصف (إلٓهين) باثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية.

وفائدة وصف (إلٓه) بواحد هي دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية، لأن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها، وإنما خلاف المشركين في الواحدية »[1].

ولذا أعلن مشركوا مكة عجبهم حين دعاهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى عبادة الله الواحد وقالوا:

﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[2]

المجموعة الثالثة:

قال الله تعالى:

﴿أَمِ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ
لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ
يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن

(١) فتح البيان ص ٢٦٥
(٢) ص: ٥

مَّعِيَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا
فَاعْبُدُونِ (١)

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢)

قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّابْتَغَوْا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ
سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا (٣)

هذه الآيات تقرر:

- الإنكار على هؤلاء الذين اتخذوا من دون الله آلهة عاجزة ونفي الشركاء عنه.

- بطلان تعدد الآلهة بالدليل الكوني:

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

إذاً لذهب كل إله بما خلق

إذاً لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً

---

(١) الأنبياء: ٢١ - ٢٥

(٢) المؤمنون: ٩١

(٣) الإسراء: ٤٢ - ٤٣

ذلك لأن المشاركة في الألوهية تؤدي إلى:

انفراد كل إلّه بما خلق

محاولة فرض نفوذه على غيره

اضطراب الكون وفساده

- تنزهه وتعاليه عن كل ما يأفكون

سبحان الله عما يصفون

سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً

- بطلان تعدد الآلهة بالدليل النقلي

فالكتب كلها ناطقة بالتوحيد

ورسل الله جميعهم داعون إليه

- أمرهم بعبادة الله بعد أن قامت عليهم حجة الله عقلاً ونقلاً وإذا تقرر عدم إمكان المشاركة والتعدد في إلّهية الكون وأنه لا يقوم به إلا واحد تعين أن يكون هذا الواحد هو الله سبحانه المختص بعلم ما غاب وما شوهد، وأنه لا يسأل عما يفعل، والكل مسئول أمامه عما يعمل.

وهذا دليل على نفي الولد أيضاً، لأن الولد ينازع أباه في ملكه. « فلو تعددت الذوات لتعددت الإرادات، وتعددت تبعاً لذلك النواميس، واستقل كل منهم بما خلق يصرفه حسب ناموسه الخاص، وعلا بعضهم على بعض، بغلبة سيطرته، وفرض نفوذه، وانعدمت الوحدة التي تنسق الجهاز الكوني كله، ووقع الاضطراب والفساد.

وكل هذه الصور لا وجود لها في الكون الذي نشهد وحدة تكوينه بوحدة خالقه، ونشهد وحدة ناموسه بوحدة مدبره وكل جزء فيه وكل

شيء يبدو متناسقاً فلا تصادم ولا تنازع ولا اضطراب »[1].

ومن ثم حين سأل المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم أن ينسب لهم ربه جاء البيان الإلّهي في أربع آيات جامعة.

﴿ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾

دلت على نفي الشريك من كل وجه في الذات وفي الصفات وفي الأفعال. كما دلت على تفرده بالعظمة والجلال والمجد والكبرياء ولذا لا يطلق لفظ أحد في الإثبات إلا على الله عز وجل.

﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾

فسرها ابن عباس رضي الله عنهما بقوله[2]:

السيد الذي قد كمل في سؤدده

الشريف الذي قد كمل في شرفه

العظيم الذي قد كمل في عظمته

الحليم الذي قد كمل في حلمه

الغني الذي قد كمل في غناه

الجبار الذي قد كمل في جبروته

العليم الذي قد كمل في علمه

الحكيم الذي قد كمل في حكمته

فهو الله الذي قد كمل في كل أنواع الشرف والسؤدد، هذه صفته لا تنبغي إلا له.

---

(١) في ظلال القرآن ص ٢٣٧٣

(٢) بدائع الفوائد جـ ١ ص ١٦٨

وقد فسر الصمد بأنه الذي تصمد إليه الخليفة كلها، وتقصده في جميع حاجاتها ومهماتها.

فإثبات الأحدية لله تتضمن نفي المشاركة والمماثلة

وإثبات الصمدية لله بكل معانيها المتقدمة تتضمن إثبات جميع تفاصيل الأسماء الحسنى والصفات العلى.

وهذا توحيد الإثبات.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾

أي لم يتفرع عنه شيء، ولم يتفرع هو عن شيء

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

أي ليس له مكافىء ولا مماثل

وهذا توحيد التنزيه

ولهذا سميت السورة سورة الإخلاص، لتجريدها التوحيد من شوائب الشرك والوثنية.

وثبت في الصحيح أنها تعدل ثلث القرآن[١]

عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه:

---

(١) تأويل ذلك: أن القرآن اشتمل على ثلاثة » مقاصد أساسية:

أولها: الأوامر والنواهي المتضمنة للأحكام والشرائع التي هي موضوع علم الفقه والأخلاق.

ثانيها: القصص والأخبار المتضمنة لأحوال الرسل مع أممهم وأحوال الوعد والوعيد والثواب والعقاب.

ثالثها: ما يجب على العباد من معرفة اسماء الله وصفاته.

«أيعجز أحدكم أن يقرأ بثلث القرآن في ليلة؟ فشق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ قال: الله الواحد الصمد ثلث القرآن»

القدرة

قال الله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (١)

تقرر الآيتان حقائق:

(١) الله هو المالك الواحد للكون، المهيمن عليه، القابض على ناصيته.

(٢) الله هو المتصرف فيه يملّك من يشاء ما يشاء، ويسترد ما يشاء ممن يشاء، فكل ما في أيدي الناس عوار مستردة.

وما المال والأهلون إلا ودائع
ولا بـد يوماً أن ترد الودائع

(٣) الله هو المعز لمن يشاء، وهو المذل لمن يشاء، لا معقب لحكمه.

(٤) الله يولج الليل في النهار، ويولج النهار في الليل.

---

(١) آل عمران: ٢٦ - ٢٧

« وسواء أكان المعنى أخذ هذا من ذاك، وأخذ ذاك من هذا عند دورة الفصول، أو كان هو دخول هذا في هذا عند دبيب الظلمة ودبيب الضياء في الإمساء والإصباح، فإن القلب يكاد يبصر قدرة الله الباهرة، وهي تحرك الأفلاك، وتلف هذه الكرة المعتمة أمام تلك الكرة المضيئة، وتقلب مواضع الظلمة ومواضع الضياء... شيئاً فشيئاً يتسرب غبش الليل إلى وضاءة النهار، وشيئاً فشيئاً يتنفس الصبح في غيابة الظلام، وشيئاً فشيئاً يطول الليل وهو يأكل من النهار في مقدم الشتاء، وشيئاً فشيئاً يطول النهار وهو يسحب من الليل في مقدم الصيف »[1].

(٥) الله يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي.

كالحيوان من النطف والنطف منه، والبيض من الطير وعكسه، وقيل:

إخراج المؤمن من الكافر وبالعكس. قال القفال: والكلمة محتملة للكل، أما الكفر والإيمان فقال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾[2] يريد كان كافراً فهديناه، فجعل الموت كفراً، والحياة إيماناً. وسمى إخراج النبات من الأرض إحياء، وجعلها قبل ذلك ميتة، فقال:

﴿يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[3]

---

(١) في ظلال القرآن ص ٣٨٤

(٢) الأنعام: ١٢٢

(٣) الروم: ٥٠

وقال: ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾[1]

وقال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَٰتٗا فَأَحْيَٰكُمْۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾[2]

حركة مستمرة في كيان الكون كله، ودورة دائبة في كل لحظة إنها قدرة الله الخلاقة.

(٦) الله بيده الخير كله، والأرزاق جميعها.

« وذكر الخير دون الشر لماذا؟

« قال القاضي: لأن كل شر من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير. فأفعاله كلها خير.

قال البغوي: إنه حذف كما حذف في قوله: (سرابيل تقيكم الحر) وأصله بيدك الخير والشر.

وقيل: خص الخير بالذكر لأن المقام مقام دعاء »[3].

(٧) الله له المشيئة المطلقة، والقدرة المطلقة، فلا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء.

---

(١) فاطر: ٩

(٢) البقرة ٢٨ محاسن التأويل ص ٨٢٠.

(٣) فتح البيان مجلد ٢ ص ٣٧.

وحين زعم اليهود أن الله خلق الخلق ثم استراح، رد عليهم زعمهم الفاسد بقوله:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ (١)

فقدرته تعالى صالحة لإيجاد كل شيء ممكن وإعدامه. وما في الكون من بديع صنع الله، ودقة إتقانه، وما يجري من شئون في كل لحظة قائم بقدرته الباهرة التي سجد أمامها من العلماء من شرح الله صدره، وأنار بصيرته، وتبين له الحق فاتبعه.

الإرادة

قال الله تعالى:

﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ (٢)

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ (٣)

﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ (٤)

---

(١) ق: ٣٨
(٢) البروج: ١٦
(٣) الحج: ١٤
(٤) النحل: ٤٠

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[1]

الله يخلق كل شيء، وإليه مرد كل شيء، الأمور كلها بيده، ومرجعها إليه وحده، ولا يملك أحد أن يقترح عليه، أو يزيد، أو ينقص في خلقه شيئاً. فهو سبحانه مطلق الإرادة، مطلق المشيئة، مطلق الاختيار.

وكيف يكون الواحد القهار ذو القوة المتين؟
ألا يختار ما يشاء؟ ألا يفعل ما يريد؟
ومن ذا الذي يملك الاختيار معه لنفسه أو لغيره؟
لا أحد!

قيل لعلي كرم الله وجهه: إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة
فقال علي: يا عبد الله خلقك الله كما يشاء أو كما شئت؟
قال الرجل: بل كما شاء.
قال: فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت؟
قال: بل إذا شاء.
قال: فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت؟
قال: بل إذا شاء.
قال: فيدخلك حيث شئت أو حيث شاء؟
قال: بل حيث يشاء[2].

إنها مشيئة الله المطلقة.

---

(١) القصص: ٦٨

(٢) تفسير ابن كثير ص ٢٢٢

﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾(١)

سبحانه وتعالى ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، إذا أراد شيئاً فإنما يأمر به مرة واحدة فيكون كما يشاء.

﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾(٢)

يأمر به مرة فإذا هو كائن:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما
يقول لـــه كن قولـــة فيكون

فهو سبحانه مريد لجميع الممكنات تخصصها إرادته بالمقدار المحدد والزمن المعين، والجهة المخصوصة دون غيرها، فلا إرادة إلا إرادته، ولا اختيار إلا اختياره.

العلم

قال الله تعالى:

﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾(٣)

---

(١) الحج: ١٨
(٢) القمر: ٥٠
(٣) التغابن: ٤

﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ (١)

﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ (٢)

تصور الآيات العلم الإلهي الشامل، يحيط بكل ما في السموات وما في الأرض، يحيط بما يجري في السر، وما يدور في العلانية، يحيط بكل ما غاب وبكل ما شوهد.

روي أن مشركي مكة كانوا ينالون من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيخبره جبريل بما قالوا فيه، ونالوا منه.

فقالوا فيما بينهم: أسروا قومكم لئلا يسمع إله محمد - صلى الله عليه وسلم - فنزلت ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾... الآية.

لأنه يستوي في علم الله إسراركم وجهركم، بل إن علم الله يحيط بما هو أخفى من ذلك.

إنه عليم بما يخالج الضمائر، وما تحتفظ من نوايا قبل أن تترجم عنها الألسنة. عليم بها لأنه الذي خلق هذه النوايا، وخلق الصدور التي تحملها.

وكيف يعزب عنه شيء وهو خالق كل شيء؟
ألا يعلم من خلق؟
بلى إنه بها عليم؟

---

(١) الحشر: ٢٣
(٢) الملك: ١٣ - ١٤

وهو اللطيف الخبير العالم بدقائق الأشياء وحقائقها وتفاصيلها وجزئياتها.

هذا إبراهيم - عليه السلام - حين جاءه قومه ليخوفوه آلهتهم التي تنكر لها أن تنزل به سوءاً، أعلن أنه يكل حمايته ورعايته إلى مشيئة الله الطليقة، وعلم الله الشامل.

قال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾(١)

هذا موسى - عليه السلام - حين أحرق إله السامري أعلن حقيقة الإله الحق،

قال: ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾(٢)

هؤلاء ملائكة الله حين أرادوا الدعاء للتائبين.

قالوا: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾(٣)

فعلم الله صفة كاشفة لما كان وما هو كائن وما سيكون، فلا يخرج شيء عن علمه.

قال أبو البقاء: إن ما يسع الشيء فقد أحاط به.

فالعلم الإلهي محيط بكل شيء، مطلع على كل شيء تلك حقيقة إيمانية

---

(١) الأنعام: ٨٠
(٢) طه: ٩٨
(٣) غافر: ٧

لها أثرها في مشاعر المسلم واتجاهاته، وأدبه مع ربه وسلوكه وأخلاقه.

الحياة

قال الله تعالى:

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾[1]

﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾[2]

﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ﴾[3]

تثبت هذه الآيات أن الله حي حياة لا يلحقها عدم، ولا يتعقبها موت وكل ما عدا الله ميت تفارقه الحياة، فهم كهلال يحور، وضياء يزول.

وما المرء إلا كالهلال وضوئه
يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

أما الله سبحانه فهو الحي الذي له كمال الحياة، وكمال الحياة يتبعه الكمال في سائر الصفات الكمالية اللازمة للحي.

---

(١) الفرقان: ٥٨

(٢) غافر: ٦٥

(٣) طه: ١١١

إنها حياة حقيقية لا يوصف بها إلا الإلّه الأحد، تصحح له سبحانه الاتصاف بالقدرة والإرادة والعلم وغيرها

حياة ذاتية لم تأت من مصدر آخر.

حياة أزلية أبدية لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي بنهاية.

حياة مطلقة من كل قيد فلا شبيه له في حياته كما لا شبيه له في أية صفة من صفاته تعالى.

فمن أحق بالتوكل عليه سواه؟ وهو الحي الذي لا يموت.

قال بعض الصالحين: لا يصح لذي عقل أن يثق بعدها بمخلوق.

من أحق بالخضوع له غيره؟ وهو الحي القيوم.

قال ابن عباس وغير واحد: خضعت وذلت واستسلمت الخلائق لجبارها الحي الذي لايموت. القيوم الذي لا ينام وهو قيم كل شيء يدبره ويحفظه.

فالاسم الأول تضمن جميع صفات الذات.

والاسم الثاني تضمن جميع صفات الكمال الفعلية.

ولهذا قيل: إن الحي القيوم هما اسم الله الأعظم الذي إذا سئل به أعطى، وإذا دعي به أجاب.

ومن دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله:

«يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين».

السمع والبصر

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾(١)

﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾(٢)

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝٤٣ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ۝٤٤ قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ۝٤٥ قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾(٣)

تثبت هذه الآيات لله سمعاً وبصراً.

فقد سمع قول طائفة من اليهود: إن الله فقير ونحن أغنياء تعالى الله عن ذلك القول الشنيع علواً كبيراً وكان وعيد الله:

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ﴾

---

(١) آل عمران: ١٨١

(٢) المجادلة: ١

(٣) طه: ٤٣ - ٤٦

سمع قول التي تجادل في زوجها.

ثبت في الصحيح عن عروة قال: قالت عائشة: تبارك الذي وسع سمعه كل شيء، إني لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة، ويخفى عليّ بعضه وهي تشتكي زوجها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي تقول:
يا رسول الله، أبلى شبابي، ونثرت له بطني حتى إذا كبر سني، وانقطع ولدي، ظاهر مني[1]، اللهم إني أشكو إليك، قال: فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام، بهذه الآيات - قد سمع الله...»

سمع قول موسى وهرون حين أمرهما بالذهاب إلى فرعون:

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ[2] عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾[3]

فقال لهما: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[4]

قال ابن عباس: أسمع دعاءكما فأجيبه، وأرى ما يراد بكما فأمنعه، فلست بغافل عنكما.

وسمع سبحانه قول زكريا عليه السلام:

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾[5]

---

(١) زوجها أوس بن الصامت قال لها: أنت علي كظهر أمي.
(٢) قال ابن عباس يعجل ويبادر بعقوبتنا.
(٣) طه: ٤٥
(٤) طه: ٤٦
(٥) آل عمران: ٣٨

فأرسل الله إليه ملائكته تحمل البشرى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ﴾[1]

وبكّت سبحانه الذين كانوا يكيدون للنبي صلى الله عليه وسلم ظانين أن الله لا يسمعهم فقال:

﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم

بَلَىٰ

وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾[2]

وقال إبراهيم عليه السلام في دعائه: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[3]

وقال موسى عليه السلام في دعائه: ﴿كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا﴾[4]

وقالت امرأة عمران في دعائها: ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[5]

إنه طلب القبول..

---

(١) آل عمران: ٣٩

(٢) الزخرف: ٨٠

(٣) البقرة: ٢٧

(٤) طه: ٣٣

(٥) آل عمران: ٣٥

والرجاء في القبول متعلق بأنه سميع للدعاء، عليم بالنوايا، بصير بالضمائر، وما فيها.

وهما صفتان بهما انكشاف جميع المسموعات والمرئيات انكشافاً تاماً مهما خفتت الأصوات، ومهما كثفت الأستار.

وكل منهما صفة كمال، وضدهما صفة نقص، ولهذا عاب إبراهيم معبودات أبيه فقال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ (١)

ووبخ قومه فقال في آلهتهم.

﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ (٢)

فالله عز وجل سميع لكن بغير أصمخة وآذان، بصير ولكن بغير حدقة وأجفان تعالى الله عن مشابهة خلقه فليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

الكلام

قال الله تعالى:

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ (٣)

---

(١) مريم: ٤٢

(٢) الشعراء: ٧٢ - ٧٣

(٣) النساء: ١٦٤

﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ﴾

وقال سبحانه في عجل بني إسرائيل توبيخاً وتقريعاً حين اتخذوه إلهاً:

﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾

هذه الآيات تقرر حقائق

إنها تلك:

(١) الله سبحانه موصوف بصفة الكلام.

(٢) الله سبحانه كلم موسى بلا واسطة يؤكد ذلك ذكر المصدر.

« قال معتزلي - ينفي صفة الكلام - لأبي عمرو بن العلاء أحد القراء السبعة أريد أن تقرأ (وكلم الله موسى) بنصب اسم الله، ليكون

---

(٢) الأعراف: ١٤٣

(٣) لقمان: ٢٧

(١) واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار. ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه - إلهاً - وكانوا ظالمين. الأعراف: ١٤٨

(٢) فأخرج - السامري - عجلاً جسداً له خوار فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولاً ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً. طه: ٨٩

موسى هو المتكلم لا الله فقال له أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية كذا فكيف تصنع بقوله تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾

فبهت المعتزلي »

(٣) كلام الله لا ينتهي « فلو أن جميع ما في الأرض من شجر تحول أقلاماً، وجميع ما في الأرض من بحر تحول مداداً بل إن هذا البحر أمدته سبعة أبحر كذلك... وجلس الكتاب يسجلون كلمات الله الدالة على علمه المعبرة عن مشيئته فماذا؟

لقد نفدت الأقلام، ونفد المداد، نفدت الأشجار، ونفدت البحار، وكلمات الله باقية لم تنفد، ولم تأت لها نهاية، إنه المحدود يواجه غير المحدود »[1].

تفنى البحار ولا تضم كلامه
أيحيط ما يفنى بما لا ينفد

(٤) الاستدلال على عدم ألوهية العجل بنفي الكلام عنه ونفي رجوع القول منه.

(٥) الوصف بالتكلم من أوصاف الكمال، وضده من أوصاف النقص ويتم كلام الله للبشر بواحدة من ثلاث:

- وحياً يلقى في النفس مباشرة فتعرف أنه من الله.

---

(١) في ظلال القرآن ص ٢٧٩٥.

- أو من وراء حجاب كما كلم الله موسى.
- أو يرسل رسولاً وهو الملك.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[1]

«وإذا كان الله سبحانه قد كلم موسى تكليماً فهو لون من الوحي. لا يعرف أحد كيف كان يتم لأن القرآن - وهو المصدر الوحيد الصحيح الذي لا يرقى إليه الشك إلى صحته لا يفصل لنا في ذلك شيئاً فلا نعلم إلا أنه كان كلاماً ولكن ما طبيعته؟ كيف تم؟ بأية حاسة أو قوة كان موسى يتلقاه؟

كل ذلك غيب من الغيب لم يحدثنا القرآن عنه، وليس وراء القرآن - في هذا الباب - إلا أساطير لا تستند إلى برهان»[2].

فكلام الله صفة قائمة بذاته يتكلم بها بمشيئته وقدرته فهو لم يزل ولا يزال متكلماً إذا شاء.

«بيد أننا نجزم أن الكلام الإلهي ليس ألفاظاً تصنعها الشفتان واللسان وتضبطها الرئتان والحنجرة والأسنان، فذلك شأن الإنسان لا وصف الرحمن»[3].

---

(١) الشورى: ٥١

(٢) المصدر السابق ص ٨٠٥.

(٣) عقيدة المسلم ص ١٠١.

الاستواء

قال الله تعالى:

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ (١)

﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ (٢)

﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ﴾ (٣)

تقرر الآيات حقائق هي:

(١) أن لله تعالى عرشاً، وأنه سبحانه مستو عليه.

(٢) أن الله غني عن كل مخلوقاته، فليس مفتقراً للعرش، ولا في حاجة إليه.

(٣) أن الله محيط بكل شيء ومنها العرش فهو محيط بالعرش، والعرش غير محيط به.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بما أخبر الله به سبحانه عن نفسه من أنه مستو على عرشه، بائن من خلقه بالكيفية التي يعلمها هو جل شأنه.

روى أبو بكر البيهقي عن يحيى بن يحيى قال كنا عند مالك بن أنس.

---

(١) طه: ٥
(٢) فاطر: ١٥
(٣) فصلت: ٥٤

فجاء رجل فقال: يا أبا عبد الله ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَى﴾ كيف استوى؟

فأطرق مالك برأسه حتى علاه الرحضاء: ثم قال: الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، وما أراك إلا مبتدعاً، فأمر به أن يخرج ».

وقد خلق الله العرش لاستوائه عليه، لا لحاجته إليه، بل له في ذلك حكمة اقتضته.

وكون العالي فوقاً للسافل لا يلزم أن يكون السافل حاوياً للعالي محيطاً به حائلاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه.

أنظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض، وليست مفتقرة إليها، فالرب تعالى أعظم وأجل من أن يلزم من علوه ذلك.
فهو سبحانه مستوٍ على العرش.

مع حمله بقدرته للعرش وحملته.
مع غناه عن العرش وفقر العرش إليه.
مع إحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به.

« وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

وإنما المراد إحاطة عظمته وسعة علمه وقدرته، وأنها بالنسبة إلى عظمته كخردلة كما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال:
ما السموات السبع والأرضون السبع وما فيهن وما بينهن في يد الرحمن إلا

كخردلة في يد أحدكم »[١].

ولله المثل الأعلى، ليس كمثله شيء.

يقول ابن القيم:

« واستواؤه، وعلوه على عرشه سلام[٢] من أن يكون محتاجاً إلى ما يحمله أو يستوي عليه، بل العرش محتاج إليه وحملته محتاجون إليه، فهو الغني عن العرش وعن حملته وعن كل ما سواه.

فهو استواء وعلو لا يشوبه حصر، ولا حاجة إلى عرش ولا غيره ولا إحاطة شيء به سبحانه وتعالى، بل كان سبحانه ولا عرش ولم يكن به حاجة إليه، وهو الغني الحميد، بل استواؤه على عرشه واستيلاؤه على خلقه من موجبات ملكه وقهره من غير حاجة إلى عرش ولا غيره بوجه ما »[٣].

---

(١) شرح الطحاوية بتصرف ص ١٩٢

(٢) السلام اسم من أسمائه تعالى فهو سبحانه:

سلام في ذاته عن كل عيب ونقص يتخيله وهم.

سلام في صفاته من كل عيب ونقص.

سلام في أفعاله من كل عيب ونقص وشر وظلم وفعل واقع على غير وجه الحكمة.

وإذا نظرت إلى أفراد صفاته كما له وجدت كل صفة سلاماً مما يضاد كمالهما فحياته سلام من الموت والسنة والنوم وكذلك قيوميته وقدرته سلام من التعب واللغوب...

(٣) بدائع الفوائد حـ ٢ ص ١٣٦.

العلو والفوقية

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ (١)

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ (٢)

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ (٣)

تثبت هذه الآيات صفة العلو والفوقية لله عز وجل، فالعلي هو الذي له العلو المطلق من جميع الوجوه.

علو الذات: كونه فوق جميع المخلوقات مستوياً على خلقه.

علو القدر: فله من كل صفات الكمال أعلاها.

علو القهر: فهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير![٤]

يصعد إليه سبحانه الطيب من القول، ويرفع إليه الصالح من العمل.

« وإذا كان صفة العلو والفوقية صفة كمال لا نقص فيه ولا يستلزم نقصاً، ولا يوجب محذوراً، ولا يخالف كتاباً ولا سنة ولا إجماعاً فنفي حقيقته يكون عين الباطل والمحال الذي لا تأتي به شريعة أصلاً فكيف إذا

---

(١) البقرة: ٢٥٥

(٢) فاطر: ١٠

(٣) النحل: ٥٠

(٤) مدارج السالكين ج ١ ص ٣١.

كان لا يمكن الإقرار بوجوده وتصديق رسله والإيمان بكتابه وبما جاء به رسوله إلا بذلك؛ فكيف إذا انضم إلى ذلك شهادة العقول السليمة، والفطر المستقيمة، والنصوص الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه، وكونه فوق عباده؟»[1].

المعيّة

قال الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[2]

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾[3]

﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾[4]

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٠٠

(٢) المجادلة: ٧

(٣) الحديد: ٤

(٤) التوبة: ٤٠

﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ (١)

إن علم الله الشامل أحاط بكل شيء في السموات وفي الأرض:

ما يلج فيها من البذر والقطر والموتى وما لا حصر له ولا عد من شتى أنواع الأحياء والأشياء.

ما يخرج منها من النبات وغيره مما لا حصر له ولا عد من خلائق لا يعلمها إلا الله.

ما يقع عليها من تناجي ثلاثة أو أكثر أينما كانوا.

ما ينزل من السماء من الملائكة والأمطار والأقدار والأسرار والأشعة والشهب.

ما يعرج فيها ويصعد إليها من الأعمال والدعوات مما لا يحصيه إلا الله.

هو معكم أينما كنتم. وهو معهم أينما كانوا.

وحين خاف أبو بكر على رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة الهجرة وهما في غار ثور أن يراهما من يطلبهما من قريش قال له: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ فأثبت القرآن لهما معية الله كما أثبتها للصابرين وأمثالهم.

فمعية الله مع كل هذا.

فما المراد بمعية الله؟

أولاً:

نؤمن بأن الله معنا حقيقة وهو سبحانه فوق العرش حقيقة فقد جمع الله بينهما فقال سبحانه:

---

(١) البقرة: ١٥٣

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾

ثانياً:

كلمة [مع] في اللغة إذا أطلقت فليس ظاهرها إلا المقارنة المطلقة من غير وجوب مماسة أو محاذاة عن يمين أو شمال، فإذا قيدت بمعنى من المعاني دلت على المقارنة في ذلك المعنى فإنه يقال: ما زلنا نسير والقمر معنا، أو النجم معنا.

ثالثاً:

هذه المعية تختلف أحكامها بحسب المراد، فلما قال الله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ في ٱلْأَرْض﴾... إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ﴾.
وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ﴾... إلى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا﴾

دل ظاهر الخطاب على أن حكم هذه المعية ومقتضاها أنه مطلع عليهم، يعلم ما يدور بينهم، وما يجري حولهم، فإن علمه ليس لقرب مكاني حتى يتفاوت باختلاف الأمكنة.

رابعاً:

ظاهر المعية وحكمها في الآيتين الأخيرتين أنها معية النصر والتأييد

والحفظ والولاية، يجدد طاقاتهم حين تضعف، ويقوي عزماتهم حين تفتر، ويمدهم من لدنه حين ينفد ما عندهم.

خامساً:

«ليس مقتضى المعية لغة وشرعاً أن يكون ذات الرب عز وجل مختلطة بالخلق حتى يقال قد صرفت عن ظاهرها»[(١)].

فالمعية ليس معناها الاختلاط والمجاورة الحسية بل معناها المقارنة المطلقة بدليل أن القمر وهو آية من آيات الله موضوع في السماء وهو مع المسافر وغير المسافر أينما كان - فإن جاز ذلك بالنسبة للقمر أفلا يجوز بالنسبة إلى اللطيف الخبير الذي أحاط بعباده علماً وقدرة وهو شهيد مطلع عليهم يسمعهم ويراهم.

المجيء والإتيان

قال الله تعالى:

﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا﴾[(٢)]

﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِي ظُلَلٖ مِّنَ ٱلۡغَمَامِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾[(٣)]

---

(١) الفتوى الحموية ص ٨٠.

(٢) الفجر: ٢٢

(٣) البقرة: ٢١٠

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ﴾

تثبت هذه الآيات حقائق:

إنها تلك:

(١) لله سبحانه مجيء يوم القيامة للفصل بين الناس والملائكة صفوف.
(٢) لله سبحانه إتيان يوم القيامة في ظلل من الغمام.
(٣) لملائكة الموت إتيان لقبض أرواح المكذبين.
(٤) تأتي بعض آيات الله قبل القيامة علامات لها.

قال ابن كثير في معنى الآية الثانية:

يقول الله تعالى مهدداً للكافرين بمحمد صلى الله عليه وسلم ﴿هَلْ يَنْظُرُون...﴾ يعني يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزي كل عامل بعمله إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

« وروى الطبري في تفسيره عن ابن عباس مرفوعاً: إن في الغمام طاقات يأتي الله فيها محفوفاً.

قال عكرمة: والملائكة حوله.

فهذا من صفات الله تعالى يجب علينا الإيمان بظاهرها ونؤمن بها كما جاءت، وإن لم نعرف كيفيتها، وعدم علمنا بكيفيتها بمنزلة عدم علمنا بكيفية ذاته، فلا نكذب بما علمناه لعدم علمنا بما لم نعلمه ».

الحب والرضا والسخط والكره

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (١)

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (٢)

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ﴾ (٣)

﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ (٤)

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ (٥)

تثبت هذه الآيات تلك الحقائق:

(١) يتصف الله عز وجل بالحب والرضا والسخط والكره.

(٢) يحب العباد ربهم فيخلصون له العبادة.

(٣) رضي الله عن السلف الصالح بما عملوا من الطاعات الخاصة به.

(٤) رضي العباد عن ربهم بما جازاهم به وما أعد لهم.

(٥) يكره الله من عباده كل ما هو سيء، ويسخطه سبحانه وقوعه منهم.

---

(١) البقرة: ١٩٥

(٢) آل عمران: ٣١

(٣) التوبة: ١٠٠

(٤) الإسراء: ٣٨

(٥) محمد: ٢٨

فصفات الحب والرضا والسخط والكره ثابتة لله تعالى بلا كيف ولا تأويل ولا مشاركة للمخلوق في شيء من خصائصها.

وتأويل الزمخشري للمحبة بأنها إثابة الله تعالى لهم أحسن الثواب والثناء عليهم تفسير باللازم منزع كلامي لا سلفي.

وقد أنكر الزمخشري أيضاً كون محبة العباد لله حقيقة، وفسرها بالطاعة.

ورد صاحب الانتصاف بأنه خلاف الظاهر.

« المحبة لغة: ميل المتصف بها إلى أمر ملذ...

وتتفاوت المحبة ضرورة بحسب تفاوت البواعث عليها، وإذا تفاوتت المحبة بحب تفاوت البواعث. فلذات العلوم أيضاً متفاوتة بحسب تفاوت المعلومات فليس معلوم أكمل ولا أجمل من المعبود الحق، فاللذة الحاصلة في معرفته تعالى ومعرفة جلاله وكماله، تكون أعظم، والمحبة المنبعثة عنها تكون أمكن. وإذا حصلت هذه المحبة بعثت على الطاعات والموافقات. فقد تحصل من ذلك أن محبة العبد ممكنة، بل واقعة من كل مؤمن، فهي من لوازم الإيمان وشروطه، والناس فيها متفاوتون بحسب تفاوت إيمانهم وإذا كان كذلك، وحب تفسير محبة العبد لله بمعناها الحقيقي لغة »[1].

قال ابن القيم

« يخلق الله ما يحب وما يكره:

فالأعيان كلها خلقه، وفيها ما يبغضه ويكرهه - كإبليس وجنوده وسائر

---

(١) محاسن التأويل مجلد ٦ ص ٢٠٣٨

الأعيان الخبيثة، وفيها ما يحبه ويرضاه - كأنبيائه ورسله وملائكته وأوليائه.

وهكذا الأفعال كلها خلقه، ومنها ما هو محبوب له، وما هو مكروه له خلقه لحكمة له في خلق ما يكره ويبغض كالأعيان.

قال تعالى: (٢ : ٢٠٧ وَٱللَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلفَسَادَ) مع أنه بمشيئته وقضائه وقدره. وقال تعالى: (٣٩ : ٧ إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلاَ يَرْضَى لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ) فالكفر والشكر واقعان بمشيئته وقدره، وأحدهما محبوبٌ له مرضي، والآخر مبغوض له مسخوط. وكذلك قوله - عقب ما نهى عنه من الشرك والظلم والفواحش والكبر (١٧ - ٣٨ كُلّ ذَلكَ كَانَ سَيِّئَةً عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهاً) فهو مكروه له مع وقوعه بمشيئته وقضائه وقدره.

والقرآن مملوء بذكر سخطه وغضبه على أعدائه. وذلك صفة قائمة به يترتب عليها العذاب واللعنة لا أن السخط هو نفس العذاب واللعنة بل هما أثر السخط والغضب وموجبهما، ولهذا يفرق بينهما قال تعالى: (٤ : ٩٢ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِناً مُتَعَمِّداً فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمَ خَالِداً فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَاباً عَظِيماً.)

ففرق بين عذابه وغضبه ولعنته وجعل كل واحد غير الآخر»[1].

---

(١) مدارج السالكين ج١ ص ٢٥٣.

الوجه واليد والعين

قال الله تعالى:

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (١)

﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ (٢)

﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي﴾ (٣)

تثبت هذه الآيات لله صفة الوجه واليد والعين، فيجب الإيمان بها وبكل ما وصف الله به نفسه في كتابه. فنقول لله يد لا كأيدينا دون تشبيه ولا تعطيل.

قال السهلي:

« اعلم أن العين أضيفت إلى الباري تعالى كقوله: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي﴾ حقيقة لا مجازاً كما توهم أكثر الناس لأنه صفة في معنى الرؤية وإنما المجاز في تسمية العضو بها. وكل شيء يوهم الكفر والتجسيم فلا يضاف إلى الباري تعالى لا حقيقة ولا مجازاً ».

واليد كذلك صفة ورد بها الشرع، وليست في معنى القدرة فكل شيء حادث فهو واقع بالقدرة، وليس كل واقع بالقدرة واقعاً باليد، فاليد أخص

---

(١) الرحمن: ٢٧.
(٢) ص: ٧٥.
(٣) طه: ٣٩.

من معنى القدرة، ولذلك كان فيها معنى التشريف لآدم.

فإن قيل:

وكيف خوطبوا بما لا يفهمون ولا يستعملون إذ اليد بمعنى الصفة لا يفهم معناها؟

قلنا ليس الأمر كذلك، بل كان معناها مفهوماً عند القوم الذين نزل القرآن بلغتهم بدليل:

(١) أن واحداً من المسلمين لم يستفت عن معناها، ولا خاف على نفسه توهم التشبيه، ولا احتاج إلى شرح دينه.

(٢) أن الكفار لو كان عندهم لا تعقل إلا في الجارحة لتعلقوا بها في دعوى التناقض، واحتجوا بها على الرسول صلى الله عليه وسلم، ولقالوا له: زعمت أن الله تعالى ليس كمثله شيء، ثم تخبر أن له يداً كأيدينا وعيناً كأعيننا.

(٣) لما لم ينقل ذلك عن مؤمن ولا كافر علم أن الأمر كان فيها عندهم جلياً لا خفياً، وأنها صفة[١] سميت الجارحة بها مجازاً، ثم استمر المجاز فيها حتى نسيت الحقيقة [٢].

---

(١) العين يراد بها حقيقة الشيء المدركة بالعيان أو ما يقوم مقام العيان. وليست اللفظة على أصل موضوعها لأن أصلها مصدر وصفة لمن قامت به ثم عبر عن حقيقة الشيء بالعين كما عبر عن الوحش بالصيد وإنما الصيد في أصل موضوعه مصدر صاد يصيد لكن لم يرد العين في الشريعة عبارة عن نفس الباري سبحانه لأن نفسه سبحانه غير مدركة بالعيان في حقنا اليوم اهـ. بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٢.

(٢) المرجع السابق.

ولله سبحانه وتعالى غير ذلك صفات كالجلال والجمال، والعزة والعظمة والكبرياء.

★ ★ ★

هذه أسماء الله وصفاته في محكم كتابه، تنزل بها الوحي الكريم على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتلقاها السلف الصالح كلاً لا يتجزأ وآمنوا بالكتاب كله فسلموا من التشبيه والتعطيل.

ومن ثم سجل الله مدحهم في قرآنه تشريفاً لهم، وتخليداً لذكرهم، وأسوة لمن بعدهم قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]

أما من آمن ببعض صفات الله وعطل بعضها فقد صدق عليه قول الله في شأن اليهود:

﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[2]

فالإنكار والتوبيخ موجه أيضاً لكل من آمن ببعض صفات الله على حقيقتها وعطل غيرها.

لأن من قضية الإيمان ببعضها الإيمان بالباقي لكون الكل من عند الله.

---

(١) البقرة: ٤.
(٢) البقرة: ٨٥.

قال نعيم بن حماد شيخ البخاري:

من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر. وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص، فقد سلك سبيل الهدى.

وقال:

إن المسلك الأسلم طريقة السلف وهو:

إمرار ما جاء في ذلك من الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تحريف، ولا تشبيه، ولا تعطيل ولا تمثيل[1].

وقال الطوفي في قوله تعالى:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾[2]

هذه الآية:

أولها تنزيه
وآخرها إثبات

فمن جمع بينهما
فأثبت لله ما أثبت، ونزهه عما لا يليق به من مشابهة المخلوقات:

---

(١) تفسير ابن كثير في قوله تعالى: ثم استوى على العرش في سورتي الأعراف وطه.
(٢) الشورى: ١١

أثبت غير ممثل

ونزه غير معطل

فقد أصاب

ومن انحرف في التنزيه حتى عطل، وفي الاثبات حتى شبه ومثل فقد زل، ومن قمة التوحيد نزل[1].

(١) الإشارات الإلهية.

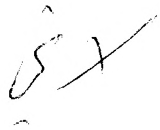
الباب الثاني

الروحانيات والنبوات

الفصل الأول: الملائكة

الفصل الثاني: الكتب

الفصل الثالث: الرُّسل



الفصل الأول

الملائكة

الإيمان بهم - صفاتهم - وظائفهم - الرد على منكريهم - نقض دعوى أنهم بنات الله.

العالم نوعان:

عالم الشهادة: وهو ما تدركه حواسنا، وتبصره أعيننا من أجسام وأرض وسماء.

عالم الغيب: وهو ما وراء ذلك مما لا نبصره ولا تدركه حواسنا القاصرة، ولا مداركنا المحدودة الوسائل.

وهذا الغيب قد استأثر الله بعلمه فقال سبحانه:

﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾(١)

ومنه الروحانيات قال تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾(٢)

وطريقنا إليه الوحي الإلهي فكل خبر جاء به عن عالم الغيب يجب علينا الإيمان به وتصديقه.

---

(١) النمل: ٦٥

(٢) الإسراء: ٨٥

قال تعالى:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ﴾[1]

﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ٩٧ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبۡرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوّٞ لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾[2]

تقرر الآيات أن الإيمان بالملائكة أحد أركان العقيدة الإسلامية وأن من كفر بهم فقد كفر بالله، ومن كان عدواً لهم فهو عدو لله.

والملائكة جمع ملك، وأصله مألك من الألوكة وهي الرسالة.

صفاتهم:

من حيث المادة: نورانيون

قال صلى الله عليه وسلم: «خلقت الملائكة من نور» مسلم.

وهم كذلك روحانيون فقد سمى الله جبريل:

الروح: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ صَفّٗا﴾[3]

---

(١) البقرة: ٢٨٥

(٢) البقرة: ٩٧ - ٩٨

(٣) النبأ: ٣٨

وروح القدس: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ (١)

والروح الأمين: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ (٢)

من حيث الرتبة: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾

قال تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٣)

من حيث الطاعة:

﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ (٤)

﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ (٥)

﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (٦)

هم نوع من خلق الله تعالى منفذون لأمره، ليس لهم من الأمر شيء.. لا يأكلون، ولا يشربون، ولا ينامون، ولا يتناسلون، ولا يوصفون بذكورة

---

(١) البقرة: ٨٧
(٢) الشعراء: ١٩٣
(٣) الأنبياء: ٢٦
(٤) الأنبياء: ٢٠
(٥) الأنبياء: ٢٧
(٦) التحريم: ٦

ولا بأنوثة.. يعجز البشر عن رؤيتهم في صورتهم الملائكية:

﴿أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾(١)

إلا من أيده الله كما أيد نبينا صلى الله عليه وسلم فرأى جبريل في صورته التي جبل عليها مرة في الأرض ومرة في السماء قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ﴾(٢)

لهم القدرة على التشكل بالصور الجميلة.

فقد جاءوا إلى ابراهيم بالبشرى في صورة أضياف قال تعالى:

﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ۖ قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ﴾(٣)

وجاءوا إلى لوط في صورة أضياف حسان الوجوه، فضاق بهم ذرعاً قال تعالى:

﴿وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾(٤)

---

(١) فاطر: ١

(٢) النجم: ١٣ - ١٤

(٣) الذاريات: ٢٤ - ٢٨

(٤) هود: ٧٧

وجاء جبريل إلى مريم في صورة آدمي قال تعالى:

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾[١]

وفي حديث عمر رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر لا يرى عليه أثر السفر ولا يعرفه منا أحد - فسأل النبي صلى الله عليه وسلم ثم انطلق فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: « هذا جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم » رواه الشيخان.

وكان جبريل كثيراً ما ينزل بالوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي.

قال صلى الله عليه وسلم: وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول. البخاري

وظائفهم

منهم السفراء

فقد اقتضت حكمة الله أن يختار من عالم الملائكة سفراء بينه تعالى وبين من اصطفاهم من الناس رسلاً قال تعالى:

---

(١) مريم: ١٧ - ١٩

﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾(١)

﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا ﴾(٢)

ومنهم الكتبة الكرام

وهما ملكان عن اليمين وعن الشمال يكتب الأول الحسنات، ويكتب الآخر السيئات قال تعالى:

﴿ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝١٧ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾(٣)

ومنهم الحفظة

وهم ملائكة يتعاقبون على الإنسان لحفظه بإذن الله - من كل مكروه، فإذا جاء القدر تخلو عنه.

قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴾(٤)

﴿ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً ﴾(٥)

وفي الحديث:

« يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ويجتمعون في صلاة

---

(١) فاطر: ١
(٢) الحج: ٧٥
(٣) ق: ١٧ - ١٨
(٤) الانفطار: ١٠
(٥) الإنعام: ٦١

الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم ربهم - وهو أعلم بهم - كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهم يصلون، وأتيناهم وهم يصلون» رواه الشيخان.

وقال صلى الله عليه وسلم: إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم»

ومنهم المؤيدون للمؤمنين في معاركهم مع الباطل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ (١)

ومنهم الذين يبشرون المؤمنين بالجنة عند قبض أرواحهم:

﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (٢)

ومنهم حملة العرش:

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ (٣)

---

(١) فصلت: ٣٠

(٢) النحل: ٣٢

(٣) غافر: ٧

ومنهم الساجدون لله.

قال صلى الله عليه وسلم: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون أطت السماء وحق لها أن تئط ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجد لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله» الترمذي.

ومنهم خزنة الجنة:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ (١)

ومنهم خزنة النار:

قال تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ (٢)

حين نزلت الآية قال أبو جهل: ما يستطيع كل عشرة منكم أن يأخذوا واحداً منهم، وأنتم الدهم؟

فقال أبو الأشد: - وكان شديد البطش - أنا أكفيكم سبعة عشر فاكفوني أنتم اثنين، فنزل قوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ (٣)

---

(١): الزمر: ٧٣

(٢) المدثر: ٢٩ - ٣٠

(٣) المدثر: ٣١

فقضى القرآن أن يكون أصحاب النار رجالاً من البشر يطاقون ويغلبون.

وهناك طوائف غصت بهم السماء وهم جند من جنود الله.

﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ (١)

منهم: الصافات أقدامها في الصلاة
فالزاجرات عن المعاصي بالإلهام
فالتاليات لكلام الله.

قال تعالى:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ① فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ② فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا﴾ (٢)

منهم:

المقسمات التي تتولى تقسيم أمر العباد من الأمطار والأرزاق.

قال تعالى:

﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ (٣)

منهم:

طوائف أرسلهن الله بأوامره فعصفن في مضيهن

---

(١) المدثر: ٣١

(٢) الصافات: ١ - ٣

(٣) الذاريات: ٤.

وطوائف نشرن أجنحتهن في الجو عند النزول بالوحي
أو نشرن الشرائع في الأرض
أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل
بما أوحين
ففرقن بين الحق والباطل
وألقين ذكراً للأنبياء
عذراً للمحقين.. ونذراً للمبطلين

قال تعالى:

﴿وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا ۝١ فَالْعَاصِفَاتِ عَصْفًا ۝٢ وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا ۝٣ فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا ۝٤ فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾(١)

الرد على منكريهم:

ينكر الملاحدة وجود الملائكة بحجة أنهم لا يرونهم فهم لا يعترفون إلا بالمحسوسات وحدها، وما وراء الحس فهو عندهم عالم من الأوهام والخيالات.

وهذا خطأ لا يقبل، وانحراف عن الحق لا يستساغ فعالم الروح عظيم أقسم الله به فقال:

﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ﴾ من الأجسام والأرض والسماء

---

(١) المرسلات: ١ - ٦

فالوجود أضخم بكثير مما يرى البشر بل مما يدركون والحقيقة أكبر من ذلك الجهاز الإنساني. فالحواس قاصرة، والإدراك العقلي محدود، والذين يحصرون أنفسهم في حدود ما ترى العين، ويدرك الوعي بأدواته الميسرة سجناء حسهم[2].

يقول الطوفي:

ويلزمه - أي المنكر للملائكة - أن ينكر الهواء المالىء للفضاء، بل ينكر عقله ونفسه وروحه لأنه لا يرى شيئاً من ذلك[3]

التساؤل عن سر خلقهم

أما لماذا خلق الله الملائكة؟

فهذا سؤال غير وارد؛ لأن السائل! إما أن يكون مؤمناً أوجاحداً. إن كان جاحداً فأساس مناقشته منهار، لأن الذي ينكر وجود الله لا معنى لأن يؤمن بوجود الملائكة أو لا يؤمن.
وإن كان مؤمناً فيقال له: لا يصح إيمانك حتى تعتقد:

أولاً: ان الله خلق الملائكة في السماء للوظائف السابقة كما خلق الإنسان في الأرض.

---

(١) الحاقة: ٣٨ - ٣٩
(٢) في ظلال القرآن ص ٣٦٨٤
(٣) الإشارات الإلهية.

ثانياً: ان الله موصوف بصفات الكمال ومنزه عن كل نقص، فكل ما يصدر عنه سبحانه له حكمة وغاية قد نعلمها وقد نجهلها، وجهلنا لها لا يوحي بالتساؤل أو الإنكار، لأنه تطاول.

ثالثاً: ان الله حكيم مريد مختار فهذا يقطع أذيال مثل هذه التساؤلات. ثم الله سبحانه:

لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ [1]

إبطال شبهة من وصفهم بأنهم إناث

مذهب الكفار قاتلهم الله - أن الملائكة بنات الله، لأنهم أشخاص شريفة، ولا بد أن يصدروا بالولادة من غيرهم ولا أشرف من الله يصدرون بالولادة عنه، ثم هم ليسوا بذكور فكانوا إناثاً بنات الله.

وهذا افتراء على الله، وتلفيق بحسب عقولهم وما ألفوه.

وقد جمعوا في كفرهم ثلاث كفرات وذلك أنهم:

نسبوا إلى الله الولد

نسبوا إليه أخس النوعين

جعلوه من الملائكة فاستخفوا بهم [2].

ويرد عليهم بما يلي:

---

(١) الأنبياء: ٢٣

(٢) النسفي جـ ٤ ص ١١٥.

أولاً:

الملائكة حقاً أشخاص شريفة صادرون عن الله لكن بالخلق والاختراع لا بالولادة كما يدعي هؤلاء، لأن الله وصفهم بأنهم عباده، وفي مقام العبادة يقف العبيد كلهم صفاً، ولا مقتضى إلى تخصيصهم بالبنوة.

وإنما الذي دفع الإنسان إلى ذلك الادعاء كفره وضلاله قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنسَانَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ﴾ (١)

ثانياً:

هل من الأدب والإنصاف ادعاؤهم أن الله اختار لنفسه المنزلة الأدنى ولهم الأعلى حيث ينسبون إليه البنات وهم يستاءون من ولادتها لهم لعجزها عن الإبانة، وضعفها عن القتال يوجه إليهم القرآن ذلك في استفهام إنكاري تجهيلاً لهم وتبكيتاً فقال:

﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُم بِالْبَنِينَ ۝١٦ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝١٧ أَوَمَن يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ﴾ (٢)

---

(١) الزخرف: ١٥

(٢) الزخرف: ١٦ - ١٨

ثالثاً:

الشأن في الشهادة أن تقوم على رؤية الشاهد رؤية واضحة مثل الشمس - لما يشهد عليه.

فما حجتهم في ادعائهم الظالم؟ أعندهم علم يوجب ذلك؟ من أين لهم العلم وما شهدوا خلقهم؟

كيف يخبرون عن شيء لم يشاهدوه؟ إنه الإجتراء على الله ومن ثم يحملهم الله تبعة هذه الشهادة بغير ما كانوا حاضريه وفي ذلك استهزاء بهم وتجهيل لهم. قال تعالى:

﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾ (١)

رابعاً:

يهدم القرآن الادعاء كله من أساسه، فيطالبهم بالبرهان على زعمهم الفاسد. فيقول:

﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (٢)

---

(١) الزخرف: ١٩

(٢) الصافات: ١٥٤ - ١٥٧

خامساً:

تتولى الملائكة الرد على تلك الأسطورة بأن لكل منهم مقاماً لا يتعداه، ولا يتجاوزه، فهم عباد من خلق الله لهم وظائف في طاعة الله وعبادته من صلاة تصف فيها أقدامهم وتسبيح ينزه الله عن كل افتراء.

﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَعْلُومٌ

وَإِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُّونَ

وَإِنَّا لَنَحْنُ الْمُسَبِّحُونَ﴾ (١)

---

(١) الصافات: ١٦٤ - ١٦٦

الفصل الثاني

الكتب

المعلوم منها وحقها - وظيفتها - تحكيمها - صحة المنزلة لا المحرفة - واجب الجماعة المسلمة - إبطال دعوى اليهود صحة توراتهم - إبطال إدعاء النصارى صحة إنجيلهم - القرآن الكريم.

﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖ﴾ (١)

الكتاب واحد الكتب وهو من الكتب بمعنى الجمع والضم.

والمراد الكتب المنزلة من الله على رسله عليهم الصلاة والسلام والمعلوم لنا منها:

صحف إبراهيم وموسى: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ۝١٨ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ (٢)

الزبور الذي أنزل على داود: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (٣)

التوراة التي أنزلت على موسى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ (٤)

الإنجيل الذي أنزل على عيسى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (٥)

القرآن الذي أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى إخوانه النبيين وهو آخرها المصدق لها، المهيمن عليها:

---

(١) الشورى: ١٥

(٢) الأعلى: ١٨ - ١٩

(٣) النساء: ١٦٣

(٤) المائدة: ٤٤

(٥) المائدة: ٤٦

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾[1]

كل هذه الكتب حق من حق، موافق بعضها لبعض، لا تناقض ولا اختلاف بينها في الأسس والأصول التي تجمع وحدة الدين ونحن مطالبون بالإيمان بها جميعاً، فنحن مأمورون بما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا ما كان خاصاً به لقوله تعالى:

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[2]

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[3]

ولقد مدح الله من آمن بها جميعاً، وجعل لهم الهداية والفلاح، قال تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4]

وظيفتها

أنزل الله هذه الكتب لتتولى قيادة البشرية، وتنظيمها، وتوجيهها والأخذ بيدها لإنقاذها من مهاوي الضلال والإلحاد إلى عبادة الله ولتحقق لها تلك الغايات:

---

(١) المائدة: ٤٨

(٢) آل عمران: ٣١

(٣) الأحزاب: ٢١

(٤) البقرة: ٤ - ٥.

أولاً: تصحيح عقيدتها فالله هو الرب الخالق والإله المالك والحاكم المتصرف والكل عبيده..

وقد أمر الله نبيه أن يستنكر ابتغاء حكم غير الله في شأن من شئون الحياة ففي الكتاب المنزل تفصيل ذلك قال تعالى:

﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا﴾(١)

ثانياً: تقديم التصور الصحيح للحياة فالكون مسخر والإنسان خليفة مسئول.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾(٢)

ثالثاً: تنظيم علاقتها بالله بشعائر تعبدية كالصلاة والزكاة والصيام وكل عمل مباح يقصد به الإنسان وجه الله.

رابعاً: تحكيم شريعة الله في واقع الحياة بين الناس بإقامة الحدود والمعاملات والقصاص. ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(٣)

---

(١) الأنعام: ١١٤
(٢) الأنعام: ١٦٥
(٣) المائدة: ٤٨

ومن ثم قال الله تعالى:

في التوراة: ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ﴾[1]

في الإنجيل: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾[2]

في القرآن: ﴿فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾[3]

ولقد حسم الله قضية الحاكمية والتشريع لله، فليس لأحد أن يحل حراماً، أو يحرم حلالاً، أو يشرع للناس ما يناقض شرع الله وكل من لم يحكم في شئون الحياة ومشكلاتها بما أنزل الله في أي جيل وفي أي قبيل فقد حكم الله عليه بالكفر والظلم والفسوق:

﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾
﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾
﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[4]

---

(١) المائدة: ٤٤
(٢) المائدة: ٤٧
(٣) المائدة: ٤٨
(٤) المائدة: ٤٤ - ٤٥ - ٤٧

ذلك كله يقتضي صحة الكتب المنزلة على الأنبياء، إذ الإيمان بما ليس بصحيح لا يمدح أهله، ولا يؤمر بتحكيمه، ولم يرد الأمر إلا بالمنزل لأنه سالم من التحريف.

أما التوراة التي بأيدي اليهود والإنجيل الذي بأيدي النصارى فقد وقع فيهما النحريف والتبديل، وطمست فيهما معالم الحق، يقول الله تعالى في شأن الأحبار والربانيين الذي تعمدوا هذا الخلط في كتاب الله عن هوى في نفوسهم وغرض مريض في قلوبهم، ومصلحة حقيرة من مال أو نفوذ:

﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾[1]

ويخبر سبحانه عن فريق منهم يحرف ويؤول، ويكتم ويبدي، ويكتب كلاماً من عند نفسه، ويذيعه في الناس على أنه من عند الله ليربح ويكسب فيقول سبحانه منذراً:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾[2]

---

(١) البقرة: ٧٥

(٢) البقرة: ٧٩

وقال تعالى في حقهم:

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾[1]

﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ﴾[2]

قيل: حرفوه بالتبديل، وقيل حرفوه بالتأويل

والحق أنهم حرفوه بالأمرين، وفي اختلاف العبارة في الآيتين السابقتين ما يساعد على ذلك الفهم.

فقد حرفوا ما لهم في تحريفه مصلحة كتخفيف التكليف الثقيل. وتغيير صفات النبي صلى الله عليه وسلم، فتحريفهم جمع بين التبديل والتأويل[3]، وذلك كي يتقوا ما فيها من دلائل الرسالة الأخيرة ومن أحكام وتشريعات يصدقها الكتاب الأخير وتدل وحدتها في الكتابين على المصدر الواحد، وصحة رسالة النبي صلى الله عليه وسلم.

واجب الجماعة المسلمة

أولاً: الصبر والمصابرة، وتحمل كل مشقات الجهاد ومواجهة أصحاب الأهواء حتى تقوم الحياة على شرع الله. قال تعالى:

﴿فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ﴾[4]

---

(١) المائدة: ١٣

(٢) المائدة: ٤١

(٣) الإشارات الإلهية

(٤) المائدة: ٤٤

ثانياً: مقاومة المغريات والمطامع الشخصية حتى لا يتخلى الدعاة والعاملون في سبيل الله عن رسالتهم بالسكوت أو التحريف. قال تعالى:

﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1]

ثالثاً: بيان أن من ترك الحق فقد سقط في الباطل

﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ﴾[2]

فإما حكم الله

وإما حكم الجاهلية

قال تعالى:

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[3]

إبطال دعوى اليهود صحة التوراة

يحتج اليهود على صحة التوراة إلزاماً للمسلمين بأن فيها حكم الله قال تعالى:

﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَاةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ﴾[4]

---

(١) المائدة: ٤٤

(٢) يونس: ٣٢

(٣) المائدة: ٥٠

(٤) المائدة: ٤٣

ويقولون:

كل ما فيه حكم الله فهو حق معتبر، فالتوراة حق معتبر! والجواب على هذا الزعم من وجوه:

الأول:

حكم الله الذي في التوراة وتشير إليه الآية إنما هو حكم الزانيين اللذين زنيا بخيبر وهما محصنان، وجزاؤهما في التوراة الرجم لكن لشرفهما بين اليهود، قصد جمع منهم تحكيم الرسول صلى الله عليه وسلم عسى أن يكون في حكمه تخفيف بالجلد. فتعجب القرآن من حالهم حيث يحكمون من لا يؤمنون به وبكتابه مع أن الحكم منصوص عليه في كتابهم الذي يدعون الإيمان به.

الثاني

نحن لا ندعي تحريف جميع التوراة بل تحريف ما تلزمهم به الحجة من صفات محمد صلى الله عليه وسلم. ولا يلزم من تضمنها بعض حكم الله أن يكون جميعها حقاً معتبراً، وإنما يلزم ذلك لو كانت الآية:

في جميعها حكم الله، أو فيها جميع حكم الله

الثالث:

﴿فِيهَا حكم ٱللهِ﴾ هذا ظرف ومظروف والمظروف الذي هو حكم الله هو الحق المعتبر، وأما الظرف الذي فيه الحكم فجائز أن يكون حقاً وباطلاً.[1]

---

(١) الإشارات الإلهية

ابطال ادعاء النصارى صحة إنجيلهم

يدعي النصارى أن الإنجيل متواتر لإطباق النصارى عليه شرقاً وغرباً كإطباق المسلمين على القرآن.
وتلك دعوى باطلة من وجوه:

الأول:

أن الإنجيل ألف على جهة التاريخ وحفظ سيرة المسيح بعد أن رفع وصلب على زعمهم بنحو ثمانين سنة معتمداً في جمعه على أربعة هم: لوقا.. ومرقص.. ويوحنا.. ومتى. ومثل هذا العدد لا يحصل به التواتر.

الثاني

لا يثبت التواتر بمجرد الإطباق، وإنما يثبت بوجود حقيقته وشروطه وهي:

اتفاق العدد الكثير المأمون تواطؤه على الكذب في الإخبار عن محسوس مع اتفاق الطرفين والواسطة في هذه القيود.

وهذا موجود في إطباق المسلمين على نقل القرآن وليس موجوداً في نقل النصارى للإنجيل فإن الطرف الأول الذي على عهد المسيح لم يكونوا على شرط التواتر لقلتهم وضعفهم حتى إن المسيح على زعمهم قُتِلَ قَتْلَ اللصوص، وصلب بين لصين.

الثالث:

لم تزل الملة المسيحية خاملة مستضعفة مع اليهود لا يجسر أحد أن يتظاهر بذكر المسيح ولا بسيرته ولا بالإنجيل حتى ظهر قسطنطين فأظهر

المسيحية بعد ما بان من السنين نحو ثلاثمائة سنة فأين التواتر؟ وما هذا شأنه؟

ومن ثم فإنه لا يوجد سند تاريخي متصل يربط بين الإنجيل الحاضر والإنجيل الذي أنزل على عيسى.

جاء في دائرة المعارف البريطانية ص ٤٣٦:

«لم يبق من أعمال المسيح شيء ولا كلمة واحدة مكتوبة»

القرآن الكريم

أسماؤه – تعريفه – نزوله مفرقاً

حفظه وخلوده – أقبح الكفر

القرآن وأسماؤه

هو الكلام المعجز المنزل على النبي صلى الله عليه وسلم للتحدي المكتوب في المصاحف، المنقول عنه بالتواتر، المتعبد بتلاوته.

ومن أسمائه الفرقان: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١)

الذكر: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ﴾ (٢)

التنزيل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٣)

هو كلام الله ألفاظه ومعانيه، فلا يقال:

القرآن اللفظ دون المعنى، ولا المعنى دون اللفظ

فأهل السنة والجماعة يقولون، ويعتقدون أن القرآن الكريم كلام الله

---

(١) الفرقان: ١

(٢) الأنبياء: ٥٠

(٣) الشعراء: ١٩٢

سمعه جبريل عن الله عز وجل، وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل، وسمعه الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم.

« المكتوب في المصاحف كلام الله:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧ فِى كِتَـٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ (١)

والمسموع من القارىء كلام الله:

﴿فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ﴾ (٢)

والمحفوظ في الصدور كلام الله:

﴿بَلْ هُوَ ءَايَـٰتٌۢ بَيِّنَـٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ (٣)

والذي نزل به جبريل على قلب محمد صلى الله عليه وسلم كلام الله:

﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ﴾ (٤)

كل ذلك كتاب الله وكلامه القرآن حقيقة لا مجازاً.

ولا يحل لأحد أن يصرف كلام الله وكلام رسول الله إلى المجاز بدعواه الكاذبة »(٥).

---

(١) الواقعة: ٧٨

(٢) التوبة: ٦

(٣) العنكبوت: ٤٩

(٤) الشعراء: ١٩٤

(٥) المحلى لابن حزم ج ١ ص ٣٢

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال:

« لا تقوم الساعة حتى يرجع القرآن من حيث نزل له دوي كدوي النحل.

يقول:

يا رب منك خرجت.. وإليك أعود..
أتلى، ولا يعمل بي »!

ويقول ابن القيم:

يؤكد ذلك ويقرره قوله تعالى:

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١)

فقد أفاد كونه تنزيلاً من رب العالمين مطلوبين عظيمين من أجل مطالب الدين:

أحدهما:

إنه المتكلم سبحانه - وأنه منه نزل، ومنه بدأ، وهو الذي تكلم به، ومن هنا يقول السلف: منه بدأ
ونظيره: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ (٢)

---

(١) الواقعة: ٧٩
(٢) السجدة: ١٣

وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾[1]

الثاني:

علو الله - سبحانه - فوق خلقه، فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول، وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل[2].

وقد نزل القرآن من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في ليلة القدر قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾[3]

وهي الليلة المباركة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[4]

وهي إحدى ليالي شهر رمضان لقوله تعالى:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾[5]

وقد نزل القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم مفرقاً في بضع وعشرين سنة قال تعالى:

﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾[6]

---

(١) النحل: ١٠٢

(٢) التبيان في أقسام القرآن ص ١٤٥

(٣) القدر: ١

(٤) الدخان: ٣

(٥) البقرة: ١٨٥

(٦) الإسراء: ١٠٦

وأشار القرآن إلى أن لتنزيله منجماً حكماً منها:

ما يتصل بنفسية الرسول.

حيث يمضي برسالته بين أعداء يشنون معارك ذات سنان ولسان، وتمتاز الفترة المكية بالحرب الكلامية الباغية من ادعاءات كاذبة، وشبه باطلة:

شككوا في وحدانية الله:

﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ (١)

كذبوا بوحي الله:

﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ (٢)

أنكروا لقاء الله:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (٣)

سخروا من رسول الله:

﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا﴾ (٤)

أفلا يحتاج الرسول إلى تأييد من الوحي، وتثبيت من الله؟

---

(١) ص: ٥

(٢) الأنعام: ٩١

(٣) ق: ٣

(٤) الفرقان: ٤١

قال تعالى:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾[١]

أي أنزلناه مفرقاً لنثبت بتفريقه فؤادك حتى تعيه وتحفظه، لأن المتلقن إنما يقوى قلبه على حفظ العلم شيئاً بعد شيء، وجزءاً عقيب جزء، ولو ألقي عليه جملة واحدة لعجز عن حفظه، أو لنثبت به فؤادك عند الضجر بتواتر الوصول، وتتابع الرسول.

ما يتصل بطبيعة الوحي المنزل:

حيث يتطلب سوق الآيات على مهل مفرقة تفريقاً يسكب الوضوح واليقين.

قال تعالى: ﴿وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾[٢]

أي قدرناه آية بعد آية ووقفة بعد وقفة.

أو أمرنا بترتيل قراءته وذلك قوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾[٣]

أي اقرأه بترسل وتثبت[٤].

---

(١) الفرقان: ٣٢.

(٢) الفرقان: ٣٢.

(٣) المزمل: ٤.

(٤) النسفي ج ٣ ص ١٦٥.

ما يتصل بأحوال الناس:

فإذا أورد الكفار إشكالاً أو شبهة أو أتوا بسؤال أو مثل كان جوابهم بالمرصاد تأييداً للمؤمنين وهدفاً لشبه المبطلين.. من ذلك قوله تعالى:

لعبدة الشركاء: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾[1]

لمنكري الوحي:

﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾[2]

لجاحدي البعث: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾[3]

للساخرين من الرسول: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾[4]

حفظه وخلوده:

لقد انعقد للقرآن لواء البقاء والحفظ لأسباب منها:

---

(١) يوسف: ٣٩

(٢) الأنعام: ٩١

(٣) ق: ٤٣

(٤) الأنعام: ١٢٤

أولاً:

تلته الألسنة فحفظته العقول، ووعته الصدور وعملوا بما فيه، عن عثمان وابن مسعود وأبي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرئهم العشر فلا يجاوزونها إلى عشر أخرى حتى يتعلموا ما فيها من العمل، فيعلمنا القرآن والعمل به. ولذا سمي قرآناً.

وقد أريد به المصدر في قوله تعالى:

﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُ﴾[١]

قال اللحياني: إنه مصدر مهموز بوزن الغفران، مشتق من قرأ بمعنى تلا، سمي به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر[٢].

كما أطلق وأريد به الكتاب الكريم ثم صار علماً عليه:

﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[٣]

ثانياً:

جمعه في السطور، وكتابته في المصاحف ولهذا سمي كتاباً قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾[٤]

---

(١) القيامة: ١٧ - ١٨

(٢) الإتقان حـ ١ ص ٨٧

(٣) الإسراء: ٩

(٤) البقرة: ٢

وفي تسميته بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد أعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة المحمدية اقتداء بنبيها بقي القرآن محفوظاً.

ثالثاً:

تحقيق الله لوعده الذي تكفل بحفظه حيث يقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١)

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى:

﴿وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ﴾ (٢) أي بما طلب إليهم حفظه.

والسر في هذه التفرقة أن سائر الكتب السماوية جيء بها على التوقيت لا التأبيد، وأن القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتب، ومهيمناً عليها، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائداً عليها بما شاء الله زيادته، وكان ساداً مسدها، ولم يكن شيء منها ليسد مسده، فقضى الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة، وإذا قضى الله أمراً يسر له أسبابه وهو الحكيم العليم»(٣).

---

(١) الحجر: ٩

(٢) المائدة: ٤٤

(٣) النبأ العظيم ص ١٣

رابعاً:

كلام الله لا يمكن أن يطاوله كلام أو أن يدخل في ساحته ما ليس منه، إذ سرعان ما يفضح كما يفضح الحصا بين أكرم الجواهر.

ولهذا حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الكذب عليه وتوعد الكاذبين عليه بالعذاب الأليم فقال صلى الله عليه وسلم: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

على حين لم ينبه الرسول الكريم من الكذب على كتاب الله ولم يتوعد عليه لعلمه صلى الله عليه وسلم أن الكتاب الكريم في حراسة ذاتية من أن يدخل عليه كذب أو يندس فيه افتراء، وهذا يشير إليه قوله تعالى في وصفه لكتابه القرآن:

﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[1]

ولقد صدق الله وعده وحفظ كتابه، فلم يأته الباطل في زمن نزوله، ولا فيما جاء بعد ذلك، أو يجيء من أزمان[2].

أقبح الكفر

فمن زعم أن القرآن متناقض أو مشتمل على بعض الخرافات وأن بعضه غير منزل من عند الله أو أنه غير محفوظ فقد وقع في أقبح الكفر والضلال

---

(١) فصلت: ٤١ - ٤٢

(٢) الإسلام في مواجهة الماديين والملحدين ص ٥٨

والظلم كما قال تعالى:

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ﴾ (١)

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ (٢)

قال القاضي عياض بن موسى في الشفاء ص ٣٢٥.

«واعلم أن من استخف بالقرآن أو المصحف أو بشيء منه أو سبهما أو جحده أو حرف منه أو آية أو كذب به أو بشيء مما صرح به فيه من حكم أو خبر أو أثبت ما نفاه أو نفى ما أثبته على علم منه بذلك أو شك في شيء من ذلك فهو كافر عند أهل العلم بإجماع».

قال ابن القيم:

من لم يؤمن بأنه حق من عند الله ففي قلبه منه حرج.

من لم يؤمن بأن الله سبحانه تكلم به وحياً وليس مخلوقاً من جملة مخلوقاته ففي قلبه منه حرج.

من قال إن له باطناً يخالف ظاهره، وإن له تأويلاً يخالف ما يفهم منه ففي قلبه منه حرج.

من لم يحكمه ظاهراً وباطناً في أصول الدين وفروعه، ويسلم وينقاد

(١) الزمر: ٢٣
(٢) الأنعام: ٩٣

لحكمه أين كان ففي قلبه من حرج[1].

ولقد قامت في محيط الإسلام دعوات غريبة ملتوية.

إحداها: تدعي أن للقرآن ظاهراً وباطناً، وأن فيه علم الأولين والآخرين، وأنباء ما كان وما سيكون وأن ذلك محجوب إلا عن جماعة أخذت العلم وراثة عن النبوة أو إلهاماً من الله[2].

الأخرى: تدعي أن وراء العلم طريقاً إن سلكوه أفضى بهم إلى كشف العيان، وأغناهم عن التقيد بالسنة والقرآن.. فحسن إليهم الشيطان رياضة النفوس وتهذيبها، وتصفية الأخلاق، وتفريغ القلب وخلوه من كل شيء.. فلما خلا من صوت العلم الذي جاء به الرسول نفث فيه الشيطان بحسب ما هو مستعد له من أنواع الباطل، وخيله للنفس حتى جعله كالمشاهد كشفاً وعياناً.

فإذا أنكره عليهم العلماء قالوا:
لكم العلم الظاهر.. ولنا الكشف الباطن..
لكم ظاهر الشريعة.. وعندنا باطن الحقيقة..
فلما تمكن هذا من قلوبهم سلخها من الكتاب والسنة[3].

وهذه دون شك دعوات منكرة ينقضها سلوك الصحابة والتابعين والأئمة الأعلام.

---

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ٤٤
(٢) التعريف بالإسلام ص ٦٤
(٣) إغاثة اللهفان ج ١ ص ١٣٩

الفصل الثالث

الرُّسل

حاجة الإنسان إليهم - وجوب الإيمان بهم - الغاية من بعثتهم - وحدة الرسالات - عداوة الكفار لها - المعجزة - وجوه إعجاز القرآن - مطالب قريش - القرآن والعلم الحديث - مكانة الرسول بين المرسلين - الرسول بشر - ظاهرة الوحي - حكم تمثيل الرسول - ما نسب إلى الرسل - مفتريات يهودية - مفتريات نصرانية - مفتريات مشتركة.

حاجة الإنسانية إليهم

من للفطرة ينقيها من الشوائب الفاسدة والأهواء المضلة؟

من للإنسانية يردها إلى منابع الإيمان الأصيلة كلما زحزحتها ظروف الحياة، أو بواعث الهوى، أو ضغوط المادة؟

هل العقل وحده كاف؟

إن العقل البشري وحده في قصور عن إدراك المعرفة المتصلة برب العالمين، كما أنه يضل تحت ضغط التأثير ودافع التقليد.

« وإذا كنا في العلم البشرى لا نأخذ إلا عن مضادر يعول عليها، ففي علم الغيب لا ينبغي أن نأخذ إلا عمن يملكون حق الحديث عن الله، فمصدر علمهم الوحي، ومصدر علم غيرهم العقل، وتكليف العقل بالبحث في عالم الغيب يشبه سؤال الكبد عن المشهد الذي تراه عين الإنسان.

فمن الظلم لعضو خلقه الله لعمل محدد أن نكلفه فوق طاقته ونحاول به بحث أمر غير محدد ولله تعالى المثل الأعلى »(١)

« وإذا كان الله لم يهمل أي مخلوق سدى، ولم يتركه معطلاً، بل هداه قال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(٢)

فهدى الجماد لما خلق له هداية تليق به.

وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل.

وهدى الولد إلى التقام الثدي عند حاجته.

---

(١) الله في العقيدة الإسلامية ص ٥٢

(٢) طه: ٥٠.

وهدى النحل إلى أن تتخذ من الجبال ومن الشجر بيوتاً عجيبة محكمة - فكيف يترك النوع الإنساني الذي هو خلاصة الوجود وفضله على كثير من خلقه مهملاً لا يهديه إلى أفضل كمالاته وأكمل غاياته؟

كيف يتركه معطلاً لا يأمره، ولا ينهاه، ولا يثيبه ولا يعاقبه وهل هذا إلا مناف لحكمته؟

ولهذا أنكر الله ذلك على من زعمه، ونزه نفسه عنه وبين أنه يستحيل نسبة ذلك إليه، وأنه يتعالى عنه.

قال تعالى:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾(١)

فنزه نفسه عن هذا الحسبان، فدل على أنه مستقر بطلانه في الفطر السليمة، والعقول المستقيمة.

كما شاءت إرادة الله ألا يأخذ الناس بعهد الفطرة، وألا يأخذهم بالآيات الكونية المبثوثة في صفحة الوجود.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾(٢)

ومن ثم أرسل الله الرسل لكل قوم وفي أي أرض فلم يخص الشرق

---

(١) المؤمنون: ١١٥ - ١١٦.

(٢) الإسراء: ١٥.

برسالاته، بل حيث وجد الناس كانت رحمة الله معهم، وكان رسول الله بينهم ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾(١)

وقد أخبر سبحانه أنه سمى بعض رسله، وعرف أخبارهم، ولم يسم آخرين قال تعالى:

﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾(٢)

والرسل جمع رسول وهو: من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه.

وجوب الإيمان بهم

لشمول دين الإسلام للزمن كله ماضيه وحاضره ولاحقه أمر أهله أن يؤمنوا بالرسل جميعاً على السواء قال تعالى:

﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾(٣)

ويجب الإيمان تفصيلاً بمن سماهم الله في كتابه وهم خمسة وعشرون ذكر الله ثمانية عشر منهم في قوله:

﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

---

(١) فاطر: ٢٤.

(٢) النساء: ١٦٤.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ
وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا
وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ
وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١)

ويبقى سبعة وهم:

إدريس هود شعيب صالح وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

أولو العزم

وأفضلهم أولو العزم وهم خمسة:
محمد ونوح وابراهيم وموسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام وقد جمعهم الله في قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ (٢)

الغاية من بعثتهم

قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ

---

(١) الأنعام: ٨٣ - ٨٦.

(٢) الأحزاب: ٧.

﴿بَعْدَ ٱلرُّسُلِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[1]

أرسل الله رسله إلى الناس لغايات منها:

١ - حمل رسالات الله إلى الأمم مبشرين لأهل الطاعة بالجنة ومنذرين أهل المعصية بالنار.

٢ - قطع كل معذرة يعتذر بها الناس حتى لا تكون لهم على الله حجة وحتى لا يقولوا:

﴿رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[2]

٣ - تحقيق سنة الله في عدم تعذيب الأمم وإهلاكها إلا بعد تكذيبهم لرسله قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا﴾[3]

٤ - تبليغ وعد الله ووعيده، وأمره ونهيه، ليعصم العقل، ويحرر الفكر، وينظف الطريق إلى الله من كل باطل.

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾[4]

٥ - إيقاظ العقول، وإثارة المشاعر وتوجيهها للنظر في ملكوت

---

(١) النساء: ١٦٥.
(٢) طه: ١٣٤.
(٣) القصص: ٥٩.
(٤) النحل: ٣٥.

السموات والأرض. وما فيهما من بديع صنع الله وقدرته، ليعبدوه ويوحدوه.

٦ - نشر لواء الحق في دنيا الناس، ومحاربة قوى الباطل:

﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ﴾ (١)

من أجل هذا كانت رسالات الله، كلما مضى رسول قدم في أعقابه رسول يزحف بالبشرية إلى الغاية في صبر بالغ.

وحدة الرسالات السماوية

هذا موكب الرسل الكرام يفدون إلى البشرية رسولاً إثر رسول يدعون إلى عبادة الله وحده. يسجل القرآن ذلك في آيات لا تزال ندية رطبة على فم الزمان مهما تباعدت القرون، وتوالت الأجيال.

إنها وثائق خالدة:

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾

﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (٢)

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ (٣)

﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ (٤)

---

(١) البقرة: ١٩٣.

(٢) - (٣) الأعراف: ٥٩، ٦٥، ٧٣، ٨٥

(٤) العنكبوت: ١٦.

وقال عيسى:

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ (١)

وقال محمد صلى الله عليه وسلم:

﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ (٢)

وفي آية واحدة يقرر القرآن وحدة الدعوة في كل الرسالات قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ (٣)

لماذا؟

ليتم الانسجام بين الإنسان والكون المؤمن الساجد لربه:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ (٤)

---

(١) مريم: ٣٦.

(٢) يونس: ٣.

(٣) النحل: ٣٦.

(٤) الحج: ١٨.

ليتم التوافق بين الإنسان والكون المسبح لربه:

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (١)

ليتم اتساق الإنسان مع الكون الذي أسلم لله قياده:

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ (٢)

عداوة الكافرين لرسل الله

لقد واجه الكافرون والعالون في الأرض رسل الله بالجحود والإنكار:

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٣)

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾

﴿كَذَّبَ أَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٤)

---

(١) الإسراء: ٤٤

(٢) آل عمران: ٨٣.

(٣) - (٤) الشعراء: ١٠٥ ، ١٢٣ ، ١٤١ ، ١٦٠ ، ١٧٦ .

وعجبوا في سخرية قائلين: ﴿أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ﴾[1]

وكذلك فعل كفار مكة فواجهوا اصطفاء الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم:

(١) بالعجب: فقد عجبوا أن يختار الله واحداً منهم يتكلم بلغتهم ويحس بإحساسهم، يبلغ منهج الله وتكاليفه، ويعطيهم القدوة الصالحة في تحملها وأدائها، وينفي الله هذا العجب في استفهام إنكاري لاذع فيقول:

﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾[2]

(٢) بالاقتراح على الله:

أ - فقد اقترحوا أن يكون مع الرسول ملك يكلمهم أنه نبي فرد الله عليهم بأنهم إذا شاهدوا ملكاً في صورته زهقت أرواحهم من هول مشهده فلا يمهلون بعد نزوله طرفة عين:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[3]

ب - كما اقترحوا أن يكون الرسول ملكاً فقد كانوا يقولون:

﴿لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾[4]

---

(١) القمر: ٢٤.
(٢) يونس: ٢.
(٣) الأنعام: ٨.
(٤) فصلت: ١٤.

فرد الله عليهم:

بأن الرسول لو كان ملكاً لأرسلناه إليكم في صورة رجل حتى يبلغ الرسالة لعجز البشر عن رؤية الملائكة في هيئتهم الحقيقية، وبذلك يختلط الأمر ويلتبس وتظل الدعوى[1].

﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[2]

ويتكرر إقناع الله لعباده فيقول:

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾[3]

(٣) بالحسد: فقد أكلت الأحقاد والحسد قلوبهم فقال قائلهم العجب أن الله لم يجد رسولاً يرسله إلا يتيم أبي طالب.

(٤) بالظن الخاطىء: فقد ظنوا الرسالة منزلة تتبع زخارف الدنيا من سلطان ومال، وما دروا أنها منزلة روحية تتبع كمال النفس وتمام فضائلها واختيار الله فقالوا:

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[4]

---

(١) تفسير النسفي جـ ٢ ص ٤.

(٢) الأنعام: ٩.

(٣) الإسراء: ٩٤ - ٩٥.

(٤) الزخرف: ٣١.

يريدون الوليد بن المغيرة بمكة أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف ومن ثم كان رد الله في استفهام توبيخي رادع:

﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ (١)

صفاتهم

يختار الله للرسالة أكمل خلقه عقلاً، وأذكاهم نسباً، وأنبلهم خلقاً، وأطهرهم نفساً.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ (٢)

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ (٣)

هؤلاء المصطفون الأخيار: رجال:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ (٤)

يتزوجون ويتناسلون:

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ (٥)

---

(١) الزخرف: ٣٢.

(٢) الحج: ٧٥

(٣) يوسف: ١٠٩

(٤) الرعد: ٣٨

(٥) الأنعام: ١٢٤

يأكلون، ويمشون في الأسواق:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (١)

لكنهم أهل:

الصدق، والأمانة، والتبليغ، والفطانة

فهم معصومون من الكذب، والخيانة، والكتمان، والبلادة، عصمهم الله من المعاصي صغيرها وكبيرها، وحلاهم بمكارم الأخلاق: فعقولهم زكية، وقلوبهم نقية، وكلامهم حكمة، وحياتهم أسوة وأجسامهم مبرأة من الأمراض الخبيثة، والأعراض المنفرة.

بلغوا رسالات ربهم على أكمل وجه، فما تحكم فيهم هوى ولا رغبة، وكان جلال الله في قلوبهم فوق كل بأس ورهبة

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ (٢)

شهد الله لهم بذلك في قرآنه.

أما الصدق

فيقول الله تعالى:

في إدريس(٣): ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾

---

(١) الفرقان: ٢٠

(٢) الأحزاب: ٣٩.

(٣) أول رسول بعد آدم عليهما السلام. مريم: ٥٦

في إبراهيم: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾[(1)]

في إسماعيل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾[(2)]

في محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾[(3)]

في رسله جميعاً: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾[(4)]

أما الأمانة

فهذا موكب الرسل يحملون راية الأمانة في مسيرتهم مع الأجيال المتتابعة فكل رسول يعلن في قومه أنه أمين على وحي الله، أمين على حق الناس، قال تعالى:

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[(5)]

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[(6)]

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾[(7)]

---

(١) الصدّيق من أبنية المبالغة فهو الصادق المستقيم في الأفعال والأحوال. مريم: ٤١

(٢) مريم: ٥٤

(٣) الزمر: ٣٣

(٤) يس: ٥٢.

(٥) (٦) (٧) الشعراء: ١٠٧، ١٢٥، ١٤٣.

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (١)

﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ (٢)

وقال عزيز مصر في يوسف: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ (٣)

وقالت ابنة شعيب في موسى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ (٤)

وقد عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة بالأمين.

أما التبليغ: فقد بين الله أن مهمة الرسل جميعاً تبليغ رسالات الله إلى خلقه قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٥)

وقد استجابوا من أبي البشرية الثاني إلى قمة النبوة الهادي عليهم الصلوات.

هذا نوح يعلن في قومه:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦)

هذا هود يعلن في قومه:

﴿أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ (٧)

---

(١) (٢) الشعراء: ١٦٢، ١٧٨.

(٣) يوسف: ٥٤.

(٤) القصص: ٢٦.

(٥) النحل: ٣٥.

(٦) (٧) الأعراف: ٦٢، ٦٨.

هذا صالح يعلن في قومه:

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ﴾ (١)

هذا شعيب يعلن في قومه:

﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ ۖ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (٢)

وقال صلى الله عليه وسلم على قمة عرفات بعد خطابه الجامع في حجة الوداع

ألا هل بلغت؟

فأجابت الجموع الحاشدة: اللهم نعم.

أما الفطانة

فقد وهب الله لهم رجاحة العقل، وسلامة الفكر، وقوة الحجة، وأعطاهم العلم والحكمة قال تعالى:

في لوط: ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٣)

في يوسف: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٤)

في موسى: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا﴾ (٥)

---

(١) - (٢) الأعراف: ٧٩ . ٩٣ .

(٣)الأنبياء: ٧٤ .

(٤) نبوة وعلماً فزال الجهل والضلالة. يوسف: ٢٢ .

(٥)الشعراء: ٢١ .

وقال تعالى في جملة من أنبيائه:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾ (١)

وقال في رسوله صلى الله عليه وسلم:

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (٢)

براهين من التاريخ

على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم

يقدم التاريخ براهين كثيرة على صدق نبوته صلى الله عليه وسلم من ذلك:

أولاً:

أنه عرف قبل البعثة بالصدق والأمانة، فما عرف أنه كذب على الناس يوماً فكيف يكذب على رب الناس؟

ومن أجل هذا الخلق الذي بلغ فيه سماء لا تطاولها سماء: اختارته خديجة تاجراً في مالها، ثم زوجاً لها:

قال ابن إسحاق: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة تاجرة ذات شرف ومال، تستأجر الرجال في مالها وتضاربهم إياه

---

(١) الأنعام: ٨٩.

(٢) الجمعة: ٢.

بشيء تجعله لهم منه، وكانت قريش قوماً تجاراً، فلما بلغها عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما بلغها من صدق حديثه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه بعثت إليه، فعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً - وتعطيه أفضل ما كانت تعطي غيره من التجار - مع غلام لها يقال له ميسرة، فقبله منها، وخرج ومعه غلامها إلى الشام فباع، واشترى، ثم أقبل قافلاً إلى مكة، فلما قدم على خديجة بمالها باعت ما جاء به فأضعفت، وحدثها ميسرة بما سمع وشاهد.

وكانت خديجة امرأة حازمة لبيبة شريفة، مع ما أراد الله بها من كرامته، فبعثت إلى رسول الله: يابن عم، إني قد رغبت فيك لقرابتك ووسطك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك. وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهن شرفاً، وأكثرهن مالاً، كل قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه [1].

ثانياً:

عرف قبل البعثة برجاحة عقله. وسلامة فكره، وحسن منطقه وعدالة حكومته، وراشد قضائه.

من ذلك ما روى الطبري في تاريخه جـ ٢ ص ٢٩٠.

إن أبا أمية بن المغيرة كان - عند اختلاف قريش فيمن يضع الحجر الأسود مكانه بعد بناء الكعبة - أسنَّ قريش كلها قال: يا معشر قريش،

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٢٨٠ - ٢٨١

اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي بينكم فيه.

فكان أول من دخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلما رأوه قالوا: هذا الأمين قد رضينا به، هذا محمد فلما انتهى إليهم أخبروه الخبر، قال: هلموا إليَّ بثوب، فأتي به فأخذ الركن فوضعه بيده، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً، ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه بيده، ثم بنى عليه، وكانت قريش تسمي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قبل أن ينزل عليه الوحي: الأمين.

ثالثاً:

قول خديجة حين عاد إليها يقول: زملوني زملوني:

أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة، وتحمل الكَلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر.

رابعاً:

ظل رسول الله صلى الله عليه وسلم موضع الأمانة في قومه، ومحل الثقة عندهم حتى بعد النبوة، والاختلاف في الدين، ولهذا أقام علي بن أبي طالب بمكة بعد هجرة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثلاث ليال وأيامها حتى أدى عن الرسول الودائع التي كانت عنده إلى الناس، فلما فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم[١].

---

(١) تاريخ الطبري جـ ٢ ص ٣٨٢.

خامساً:

تجرده صلى الله عليه وسلم من المنافع الذاتية والمطامع الخاصة، فحين عرض عليه قومه الملك والمال والجاه قال قولته الخالدة:

يا عماه، لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته[1].

سادساً:

فزع هرقل، وتساؤلاته عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في لقاء مع رهط من تجار مكة بالشام تولى الإجابة عنها أبو سفيان - باعتباره أمسهم رحماً بالنبي -

ثم جاء استنتاج هرقل صادقاً واعياً.

قال أبو سفيان: قال الملك:

سألتك كيف نسبه فيكم؟ فزعمت أنه محض من أوسطكم نسباً، وكذلك يأخذ الله نبيه إذا أخذه، لا يأخذه إلا من أوسط قومه نسباً.

وسألتك هل كان أحد من أهل بيته يقول بقوله فهو يتشبه به؟ فزعمت أن لا.

وسألتك هل كان له فيكم ملك فاستلبتموه إياه فجاء بهذا الحديث يطلب به ملكه؟ فزعمت أن لا.

(١) المرجع السابق ص ٣٢٦.

وسألتك عن أتباعه، فزعمت أنهم الضعفاء والمساكين والأحداث والنساء، وكذلك أتباع النبي في كل زمان.

وسألتك عمن يتبعه، أيحبه ويلزمه أم يقليه ويفارقه؟ فزعمت أنه لا يتبعه أحد فيفارقه، وكذلك حلاوة الإيمان لا تدخل قلباً فتخرج منه.

وسألتك هل يغدر؟ فزعمت أن لا. فلئن كنت صدقتني عنه ليغلبني على ما تحت قدمي هاتين، ولوددت أني عنده فأغسل قدميه، انطلق لشأنك[1].

المعجزات

أيد الله رسله بوحيه، وأجرى على أيديهم الآيات البينات، والمعجزات الباهرات منها:

معجزة صالح: ناقة الله.

﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2]

---

(١) المرجع السابق ص ٦٤٨.

(٢) الأعراف: ٧٣.

﴿فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يَا صَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٧﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ (١)

معجزة موسى:

انقلاب العصا حية.. إخراج يده بيضاء من غير سوء.

قال الله تعالى:

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ ۖ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ آيَةً أُخْرَىٰ﴾ (٢)

معجزة عيسى:

إبراء الأكمه - المائدة - قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ (٣)

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِّنكَ ۖ وَارْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ

---

(١) الأعراف: ٧٧ ، ٧٨ .

(٢) طه: ١٩ - ٢٢ .

(٣) المائدة: ١١٠ .

﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾[1]

شروط المعجزة:

هي واحدة معجزات الأنبياء الدالة على صدقهم صلوات الله عليهم، وسميت معجزة لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها.
وشرائطها خمسة:

(١) أن تكون مما لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى.

(٢) أن تخرق العادة على وجه يدل على صدق الرسول في دعوى الرسالة.

(٣) أن يستشهد بها مدعي الرسالة فيقول: آيتي في دعواي أن يقلب الله العصا حية مثلاً.

(٤) أن يقع الأمر على وفق دعوى المتحدي بها المستشهد بكونها معجزة له.

(٥) ألا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدي على وجه المعارضة[2].

وقد جعل الله المعجزة في أبرع ما يكون عليه أهل زمان النبي الذي أراد إظهاره.

فلما انتهى السحر إلى غايته زمن موسى كانت معجزته انقلاب العصا حية ولما انتهى الطب إلى غايته زمن عيسى كانت معجزته إبراء الأكمه.

---

(١) المائدة: ١١٤ - ١١٥.
(٢) مقدمة تفسير القرطبي.

ولما انتهى البيان إلى غايته زمن محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزته القرآن.

المعجزة الباقية

فالقرآن وحي إلهي من عند الله ليس من وضع محمد صلى الله عليه وسلم ولا دخل للبشر فيه وهو المعجزة الباقية إلى يوم القيامة.

وجوه إعجازه

(١) الإبداع في نظمه فجاء مخالفاً لكل نظم معهود في لسان العرب حتى قال عتبة: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى.

(٢) الجزالة التي لا تصح إلا من القادر على كل شيء، فلا يصح من أعظم ملوك الدنيا أن يقول: ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾(١)

ولا أن يقول: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾(٢)

(٣) الأسلوب المخالف لجميع أساليب العرب، ومن فصاحته أنه ذكر في آية واحدة: أمرين، ونهيين، وخبرين، وبشارتين.
قال تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا

---

(١) غافر: ١٦

(٢) الرعد: ١٣

﴿تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ (١)

وأنه أنبأ عن قصص الأولين والآخرين ومآل المترفين وعواقب المهلكين في شطر آية وذلك في قوله تعالى:

﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ (٢)

فبلاغة القرآن في أعلى طبقات الإحسان، وأرفع درجات الإيجاز والبيان.

هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم مع ما أعطيه من جوامع الكلم لا يرقى أسلوبه إلى رتبة القرآن، فأين قوله صلى الله عليه في وصف الجنة: فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. من قول الله عز وجل:

﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ﴾ (٣)

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ (٤)

---

(١) القصص: ٧

(٢) العنكبوت: ٤٠

(٣) الزخرف: ٧١

(٤) السجدة: ١٧

(٤) الإخبار بما كان من قصص الأنبياء والقرون السابقة وهو أمي ما كان يتلو من قبله من كتاب ولا يخطه بيمينه.

قال تعالى:

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾ (١)

وبعد إخبار القرآن بقصة زكريا ومريم وبما خاطبتها به الملائكة قال تعالى:

﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ (٢)

وبعد قصة نوح قال تعالى:

﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾ (٣)

(٥) الإخبار عن المغيبات في المستقبل التي لا يطلع عليها إلا بالوحي مثل قوله تعالى:

﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ ۖ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾ (٤)

---

(١) العنكبوت: ٤٨

(٢) آل عمران: ٤٤

(٣) هود: ٤٩

(٤) الفتح: ٢٧

روي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى قبل حروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين، وقد حلقوا وقصروا فقص الرؤيا على أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم، وقالوا: إن رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم حق، فلما تأخر ذلك قال عبد الله بن أبي وغيره: والله ما حلقنا ولا قصرنا، ولا رأينا المسجد الحرام فنزلت الآية[١].

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾

نزلت الآية بمكة تهديداً للوليد بن المغيرة وأن الله سيجعل على أنفه علامة يعير بها ما عاش، مهانة له وعلماً يعرف به وتخصيص الأنف بالذكر، لأن الوسم عليه أبشع.

وظلت الآية تتلى حتى كانت الهجرة، ثم كانت غزوة بدر الكبرى فحطم أنفه بالسيف في معركتها[٢].

(٦) تحدياته على اختلاف أنواعها:

أ - حين ادعى بعض العرب أن محمداً افترى القرآن من عنده وقال آخرون: ﴿لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ﴾[٣]

دحض الله هذا وغيره بالعقل والواقع:

أولاً: علو أمر القرآن وإعجازه.

---

(١) النسفي حـ ٤ ص ١٦٣

(٢) المرجع السابق

(٣) الأنفال: ٣١

ثانياً: تصديقه للكتب السابقة.
ثالثاً: تفصيله للأحكام وبيانه للشرائع.
رابعاً: أنه من رب العالمين بلا ريب.

قال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (١)

خامساً: تحداهم أن يأتوا بمثله فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ ۚ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ (٢)

ثم تنازل لهم عن التحدي بجميع القرآن إلى التحدي بعشر سور مثله فقال:

﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلْمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (٣)

ولما عجز أهل البلاغة عن المعارضة جاء التحدي للإنس والجن جميعاً فقال:

---

(١) يونس: ٣٧
(٢) الطور: ٣٣ - ٣٤
(٣) هود: ١٣ - ١٤

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [1]

هذا النفي القاطع للإتيان بمثله يقرره الله في الإتيان بسورة فيقول سبحانه:

﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ [2]

فتقرير القرآن أنهم لن يفعلوا، وتحقق ذلك كما قرره معجزة لا سبيل إلى المماراة فيها إذ عدم إتيانهم بسورة والمجال مفتوح أمامهم، والتحدي قائم دليل إعجازه، وبرهان عجزهم.

ب -تحداهم بعصمة الرسول صلى الله عليه وسلم من الناس بقوله:

﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [3]

فقد كان للرسول صلى الله عليه وسلم حرس منهم سعد بن معاذ يوم بدر ومحمد بن مسلمة يوم أحد، والزبير بن العوام يوم الخندق وآخرون غير هؤلاء فلما نزلت الآية خرج صلى الله عليه وسلم على الناس فأخبرهم بها. وصرف الحرس» [4].

---

(١) الإسراء: ٨٨

(٢) البقرة: ٢٤

(٣) المائدة: ٦٧

(٤) زاد المعاد حـ ١ ص ٣٢ - البرهان جـ ٠ ص ١٩٨

ح - تحداهم بعدم طاعته لأبي جهل عندما نهاه عن الصلاة في البيت الحرام: - ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ (١)

فأغلظ له الرسول صلى الله عليه وسلم في القول فقال أبو جهل: أتهددني وأنا أكثر أهل الوادي نادياً فنزل التحدي سافراً:

﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ۝١٧ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ (٢)

(٧) تكرار عبارة (قل) أكثر من ثلاثمائة مرة في القرآن ليكون القارىء على ذكر من أن محمداً - صلى الله عليه وسلم - لا دخل له في الوحي، فهو لا يصوغه بلفظه، ولا يلقيه بكلامه وإنما يلقى إليه الخطاب إلقاء فهو مخاطب لا متكلم، حال ما يسمعه لا معبر عن شيء يجول في نفسه(٣).

(٨) اعتراف النبي صلى الله عليه وسلم بعجزه المطلق عن تبديل حرف من كتاب، وتخوفه من عقاب الله قال تعالى:

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ ۙ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ۝١٥ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ

(١) القلق: ٩
(٢) القلق: ١٧ - ١٨
(٣) مباحث في علوم القرآن ص ٣٠، د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين ط ٨ بيروت

أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١)

(٩) التهديد المخيف والعتب الشديد لمحمد صلى الله عليه وسلم.

فمن التهديد:

وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ (٢)

قال الزمخشري: والمعنى: لو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً، كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معالجة بالسخط والانتقام، فصور قتل الصبر بصورته ليكون أهول، وهو أن يؤخذ بيده وتضرب عنقه» (٣).

ومن العتاب:

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٤)

روي ان عمر رضي الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا هو وأبو بكر يبكيان، فقال: يا رسول الله، اخبرني، فإن وجدت

---

(١) يونس ١٥ - ١٦

(٢) الحاقة ٤٤ - ٤٧

(٣) الكشاف ج ٤ ص ١٣٧.

(٤) الأنفال: ٦٨

بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت، فقال: ابكي على أصحابك في أخذهم الفداء، ولقد عرض عليّ عذابهم ادنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة.

رواه مسلم

(١٠) اللمحات العلمية التي لم يتوصل إليها العلماء إلا في مطلع هذا القرن مما يدحض كل شبهة في أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد استقى ما في القرآن نتيجة لاحتكاكه بأهل الشام عند رحلته إليها متاجراً.

من تلك اللمحات العلمية:

﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ (١)

أ - فالآية تشير إلى:

أن نشأة الإنسان كنشأة النبات.

من عناصرها الأولية يتكون.

ومن عناصرها الأولية يتغذى.

فهو نبات من نباتها..

كلاهما من نبات الأرض، وكلاهما يرضع من هذه الأم.

وقد توصل العلم الحديث بالتحليل إلى أن جسم الإنسان يحتوي من العناصر ما تحتويه الأرض.

ب - ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ﴾

---

(١) نوح: ١٧

﴿وَلَآ أَكۡبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ (١)

ماذا..؟

ولا أصغر من ذلك - مثقال ذرة - أجل..!

كيف يقرر القرآن ذلك منذ أربعة عشر قرناً من الزمان؟

لقد كان الاعتقاد السائد إلى القرن التاسع عشر أن الذرة أصغر الأجسام، وأنها لا تقبل التجزئة، ثم توصل العلماء أخيراً إلى تجزئتها.

فكيف سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم علماء الدنيا غربها وشرقها إلى تلك الحقيقة العلمية الكبرى؟

أجيبوا..

يا من تقولون: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞ﴾ (٢)

أجيبوا..

يا من تقولون: ﴿إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَ﴾ (٣)

أجيبوا:

يا من تقولون: ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا﴾ (٤)

---

(١) سبأ: ٣

(٢) لنحل: ١٠٣.

(٣) الفرقان: ٤.

(٤) الفرقان: ٥.

أجيبوا:

يا من تقولون: ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖ﴾ (١)

أجيبوا..

هل كان لدى رسول الله صلى الله عليه وسلم معمل في صحراء العرب يجري فيه التجارب، ويدرس خصائص الذرة؟

قل لهؤلاء المكذبين قديماً وحديثاً:

﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ (٢)

يقول ابن خلدون في المقدمة ص ٩٢:

« واعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن الخوارق - في الغالب - تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي صلى الله عليه وسلم، ويأتي بالمعجزة شاهدة على صدقه والقرآن هو نفسه الوحي وهو الخارق المعجز فشاهده من نفسه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له - كسائر المعجزات مع الوحي. فهو واضح الدلالة، لاتحاد الدليل والمدلول فيه ».

مطالب قريش

لكن هذا القرآن المعجز لم يغن قريشا فراحوا يطلبون خوارق مادية:

---

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) الفرقان: ٦.

وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا
أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا
أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا
أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا
أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ
أَوْ تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَّقْرَؤُهُ

ويأتي الجواب من الله آمراً الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يعلن تعجبه من اقتراحاتهم.. ويبين حدوده ووظيفته.

قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا (١)

والحكمة في عدم تحقيق ما طلبوا من آيات:

(١) أن سنة الله في الأمم أن من اقترح منهم آية فأجيب إليها، ولم يؤمن - أن يعاجل بعذاب الاستئصال.

(٢) أن الله شاء أن تكون هذه الأمة هي الخاتمة، ولم يقدر عليها الاستئصال، فلم يرسل ما اقترحوه من آيات.

قال تعالى: وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ
وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٢)

---

(١) الإسراء: ٩٠ - ٩٣.

(٢) الإسراء: ٥٩.

(٣) أن الخارقة المادية تخاطب جيلاً واحداً من الناس، وتقتصر على من يشاهدها من هذا الجيل لكن القرآن معجزة مفتوحة للأجيال المتتابعة تقرؤه، وتؤمن به إلى يوم القيامة.

القرآن الكريم والعلم الحديث

أهناك تنافر بين القرآن والعلم الحديث؟

يتقول البعض جهلاً أو كيداً - أن القرآن مضت عليه قرون فهو لا يواكب التطور، ولا يساير العلم الحديث.

وهذا القول باطل عقلاً ونقلاً وواقعاً.

أولاً: العقلي:

من الذي أنزل القرآن؟

من الذي هدى إلى العلم؟

لا يشك عاقل منصف بعد التحدي المطلق للإنس والجن في كل زمان ومكان أن الله هو الذي أنزل القرآن قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾[1]

كما لا يشك عاقل منصف بعد إبطال دعوى الخالقية للصدفة والطبيعة - أن الله وحده هو خالق الإنسان وواهب العقل ومانح العلم، قال تعالى:

﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

(١) الكهف: ١

فالقرآن مأدبة الله ومعجزته الخالدة. والعلم منحة الله وهبته المستمرة فهما من مصدر واحد فكيف يتناقضان؟

كيف يقال إنه لا يواكب التطور وهو دستور التقدم الإنساني. وكل عامل يؤدي إلى رقي البشرية هو منه وإليه. وكل ما ناهض هذا التقدم غريب عنه؟

كيف يقال إنه لا يساير العلم وهو يعتبر العلم أداة الدين. ومظهراً له. لأن العلم يفصح عن عظمة الوجود وعن أزلية الله سبحانه وتعالى.

ثانياً: النقلي:

(١) القرآن الكريم

أ - يدعو إلى العلم ويقدره فأول مادة دستورية إلهية نزلت تحارب الأمية الجاهلة. وترفع من شأن العلم. وتنوه بقيمة القلم يقول تعالى:

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ① خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ② اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ③ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ (١)

ب - أقسم القرآن بالقلم تشريفاً له وتعظيماً لأثره قال تعالى: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ (٢)

---

(١) العلق: ١ - ٤.
(٢) ن: ١.

ح - جعل العلماء أهل خشية الله قال تعالى:

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [1]

د - رفع العلماء درجات فقال:

﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [2]

هـ - حارب الظن وطالب بالحجة والعلم قال تعالى:

﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [3]

(٢) السنة

حض رسول الله صلى الله عليه وسلم على طلب العلم فقال:

« من سلك طريقاً يطلب به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ».

وقال: من أراد الدنيا فعليه بالعلم. ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم، ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم ».

ثالثاً: الواقع:

لقد استجاب أهل القرآن لدعوته فدرسوا وبحثوا

---

(١) فاطر: ٢٨.

(٢) المجادلة: ١١.

(٣) الأنعام: ١٤٨.

وألفوا، وهبت أوربا تفرك عينيها من سباتها العميق على أشعة هذا العلم الذي حمل مشاعله الإسلام، وفاضت مناهله بمساجد الأندلس في طليطلة وغرناطة والزهراء.

ورحم الله علماءنا الذين كانت لهم الزعامة العلمية في العلم والأدب والتأليف.

رحم الله جابر بن حيان أبا الكيمياء العربية[1].

رحم الله أبا عثمان بن بحر الجاحظ مؤسس فن البيان[2].

رحم الله أبا علي الحسن بن الهيثم مؤسس علم الضوء[3].

فقد ازدهرت العلوم في ظل الإسلام ازدهاراً حقيقياً.

«إن الانسجام تام بين تعاليم القرآن والقوانين الطبيعية... وما تقدم العلم من خطوة إلا وكشف عن ناحية من نواحي الإعجاز العلمي فيه، وأضاف برهاناً جديداً يؤكد أن القرآن كتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد»[4].

---

(١) المتوفى سنة ١٦١ هـ

(٢) المتوفى سنة ٢٢٥ هـ.

(٣) ت ٤٣٠ هـ.

(٤) الدين والعلم ص ١٢٥.

القرآن ورحلات الفضاء

يتقول البعض إن القرآن الكريم ذكر صراحة أن الإنسان لا يمكن أن ينتصر في رحلته إلى الفضاء، ولا أن يصعد إلى السماء مستدلين بقوله تعالى:

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ (١)

ويتساءلون..

أين الشواظ الذي وقف عائقاً في سبيل رحلات الفضاء؟
ألم يذهبوا إلى القمر ويعودوا إلى الأرض سالمين؟
ألا يعد هذا انتصاراً مبيناً في عالم الفضاء؟

أما أنه انتصار فذلك حق.
إنه من أعظم معجزات العقل الذي خلقه الله.
إنه من أكبر ثورات العلم الذي منحه الله.
ومن ثم فلا تناقض، وسيمضي عمالقة العلماء قدماً إلى قمم العلم وشواهقه، ولن يكون هناك تناقض.
والجواب عن هذه الشبهة من وجوه:

أولاً:

إن القرآن لم يقل يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تصلوا إلى

(١) الرحمن: ٣٣ - ٣٥.

القمر فصلوا، أو إن استطعتم أن تصعدوا فاصعدوا حتى يقال - وقد وصلوا أو صعدوا - إن القرآن لا يناقض الإنجازات العلمية التي حققها الإنسان في رحلاته إلى الفضاء وإنما قال القرآن: ﴿إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنفُذُوا﴾.

ثانياً:

إن المراد بالنفاذ في الآية الخروج. ولذا استعمل القرآن معها كلمة ﴿من﴾ ورواد الفضاء لم يخرجوا وإنما صعدوا. والآية موضوع الاستدلال لم تنف الصعود. وإنما تنفي النفاذ. ومعنى الآية والله أعلم: «إن قدرتم أن تخرجوا من جوانب السموات والأرض فاخرجوا لا تقدرون على النفاذ إلا بقوة وقهر وأنى لكم ذلك؟[1] ولا سلطان إلا لصاحب السلطان.

ثالثاً:

إن كلمة ﴿أقطار﴾ في الآية قد أضيفت إلى السموات والأرض. وما دام الإنسان قد غاص في بحار الأرض ومناجمها واستخرج لآلئها ومعادنها، ولم يقل أحد إنه خرج من أقطارها فكذلك لا يقال لمن وصل إلى القمر وصعد إلى السماء إنه خرج من أقطارها.

رابعاً:

إن في صعود الإنسان إلى السماء يبسط سلطانه على الفضاء ويجدد طريقه إلى الكواكب للانتفاع - إتماماً لنعمة الله في قوله:

---

(١) تفسير القرآن الكريم للبيضاوي.

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[1]

ففي وضع السماء تجاه الأرض وإطلاق حكم واحد عليهما دليل على: تشابه التسخير.. وتقارب التذليل.. وإمكان الوصول.

يقول رئيس الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة[2]:

« ومما يدل على إمكان الصعود إلى الكواكب قوله سبحانه في سورة الجن فيما أخبر به عنهم:

﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[3]

فإذا كان الجن قد أمكنهم الصعود إلى السماء حتى لمسوها، وقعدوا منها مقاعد فكيف يستحيل ذلك على الإنسان في هذا العصر الذي تطور فيه العلم والاختراع حتى وصل إلى حد لا يخطر ببال أحد »[4].

خامساً:

يقول د. عبد المحسن صادح:

إن المعنى العميق الكامن في الآية الكريمة يتركز في كلمة واحدة فيها فصل الخطاب.. تلك هي كلمة: أقطار.

فما هي أقطار السموات؟ وما حدودها؟

---

(١) الجاثية: ١٣.

(٢) الشيخ عبد العزيز عبدالله بن باز.

(٣) الجن: ٨ - ٩.

(٤) من مطبوعات الجامعة الإسلامية - ١٦ - ص ١٣.

ماذا يعني الوصول إلى القمر؟ أو إلى كل كواكب المجموعة الشمسية بالنسبة لنا؟

إن القمر الذي وصل إليه الإنسان يقع من أرضنا على مسافة مائتين وأربعين ألف ميل [٢٤٠٠٠٠] وتلك بمعايير المسافات الكونية ليست شيئاً مذكوراً، ولا في أقطار السموات أمراً كبيراً، ومع هذا أخذت هذه المسافة من المال والجهد والعرق والوقت والتطور في المعدات والأجهزة الشيء الكثير. فالصاروخ الذي استخدم في إرسال الرواد بلغ طوله ثمانية ومائة متر [١٠٨] وبلغ وزنه ثلاثمائة طن. وقد دفعت هذه الكتلة الجبارة خمس نفاثات.

فكم يتكلف كوكب الزهرة الذي يبعد عنا خمسة وعشرين مليون ميل؟
وكم يتكلف كوكب المريخ الذي يبعد عنا خمسة وثلاثين مليوناً ميلاً؟

إن الإنسان قد يتجول في المستقبل بين كواكب عائلته الشمسية، لكن ليس معنى هذا أنه جاب أقطار السماء أو غزا نهاية المحيط الفضائي.

إن قطر مجرتنا يبلغ نحو مائة ألف سنة ضوئية وسمكها نحو عشرة آلاف سنة ضوئية.
[السنة الضوئية تساوي ستة ملايين ملايين ميل تقريباً].

فلو قارنا قطر المجرة بقطر المجموعة الشمسية الذي لا يزيد على إحدى عشرة ساعة ضوئية أدركنا كم هي ضئيلة أقطار الفراغات التي تدور فيها كواكبنا مع شمسها بالنسبة لنا.
ولا نسبة بين هذا وقطر مدار القمر حول الأرض الذي لا يتجاوز ثلاث ثوان ضوئية.

فإذا كان قطر مجرتنا - التي نسكن في جزء جد ضئيل من تكوينها - يبلغ مائة ألف سنة ضوئية فما بالنا بأقطار السموات التي لا يعلم مداها إلا الله عز وجل »[١].

فإذا بلغ الإنسان اليوم من العلم بحيث يضع قدميه على القمر . فليس ذلك إلا خطوة قصيرة من مسيرة طويلة للعلم في مسابح هذا العالم الذي لا حدود له »[٢].

مكانة الرسول بين المرسلين

قال الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۖ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾[٣]

وقال:

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۢ ۘ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ ۖ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَـٰتٍۢ ۚ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾[٤]

تشير الآية الأولى إلى تفضيل الله بعض النبيين على بعض كما تنبه على فضل داود وشرفه.

---

(١) مجلة قافلة الزيت العدد الثامن المجلد ٢١ - أغسطس ١٩٧٣ م.

(٢) نظرات في سورة الرحمن لعبد الكريم الخطيب ص ٥٥.

(٣) الإسراء: ١٥٧

(٤) البقرة: ٢٥٣

وتخبر الآية الثانية بأن الله فضل بعض الرسل على بعض ولا خلاف في أن أولي العزم منهم أفضلهم.

وقد بينت الآية وجه التفضيل وهو التكليم وإيتاء البينات وكلاهما من آيات الله، وإنما خص هذان النبيان بالذكر في باب التفضيل لما أوتيا من عظيم الآيات. وهذا دليل على أن من زيد تفضيلاً بالآيات فقد فضل على غيره.

وقد أوتي محمد صلى الله عليه وسلم من الآيات ما لم يؤت أحد في كثرتها وعظمتها.

(١) عموم رسالته

قال تعالى:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (١)

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (٢)

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (٣)

فالآيات تدل على أن رسالته صلى الله عليه وسلم عامة شاملة لا تخص شعباً دون شعب، ولا جنساً دون جنس فلئن أرسل كل رسول في قومه خاصة فلقد أرسل صلى الله عليه وسلم للناس كافة.

---

(١) سبأ: ٢٨.

(٢) الأنبياء: ١٠٧.

(٣) الأعراف: ١٥٨.

٢) خلود معجزته

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ (١)

﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ (٢)

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ (٣)

تدل الآيات على أنها رسالة كاملة لا نقص فيها خالدة مستمرة لا يلحقها تبديل ولا تغيير، ولا تقبل ترقيعاً بنظريات مستوردة من هن أو هناك بل إنها ناسخة لما قبلها، تقوم على أسس ومبادىء عامة صالحة لكل زمان ومكان وقد حفظها الله في الصدور والسطور معاً.

والذكر آيــة ربـك الكـبرى الــتي
فيهـــــا لباغي المعجزات غنـــــاء
نسخـــت بـه التوراة وهي وضيئـة
وتخلـــف الإنجيـــل وهو ذكـــاء

(٣) ختمه للنبوات

قال تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ (٤)

---

(١) المائدة: ٣.

(٢) الأنعام: ٣٨.

(٣) الحجر: ٩.

(٤) الأحزاب: ٤٠.

فمحمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء أكمل الله به صرح النبوات، وأتم به الرسالات يقول صلى الله عليه وسلم:

«إن مثلي ومثل الأنبياء قبلي كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون، ويتعجبون له، ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين» البخاري.

فما دامت رسالته عامة للناس جميعاً. وما دامت خالدة تسري مع الأجيال فهي خاتمة ليس بعدها رسالة.

فكل من ادعى النبوة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو كاذب، ومن صدقه في دعواه فهو كافر.

فالبهاء دجال والبهائيون كفرة..

والقادياني دجال والقاديانيون كفرة..

باعوا ضمائرهم للاستعمار فكانوا صنائعه. حين عجز المبشرون عن أن يحدثوا في جدار الإسلام الصخري شيئاً قالوا: لن يقطع الشجرة إلا غصن منها فاتخذوا هؤلاء العبيد.

أسماؤهم إسلامية وأعمالهم إلحادية.

وقد حذر منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال:

«إنه سيكون في أمتي ثلاثون كذاباً كلهم يدعي أنه نبي وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق، لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك».

(٤) احتفاؤه بالعقل

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ (١)

﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ (٢)

ورد في الحديث أن بلالاً جاء يُؤذن النبي صلى الله عليه وسلم بصلاة الصبح، فرآه يبكي، فسأله عن سبب بكائه. فقال: ويحك يا بلال. وما يمنعني أن أبكي، وقد أنزل علي في هذه الليلة ﴿إِنَّ في خَلْقِ ٱلسَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْض﴾ الآية. ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها. رواه ابن أبي الدنيا.

﴿قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (٣)

في هذا تقدير للعقل، ودعوة صريحة إلى التأمل في آيات الله، والنظر في آفاق الكون، وندبه إلى البحث والتفكير.

وقد ذم الذين لا يتفكرون ولا ينظرون فقال:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ (٤)

---

(١) سبأ: ٤٦.
(٢) آل عمران: ١٩٠.
(٣) يونس: ١٠١.
(٤) يوسف: ١٠٥.

ومع إفساح المجال للعقل فما أقل علمه ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (١)

وما أولاه بطلب المزيد منه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ (٢)

(٥) خيرية أمته

قال تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ (٣)

يخبر الله عن الأمة المحمدية بأنهم خير الأمم لاستمساكهم بالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله.

روي عن عمر أنه قال: من سره أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها.

ومن لم يتصف بذلك أشبه أهل الكتاب الذين ذمهم الله بقوله:

﴿كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ (٤)

وقال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (٥)

---

(١) الإسراء: ٨٥.

(٢) طه: ١١٤.

(٣) آل عمران: ١١٠.

(٤) المائدة: ٧٩.

(٥) البقرة: ١٤٣ أنظر ابن كثير.

الوسط هنا: الخيار والأجود، كما يقال: قريش أوسط العرب نسباً وداراً أي خيرها، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم: وسطاً في قومه: أي أشرفهم نسباً، ومنه الصلاة الوسطى التي هي أفضل الصلوات وهي العصر كما ثبت في الصحاح وغيرها.

ولما جعل الله هذه الأمة وسطاً خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج، وأوضح المذاهب كما قال تعالى:

﴿هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ (١)

وقد خص رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصائص عديدة قال صلى الله عليه وسلم:

«أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس كافة.

فرفعه الله إلى مستوى من الكمال لم يساوه في علاه أحد.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى:

﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ﴾ (٢)

---

(١) الحج: ٧٨.

(٢) البقرة: ٢٥٣.

يقول الزمخشري:

وفي الإبهام تفخيم فضله، وإعلاء قدره لما فيه من الشهادة على أنه العلم الذي لا يشتبه، والمتميز الذي لا يلتبس.

ولئن كان ابراهيم أواها حليماً، واتخذه الله خليلاً

ولئن كان اسماعيل صادق الوعد وكان عند ربه مرضياً

ولئن كان موسى قوياً أميناً وكلمه الله تكليماً

ولئن كان عيسى مباركاً أينما كان

فسيدنا رسول الله جمع كل هذا وحاز كل الفضل فقد قال له ربه عز وجل:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (١)

ومن أدى عمل جميع المرسلين نال فضل جميع المرسلين، ولهذا نعته الله بقوله

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (٢)

يقول الإمام الرازي:

«احتج العلماء بهذه الآية - [٩٠] الأنعام - على أن رسولنا صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

(١) الأنعام: ٩٠

(٢) القلم: ٤

وتقريره: أنا بينا أن خصال الكمال وصفة الشرف، كانت مفرقة فيهم بأجمعهم، فداود وسليمان كانا من أصحاب الشكر على النعمة. وأيوب كان من أصحاب الصبر على البلاء. ويوسف كان مستجمعاً لهاتين الحالتين، وموسى عليه السلام كان صاحب الشريعة القوية القاهرة، والمعجزات الظاهرة، وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس كانوا أصحاب الزهد. واسماعيل كان صاحب الصدق، ويونس كان صاحب التضرع فثبت أنه تعالى إنما ذكر كل واحد من هؤلاء الأنبياء لأن الغالب عليه خصلة معينة من خصال المدح والشرف. ثم إنه تعالى لما ذكر الكل، أمر نبينا صلى الله عليه وسلم بأن يقتدي بهم بأسرهم. فكأنه أمر بأن يجمع من خصال العبودية والطاعة كل الصفات التي كانت مفرقة فيهم بأجمعهم، وهو معصوم عن مخالفة ما أمر به، فثبت أنه اجتمع فيه جميع ما تفرق فيهم من الكمال وثبت أنه أفضلهم»

ويقول الطوفي في الآية معرض الاستدلال:

«يحتج بهذا على أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم أفضل من جميع هؤلاء الأنبياء لأنه أمر بالاقتداء بجميعهم. والاقتداء بهم فعل مثل ما فعلوا، ولا بد أنه امتثل هذا الأمر وإلا كان عاصياً، وذلك لا يجوز. وحينئذ قد فعل وحده من الطاعة مثل ما فعل هؤلاء جميعهم والواحد إذا فعل مثل ما فعل الجماعة كان أفضل منهم.

يقول الطوفي:

«ويحكى أن هذه المسألة وقعت في زمن الشيخ عز الدين بن عبد السلام فأفتى بأنه عليه الصلاة والسلام أفضل من كل واحد منهم لا

أنه أفضل من جميعهم »[1]

لكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كره أن يفضل على أحد من إخوانه النبيين فهم جميعاً إخوة.

قال صلى الله عليه وسلم:

« لا تفضلوني على الأنبياء »

« ما ينبغي لأحد أن يقول إني خير من يونس بن متى »

« من قال أنا خير من يونس بن متى فقد كذب »

وإنما خص يونس بالذكر لأن الله نهاه أن يكون مثله في العجلة والغضب قال تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾[2]

وأمره أن يقتدي بأولى العزم. فقال:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾[3]

التوفيق بيـن آيات التفضيل وأحاديث النهي عنه

يستبين التوفيق بينها من وجوه:

أحدها: أن النهي عن التفضيل من باب الهضم والتواضع مع علمه بأنه

(١) الإشارات الإلهية
(٢) القلم: ٤٨
(٣) الأحقاف: ٣٥

أفضل الأنبياء لقوله صلى الله عليه وسلم: أنا سيد ولد آدم،

الثاني: أن النهي عن التفضيل قطعاً للتخاصم والتشاجر كما في مثل الحال التي تحاكموا فيها، ففي الصحيحين عن عن أبي هريرة قال: استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود، فقال اليهودي في قسم يقسمه: لا والذي اصطفى موسى على العالمين، فرفع المسلم يده، فلطم بها وجه اليهودي قائلاً: أي خبيث وعلى محمد صلى الله عليه وسلم، فجاء اليهودي إلى النبي فاشتكى على المسلم فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: لا تفضلوني على الأنبياء.

الثالث: لا تفضلوا بمجرد العصبية والرأي والهوى.

الرابع: ليس مقام التفضيل إليكم، وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به[1].

«وعندي أنه لا تعارض بين القرآن والسنة، فإن القرآن دل على فضل بعض أنبياء الله على بعض، وذلك لا يستلزم أن نفضل بعضهم على بعض»[2]

الرسول بشر.. ولكن..

إنه بشر..
كان صلى الله عليه وسلم
يتيماً يشعر بالضعفاء

---

(١) ابن كثير: ج ١ ص ٣١٦
(٢) فتح البيان لصديق خان ج ١ ص ٤١٦

فقيراً يأنس بالجماهير

شعبياً يأكل الطعام ويمشي في الأسواق

﴿وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ﴾ (١)

إنه بشر..

لا يخرج عن بشريته

﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ (٢)

إنه بشر..

ليس له من الأمر شيء ولا لأحد غيره

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ (٣)

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ (٤)

إنه بشر..

لا يملك لنفسه شيئاً

﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا

وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ (٥)

---

(١) الفرقان: ٧

(٢) الأنعام: ٩

(٣) آل عمران: ١٢٨

(٤) آل عمران: ١٥٤

(٥) الأعراف: ١٨٨

إنه بشر..

لكن اصطفاه الله

﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ (١)

لكن أوحى الله إليه

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ (٢)

لكنه يبلغ عن الله

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (٣)

لكنه شرح الله صدره ووضع عنه وزره ورفع ذكره

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ① وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ② ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ③ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ (٤)

لكن زوده الله بما لم يزود به غيره من البشر، فأسرى به وأنزل عليه الكتاب، وجعل له الوسيلة والمقام المحمود ولواء الحمد.

إنه بشر..

---

(١) الحج: ٧٥

(٢) الكهف: ١١٠

(٣) المائدة: ٦٧

(٤) الشرح: ١ - ٤

لكنه معصوم من الناس والشيطان

﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ (١)

﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا﴾ (٢)

إنه بشر..

لكنه رحمة مهداة

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٣)

إنه بشر..

لكنه نور من الله

﴿قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ (٤)

إنه بشر..

لكن طاعته من طاعة الله

﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (٥)

---

(١) المائدة: ٦٧
(٢) الجن: ٢٧
(٣) الأنبياء: ١٠٧
(٤) المائدة: ١٥
(٥) النساء: ٨٠

إنه بشر..

لكن في اتباعه محبة الله

﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ (١)

لكن أمرنا الله بالصلاة والسلام عليه وليس في الإكثار من الصلاة عليه تأليه له. كما زعم من أخلد إلى الأرض واتبع هواه(٢) - بل الإكثار من الصلاة عليه عبادة لله وطاعة فيها اتباع لهدى الله واستماع لأمر الله قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ (٣)

قال أبو العباس بن تيمية:

إن الله تعالى أوجب لنبينا صلى الله عليه وسلم على القلب.. واللسان.. والجوارح حقوقاً زائدة على مجرد التصديق بنبوته..

ومن حقه:

أن يكون أولى بالمؤمنين من أنفسهم

---

(١) آل عمران: ٣١

(٢) نشرت صحيفة الشهاب بعدد ٢٣ ربيع الأول ١٣٩٤ هـ حديثاً اشتمل على أن المسلمين وصلوا إلى تأليه الرسول محمد

(٣) الأحزاب: ٥٦

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾(١)

أن يكون أحب إلى المؤمن من نفسه وولده وجميع الخلق

﴿قُلۡ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمۡ وَأَبۡنَآؤُكُمۡ وَإِخۡوَٰنُكُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ وَعَشِيرَتُكُمۡ وَأَمۡوَٰلٌ ٱقۡتَرَفۡتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٞ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦ﴾(٢)

أن الله حرم التقدم بين يديه بالكلام حتى يأذن، وحرم رفع الصوت فوق صوته وأن يجهر له بالكلام كما يجهر الرجل للرجل، وأخبر سبحانه أن الذين ينادونه وهو في منزله لا يعقلون لكونهم رفعوا أصواتهم عليه ولم يصبروا حتى يخرج إليهم، وأخبر أن ذلك سبب حبوط أعمالهم. فهذا يدل على أنه يقتضي الكفر لأن العمل لا يحبط إلا به.

وأخبر سبحانه، أن الذين يغضون أصواتهم عنده هم الذين امتحنت قلوبهم للتقوى وأن الله يغفر لهم ويرحمهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ② إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ③ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلۡحُجُرَٰتِ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ④ وَلَوۡ

---

(١) الأحزاب: ٦

(٢) التوبة: ٢٤

﴿أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (١)

أنه - سبحانه - خصه بما يليق به فقال:

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ (٢)

فنهى الله أن يقول أحد من الناس: يا محمد أو يا أبا القاسم ولكن يقول: يا رسول الله، يا نبي الله.

ثم يقول ابن تيمية:

وكيف لا يخاطبه الناس بذلك والله سبحانه وتعالى أكرمه في مخاطبته إياه بما لم يكرم به أحداً من الأنبياء؟

فلم يدعه باسمه في القرآن بل يقول:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ﴾ (٣)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ (٤)

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ﴾ (٥)

---

(١) الحجرات: ٢ - ٤

(٢) النور: ٦٣

(٣) الأحزاب: ١

(٤) الأحزاب: ٤٥

(٥) الأنفال: ٦٤

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ (١)

مع أنه - سبحانه - قال للأنبياء قبله:

﴿وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ (٢)

﴿يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ (٣)

﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾ (٤)

﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ﴾ (٥)

﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ (٦)

﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾ (٧)

﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ (٨)

أنه سبحانه - رفع ذكره فأوجب ذكره:

---

(١) الأنفال: ٦٥

(٢) الأعراف: ١٩

(٣) هود: ٤٦

(٤) هود: ٧٦

(٥) الأعراف: ١٤٤

(٦) مريم: ١٢

(٧) ص: ٢٦

(٨) المائدة: ١١٠

في الشهادتين اللتين هما أساس الإسلام.

في الأذان الذي هو شعار الإسلام.

في الصلاة التي هي عماد الإسلام.

ولا تصح للأمة خطبة ولا تشهد حتى يشهدوا أنه صلى الله عليه وسلم عبده ورسوله[1].

ذلكم محمد رسول الله الذي تردد اسمه ملايين الألسنة والشفاه، وتصلي عليه ملايين القلوب والأفواه.

وضم الإله اسم النبي إلى اسمه إذا قال في الخمس المؤذن أشهد[2]

إنه بشر يوحي إليه..

فما ظاهرة الوحي..؟

ما كان محمد بدعاً من الرسل ولكنه كإخوانه المرسلين أوحى الله إليه كما أوحى إلى من سبقه.. قال تعالى:

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾[3]

وكما أن الجنين بعد نفخ الروح فيه ينشئه الله خلقاً آخر فكذلك

---

(١) الصارم المسلول في شاتم الرسول

(٢) البيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه

(٣) النحل: ٢

الأنبياء بعد اتصال الوحي بهم، وسريان روحه الجديدة في أرواحهم يتحولون بشراً آخرين، لا يدانيهم غيرهم أبداً في مجادة وإشراق »[1]

عن عائشة قالت: كان أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤياً إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء. فكان يخلو بغار حراء يتحنث فيه - وهو التعبد الليالي أولات العدد - قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك... فجاءه الملك فقال: اقرأ قال: قلت ما أنا بقارىء... قال: اقرأ باسم ربك الذي خلق... الآيات. فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ترجف بوادره حتى دخل على خديجة فقال زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع... فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل... وهو ابن عم خديجة... وكان شيخاً كبيراً قد عمي فقالت له خديجة: أي عم اسمع من ابن أخيك، قال ورقة يا ابن أخي ماذا ترى فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رآه فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى صلى الله عليه وسلم يا ليتني فيها جذعاً، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أو مخرجي هم؟ قال: نعم لم يأت رجل قط بما جئت به إلا عودي. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً »[2]

مادة الوحي في القرآن

إن المتتبع لهذه المادة يراها منسوبة إلى الله.. وإلى الإنسان.. وإلى

---

(١) فقه السيرة ص ٦٧

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ٩٧

الشيطان. ولها مدلولات متعددة تدور حول التفهيم والإعلام.

أولاً: في صدورها منسوبة إلى الشيطان تدل على وسوسته وتزيينه وإضلاله. قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾[1]

وقال: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾[2]

ثانياً: في صدورها منسوبة إلى الإنسان تدل على الإشارة والرمز قال تعالى في قصة زكريا:

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾[3]

ثالثاً: في صدورها من الله سبحانه تطلق على معان:

أ - الإلهام الغريزي إذا كان الإيحاء للحيوان كقوله تعالى:

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾[4]

---

(١) الأنعام: ١١٢
(٢) الأنعام: ١٢١
(٣) مريم: ١١
(٤) النحل: ٦٨

ب - الإلهام الفطري إذا كان الإيحاء للإنسان غير الرسول كقوله تعالى:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (١)

وقوله:

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (٢)

جـ - ما يلقيه الله من أمره إلى الملائكة ليفعلوه كقوله:

﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ﴾ (٣)

د - الإعلام الخفي السريع

للملائكة بتحمل الآيات ونقلها إلى الرسل قال تعالى:

﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ (٤)

للرسول بتحمل الآيات وعياً وحفظاً وتبليغاً قال تعالى:

﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَـٰرُونَ وَسُلَيْمَـٰنَ ۚ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ (٥)

---

(١) القصص: ٧

(٢) المائدة: ١١١

(٣) الأنفال: ١٢

(٤) النجم: ١٠

(٥) النساء: ١٦٣

صور الوحي

للوحي ثلاث صور جمعها الله في آية واحدة فقال تعالى:

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآئِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ (١)

فقد أشارت الآية إلى أن الاتصال الغيبي الخفي بين الله وأصفيائه له صور ثلاث:

إحداها: إلقاء المعنى في قلب النبي

إلهاماً كما روي: « نفث في روعي »

رؤياً في المنام كقوله: « رؤيا الأنبياء وحي » وهو كأمر ابراهيم بذبح ولده.

الثانية: تكليم النبي من وراء حجاب كما نادى موسى من وراء الشجرة(٢) وليس المراد حجاب الله تعالى لأن الله لا يجوز عليه ما يجوز على الأجسام من الحجاب، ولكن المراد به أن السامع محجوب عن الرؤية في الدنيا(٣)

---

(١) الشورى: ٥١

(٢) ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِن شَاطِئِ ٱلْوَادِ ٱلْأَيْمَنِ فِي ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَارَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ القصص: ٣٠.

(٣) النسفي حـ ٤ ص ١١٢

الثالثة: إرسال ملك فيلقي إلى النبي ما كلف إلقاءه[1]

فالوحي:

هو الصلة بين الله تعالى وبين رسله وأنبيائه لإعلامهم بأوامره ونواهيه وأحكامه وعظاته ورسالاته إلى عباده.

مخالفته للكشف:

والوحي بهذا المعنى يخالف الكشف والوجدان واللاشعور إلى غير ذلك من الألفاظ التي يحاول بها المستغربون تفسير ظاهرة الوحي عند الأنبياء.

ذلك لأن الحقائق الدينية، والأخبار الغيبية في ظاهرة الوحي تأبى الخضوع لهذه الأساليب اللاشعورية التي تستشف حجاب المجهول بالفراسة الذكية والحدس الباطني السريع مثلما تأبى الخضوع لمقاييس الحس الظاهرة التي تخترق حرمات المجهول بالأدلة المنطقية والاستنباط المتردي البطيء[2].

وقد رسم النبي صلى الله عليه وسلم طريقة نزول الوحي عليه حتى لا يترك سبيلاً للافتراء والحدس فقال: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت ما قال. وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول».

البخاري

---

(١) مباحث في علوم القرآن ص ٢٢ - ٢٥

(٢) النبأ العظيم: ٣٤

حكم تمثيل الرسول صلى الله عليه وسلم:

تمثيل الرسول صلى الله عليه وسلم حرام لا يجوز بنصوص القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع المسلمين. وكما لا يجوز تمثيله صلى الله عليه وسلم لا يجوز حضور تمثيله، ولا الموافقة عليه، ولا مساعدة مرتكبي ذلك بأي نوع من أنواع المساعدة.

الدليل على ذلك:

أولاً: من القرآن الكريم:

قال تعالى:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ (١)

ذكر علماء التفسير - رحمهم الله - أن هذه الآية نزلت في جماعة كانوا مع النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك.

قال بعضهم: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أجبن عند اللقاء.

وقال بعضهم: أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال ارجافاً وترهيباً للمؤمنين. وقال آخرون: أيرجو هذا أن تفتح له قصور الروم وحصونها، هيهات هيهات.

---

(١) التوبة: ٦٥ - ٦٦.

فأنزل الله الآية، فجاء هؤلاء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم يعتذرون ويقولون: إنما كنا نخوض، ونلعب، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق فلم يعذرهم بل قال لهم:

أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟ لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم.

من هذا يتبين أن الخوض في شخصية الرسول والتلاعب بسيرته صلى الله عليه وسلم كفر. وكيفما كان حديثهم جداً أو هزلاً فهو كفر. لأن الهزل بالكفر كفر.

ثانياً: من السنة النبوية:

روي أن الحكم بن أبي العاص كان يحاكي النبي صلى الله عليه وسلم في مشيته وبعض حركاته - أي كان يمثل النبي صلى الله عليه وسلم - وكان الحكم من مسلمة الفتح ومطلقيهم ذكروا أن النبي كان إذا مشى يتكفأ، وكان الحكم يحكيه - يمثله - فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم يوماً فرآه يفعل ذلك، فقال صلى الله عليه وسلم: فكذلك فلتكن فكان الحكم مختلجاً يرتعش من يومئذ.

وتمثيل الحكم للحركات النبوية والمشية النبوية إما أن يكون ذلك منه استهزاء برسول الله والرسالة.. ولو كان استهزاء لكان الحكم مرتداً وجزاء المرتد المستهزىء برسول الله والرسالة القتل بإجماع الأمة.

وإما أن يكون الحكم بتمثيله للحركات النبوية والمشية النبوية متلاعباً واكتفاء النبي صلى الله عليه وسلم بلعنه ونفيه دليل على اعتباره له يلعب ولذلك لم يقتله صلى الله عليه وسلم.

روي: أن أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم دخلوا عليه وهو يلعن الحكم ابن أبي العاص ونفاه صلى الله عليه وسلم من المدينة إلى الطائف.

روى الطبراني من حديث حذيفة بن اليمان:

لما ولي أبو بكر الصديق الخلافة كلم في الحكم أن يرده من الطائف إلى المدينة فقال: ما كنت لأحل عقدة عقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بهذه الأدلة يكون التمثيل برسول الله والرسالة لعب واللعب بذلك حرام كما أن الممثل يتخيل ويكذب في كلامه على الذين يمثلهم:

يكذب عليهم قولاً فيما تخيل أنهم قالوه..

ويكذب عليهم عملاً في محاكاة حركاتهم وتصويرهم للناس في حركات أعضائه من قيام وقعود وضحك وبكاء.

والممثل للرسول يكون كاذباً على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي الحديث المتواتر: «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»

ثالثاً: الإجماع

لقد صح إجماع الأمة على أن من يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو عاص لله ولرسوله، مخالف لكتاب الله وسنة نبيه، عليه اللعنة وله العذاب قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا﴾ (١)

(١) الأحزاب: ٥٧

ومثل الرسول صلى الله عليه وسلم متلاعب متاجن مفتر عليه كذاب، يستهين بحقه صلى الله عليه وسلم.

أليس في التمثيل ادعاء تقمص شخصية الممثل وبلوغ درجته؟

ومن هذا الذي يتقمص شخصيته صلى الله عليه وسلم ويبلغ درجته؟

إنه ادعاء فاجر يستحق صاحبه عليه ما على العصاة من اللعن والطرد والعقوبة.

ما نسب إليهم في القرآن

جاء في القرآن الكريم ما يوهم ظاهره نسبة المعصية إلى رسل الله مما ينافي العصمة الواجبة لهم.. ولبيان ذلك وتوجيهه الوجهة التي تليق بمنزلة الرسول وعظمة الرسالة يتناول البحث ما نسب لكل نبي تبرئة لساحته من افتراءات المبطلين:

١ - آدم عليه السلام

يقول الله سبحانه: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[١]

ظاهر ذلك أن آدم عصى ربه بمخالفة أمره، وخرج عن الرشد. والعصيان قد يكون عمداً فيكون ذنباً، وقد يكون خطأً أو نسياناً فيكون زلة ولذا قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا﴾[٢]

---

(١) طه: ١٢١

(٢) البقرة: ٣٦

ومما يدل على أن العصيان لم يكن قصداً قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ (١)

أي نسي عهد الله الذي وصاه به حين ارتكب ما نهاه عنه، ولم يوجد له عزم على ذلك، ولا قصد إلى الخلاف لأمره تعالى.

ومن ثم فلا مؤاخذة، لأن الله لا يؤاخذ على الخطأ والنسيان بدليل قوله سبحانه:

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (٢)

﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ (٣)

« وإنما اعتبر القرآن النسيان عصياناً نظراً لمقام آدم من ربه الذي خلقه بيده.. ونفخ فيه من روحه.. وأسجد له ملائكته.. وأسكنه جنته وعلمه الأسماء كلها. والذي شأنه هكذا يجب أن يكون يقظاً كأقوى ما تكون اليقظة بحيث لا ينسى وصاية الله له، وعهده إليه، فهذا من باب حسنات الأبرار سيئات المقربين »

٢ – إبراهيم عليه السلام

جاء في دعائه لربه قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ (٤)

---

(١) طه: ١١٥

(٢) الأحزاب: ٥

(٣) البقرة: ٢٨٦

(٤) الشعراء: ٨٢

قيل هو قوله:

إِنِّي سَقِيمٌ [1]

بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ [2]

هي أختي لسارة زوجته

أخرج البخاري في كتاب الأنبياء باب قوله تعالى:

وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا [3]

حديث ١١١٣

ما نصه:

عن أبي هريرة قال:

لم يكذب ابراهيم إلا ثلاث كذبات:

ثنتين منهما في ذات الله عز وجل: قوله: إني سقيم، وقوله: بل فعله كبيرهم هذا وقال:

بينا هو ذات يوم وسارة إذ أتى على جبار من الجبابرة فقيل له: إن ههنا رجلاً معه امرأة من أحسن الناس. فأرسل إليه فسأله عنها فقال: من هذه؟ قال: أختي.

---

(١) الصافات: ٨٩

(٢) الأنبياء: ٦٣

(٣) النساء: ١٢٥

فأتى سارة قال: يا سارة ليس على وجه الأرض مؤمن غيري وغيرك. وإن هذا سألني فأخبرته أنك أختي فلا تكذبيني.

فأرسل إليها، فلما دخلت عليه ذهب يتناولها بيده، فأُخذ. فقال: ادعي الله ولا أضرك. فدعت الله فأُطلق. ثم تناولها الثانية، فأخذ مثلها أو أشد فقال: ادعي الله لي، ولا أضرك. فدعت فأطلق فدعا بعض حجبته فقال:

إنكم لم تأتوني بإنسان، إنما أتيتموني بشيطان، فأخدمها هاجر، فأتته وهو قائم يصلي، فأومأ بيده: مهيا.

فقالت: رد الله كيد الكافر (أو الفاجر) وأخدم هاجر.

قال أبو هريرة: تلك أمكم يا بني ماء السماء[1].

والحق أن هذه معاريض جائزة وليست خطايا

وقيل: هو قوله: ﴿هَٰذَا رَبِّي﴾[2]

---

(١) كان في طي تلك البلية - يعني أخذ الجبار سارة من إبراهيم - أن أخدمها هاجر فولدت إسماعيل لإبراهيم عليهما السلام، فكان من ذرية اسماعيل خاتم النبيين فأعظم بذلك من خير كان في طي تلك البلية﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾

وقد قيل:

كم نعمـــــة مطويـــــة
لـــك بـــين أثنـــاء المصائـــب

محاسن التأويل جـ ٢ ص ٣٣٤

(٢) الأنعام: ٧٨

في الكوكب والقمر والشمس، ولا يليق بإبراهيم خليل الله أن يقول ذلك.

ويرد على هذا الوهم بأن ابراهيم عليه السلام قال ذلك من باب التدرج مع قومه في إثبات وجود الله عز وجل بطريقة تربوية منطقية يشهد لذلك.

أولاً: أن الله مدحه بسعة العلم وقوة اليقين قبل آيات المناقشة فقال:

﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ﴾ (١)

ثانياً: قال تعالى في شأنه بعد غلبة حجته وانتصاره:

﴿وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ (٢)

وفي ذلك تزكية لطريقته، وقبول لها فكيف تكون خطيئة؟

ثالثاً: أضفى عليه ربه من صفات الكمال ما هو جدير به فاتخذه خليلاً:

﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا﴾ (٣)

اصطفاه واختاره:

﴿وَلَقَدِ ٱصۡطَفَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (٤)

---

(١) الأنعام: ٧٥
(٢) الأنعام: ٨٣
(٣) النساء: ١٢٥
(٤) البقرة: ١٣٠

جعله أمة وحده:

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (١)

وطلب الأنبياء المغفرة من ربهم ليس لخطيئة بالمعنى الذي يتبادر إلى الذهن، ويسرع إلى الخاطر ولكنه تواضع منهم لربهم، وهضم لأنفسهم، وتعليم للأمم في طلب المغفرة.

٣ - يوسف عليه السلام

جاء في قصة يوسف مع امرأة العزيز قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا﴾ (٢)

ومع قصر العبارة، وقلة حروفها فقد نسج حولها الخيال من الافتراءات ما يصم عصمة الكريم ابن الكريم ابن الكريم ويوهم أنه أراد الفاحشة. والذي يرتضيه البحث أن المراد بالهم هنا: الهم بالضرب والأذى يدل على ذلك:

أولاً: أن كل هم في القرآن إنما يقصد به الهم بالأذى كالضرب والقتل.

﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ﴾ (٣)

---

(١) النحل: ١٢٠

(٢) يوسف: ٢٤

(٣) غافر: ٥

﴿وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا﴾ (١)

ثانياً: أن سياق القصة يقبله

ذلك أن المرأة العزيز غلقت الأبواب، ودعته إلى نفسها ، فأبى قائلاً:

﴿مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢)

وحين تأبى عليها أحد فتيانها، وامتنع عن إجابتها، وهي السيدة المطاعة الآمرة الناهية في قصرها، رأت ذلك ذنباً لا يغفره كبرياؤها فهمَّتْ به بطشاً وانتقاماً لغريزتها المهانة، وكرامتها الممتهنة. وهمَّ يوسف أن يقابل الشر بالشر والضرب بمثله، لولا أن رأى بثاقب فكره وإلهام ربه أن ذلك لا يليق في دار آوته، ومع سيدة تبنته، فآثر الفرار تفادياً من القتال، وأسرع نحو الباب لكنها أبت إلا أن تتابعه لتثأر لنفسها.

﴿وَاسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ﴾ (٣)

ثالثاً: أن الله أتاه العلم والحكمة:

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤)

---

(١) التوبة: ٧٤

(٢) يوسف: ٢٣

(٣) يوسف: ٢٥

(٤) يوسف: ٢٢

رابعاً: أن الله صرف عنه السوء الوافد عليه، والفحشاء الموجهة إليه من خارج نفسه، فقد كان عليه السلام مخلصاً لله في طاعته، مستخلصاً لرسالته:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوٓءَ وَالْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (١)

يقول أبو السعود في هذه الآية:

إنها بينة قوية وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية، ولا توجه إليها قط، وإلا لقيل: لنصرفه عن السوء والفحشاء وإنما توجه إليه ذلك من خارج نفسه فصرفه الله عنه بما فيه من موجبات العفة.

ويقول الإمام الرازي في براءة يوسف من الاتهام:

«إن الذين لهم تعلق بهذه الواقعة:

يوسف.. والمرأة.. وزوجها.. والشهود، ورب العالمين.. وإبليس.
وكلهم قال ببراءة يوسف، وطهارة ساحته فلم يبق مجال لمرتاب.
أما يوسف فلقوله:

﴿هِىَ رَٰوَدَتْنِى عَن نَّفْسِى﴾ (٢)

وقوله: ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ (٣)

---

(١) يوسف: ٢٤
(٢) يوسف: ٢٦
(٣) يوسف: ٣٣

وأما المرأة فلقولها:

﴿وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ﴾ (١)

وقولها:

﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ (٢)

وأما زوجها فلقوله:

﴿إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ ۖ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـٰذَا ۚ وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ ۖ
إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ﴾ (٣)

وأما الشهود فلقوله تعالى:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾
وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّـٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ
مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ﴾ (٤)

أما شهادة الله عز وجل فقوله تعالى:

﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ (٥)

---

(١) يوسف: ٣٢

(٢) يوسف: ٥١

(٣) يوسف: ٢٨ - ٢٩

(٤) يوسف: ٢٦ - ٢٨

(٥) يوسف: ٢٤

أما إقرار إبليس فلقوله:

﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (١)

وقد قال تعالى:

﴿إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ (٢)

وإذن فقد أقر إبليس بأنه لم يغوه عليه السلام.

وعندئذ نقول لهؤلاء الذين نسبوا إليه المعصية.

إن كانوا من أتباع دين فليقبلوا شهادة الله بطهارته.

وإن كانوا من أتباع إبليس فليقبلوا إقرار إبليس بطهارته.

٤ - موسى عليه السلام

قال الله تعالى في حقه:

﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ ۖ فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ۝١٥ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (٣)

---

(١) ص: ٨٢ - ٨٣

(٢) يوسف: ٢٤

(٣) القصص: ١٥

من هذه الآيات يتبين أن موسى ضرب القبطي ضربة أصابت منه مقتلاً، وما كان يقصد قتله، وإنما كان يقصد الإغاثة فوقع القتل منه خطأ، يشهد لذلك قوله عليه السلام:

﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ (١)

أي الجاهلين بأنها تبلغ مقتلاً. وقد سبق أن الخطأ لا مؤاخذة فيه إلا من حيث عدم التحري، والدقة في التقدير.

ولذا لجأ إلى ربه طالباً المغفرة فقبل الله عذره، وغفر له صنيعه.

٥ - داود عليه السلام

يقول الله تعالى في حقه

﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ
مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا
تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ
نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ
وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ
وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (٢)

---

(١) الشعراء: ٢٠

(٢) ص: ٢١ - ٢٥

الذي تدل عليه الآيات، وتشير إليه دون تحريف لها، وتأويل لظاهرها.

أولاً: فزعه من تسور الخصمين المحراب، ودخولهما عليه وهو في يوم عبادته، وخوفه على نفسه أن يغدرا به كما هي عادة بني اسرائيل بأنبيائهم، ومثل هذا لا يليق بنبي الله وهو ماثل بين يديه، مسلم له وجهه.

ثانياً: تعجله في الحكم، وتسرعه في القضاء بعد سماع الدعوى دون أن يسمع للطرف الآخر، وذلك مخالفة في نظر الخطاب وسواء كان هذا أو ذاك يسمع للطرف الآخر. وذلك مخالفة في نظر القضاء ما كان يليق بنبي الله داود الذي أعطاه الله الحكمة وفصل الخطاب وسواء كان هذا أو ذاك فقد ظن داود أنه مختبر بما وقع له. فاستغفر ربه. وخر راكعاً وأناب.

٦ - سليمان عليه السلام

قال الله تعالى في حقه:

﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ (١)

ليس في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يفسر هذا الابتلاء الذي وقع فيه سليمان. لكن أخرج البخاري حديثاً فيه ما يصلح تفسيراً عن طريق الإيماء لا التصريح وهذا نصه: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة كل واحدة تأتي بفارس يجاهد في سبيل الله، ولم يقل

---

(١) ص: ٣٤ - ٣٥

إن شاء الله ، فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة ، جاءت بشق رجل . والذي نفسي بيده لو قال إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً أجمعون »

فجائز أن يكون هذا الوليد الشق هو الجسد الذي أُلقي على كرسيه . يقول الإمام الألوسي :

« إن الملك قال له : قل إن شاء الله ، فلم يقل ، وغايته ترك الأولى فليس بذنب ، وإن عده هو عليه السلام ذنباً ، فالمراد بالجسد ذلك الشق الذي ولد له ، ومعنى إلقائه على كرسيه وضع القابلة له عليه ليراه . فلما رأى سليمان ذلك رجع إلى الله بالاستغفار .

٧ - محمد صلى الله عليه وسلم :

قال الله تعالى في حقه :

﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ ﴾ (١)

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (٢)

الآية الأولى فيها أمر للرسول بالاستغفار من ذنبه .

والآية الأخرى فيها مغفرة الله لنبيه ما تقدم وما تأخر من ذنبه .

فأي ذنب وقع من الرسول صلى الله عليه وسلم وهو المعصوم ؟

يتتبع البحث ما في كتاب الله من عتب للرسول ليكشف حقيقة الأمر .

---

(١) محمد : ١٩

(٢) الفتح : ١ - ٢

١ - قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١)

قال مجاهد:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار في أسرى بدر فقال المسلمون بنو عمك افدهم، وقال عمر: لا يا رسول الله اقتلهم.

هكذا استشار الرسول أصحابه، واجتهد حيث لم يوح إليه شيء في ذلك، ثم أخذ الفداء، وكان ٱلأَوْلَى أن ينكل بالأعداء.

فعدم إصابته ما هو أحسن عدّ ذنباً لمنزلته عند الله، ومكانته لديه.

٢ - قال تعالى:

﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ (٢)

في الآية عتب للرسول صلى الله عليه وسلم حيث أذن في القعود عن الغزو لمن اعتذر دون أن يستأني ليكشف الصادق في عذره والكاذب، وقد

---

(١) الأنفال: ٦٧

(٢) التوبة: ٤٣

صدر الخطاب بالعفو وفي هذا ما يدل على أن هذا الإذن الصادر منه صلى الله عليه وسلم كان خلاف الأولى.

٣ - قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (١)

كانت التقاليد في الجاهلية تقضي بتحريم زواج زوجة المتبنى مثل تحريم زوجة الابن من النسب، وشاء الله أن يبطل هذا التقليد في الإسلام، فأمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالزواج من زينب بنت جحش بعد أن يطلقها متبناه زيد بن حارثة، لكن الرسول قال لزيد: أمسك عليك زوجك حين عرض عليه أن يطلقها.

وفي ذلك تحرج من مخالفه التقاليد، وإخفاء لأمر زواجه منها كما أراد الله ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ من أمر زواجك منها ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ أي قالة الناس إنه نكح امرأة ابنه.

ذلك ما يقتضيه ظاهر الآية ومنطوقها، ويساير عصمة الأنبياء، ومنزلة الرسول الكريم.

أما أن نفسه كانت تجفو عنها قبل زواجها، ثم رآها بعد الزواج فتعلق

---

(١) الأحزاب: ٣٧

قلبه بها وأخفى هذا الحب، فذلك دس رخيص من ذوي النفوس المريضة من المستشرقين وغيرهم يكذبه قوله تعالى:

﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ في أَزْوَاجِ أَدْعِيائِهِمْ﴾

٤ - قال الله تعالى:

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ (١)

عن عائشة قالت: أنزلت في ابن أم مكتوم الأعمى، أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فجعل يقول: يا رسول الله أرشدني، وعند رسول الله رجال من عظماء المشركين فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يعرض عنه، ويقبل على الآخرين، فنزلت الآيات. ومن ثم كان يلقاه الرسول صلى الله عليه وسلم قائلاً: أهلاً بمن عاتبني فيه ربي ومن لطف العتاب أن الأسلوب جاء بصيغة الغيبة لا الخطاب.

٥ - افتراء مفضوح

زعم المبطلون أن الرسول صلى الله عليه وسلم مدح الأوثان فقال:

تلك الغرانيق العلا.. وإن شفاعتهن لترتجى

زعموا أنه صلى الله عليه وسلم وضعها في سورة النجم مقحمة وسط الآيات التي جاء فيها ذكر الأصنام، فأصبحت هكذا:

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩

وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠

---

(١) عبس: ١ - ٢

تِلْكَ ٱلْغَرانِيقُ ٱلْعُلا وَأَنَّ شَفاعَتَهُنَّ لَتُرْتَجَى.

أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾
إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن
سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ (١)

وتلك قصة باطلة بالنقل والعقل.

وجوه النقل:

أولاً: أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يقول في القرآن إلا عن الله عز وجل

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ (٢)

ثانياً: أن الله نفى عنه أن يفتري غير ما أوحى إليه:

وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا (٣)

جاء في أسباب النزول للواحدي ص ١٩٦:

قال سعيد بن جبير: قال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: لا

---

(١) النجم: ٣ - ٤

(٢) الإسراء: ٧٣

(٣) النجم: ١٩

نكف عنك إلا بأن تلم بآلهتنا ولو بطرف أصابعك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ما علي لو فعلت، والله يعلم أني بار فأنزل الله الآية.

ثالثاً: أن الله أثبت له صلى الله عليه وسلم العصمة والثبات على الحق، ونفى عنه مقاربة الركون والميل اليسير إليهم:

﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ (١)

رابعاً: أن الله يتهدده لو قارب الركون إليهم بالعذاب المضاعف في الحياة والممات فكيف يمتدح آلهتهم؟

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (٢)

قال الرازي: حاصل الكلام أنك لو مكنت خواطر الشيطان من قلبك، وعقدت على الركون همك لاستحققت تضعيف العذاب عليك في الدنيا والآخرة، ولصار عذابك مثلي عذاب المشرك في الدنيا، ومثلي عذابه في الآخرة.

خامساً: أن الله أخبر أنه صلى الله عليه وسلم لو كذب على الله باختلاق كلام عليه لقطع عنقه:

﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا

---

(١) الإسراء: ٧٤

(٢) الإسراء: ٧٥

مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ [1]

يقول الزمخشري: « والمعنى: لو ادعى علينا شيئاً لم نقله لقتلناه صبراً كما يفعل الملوك بمن يتكذب عليهم معالجة بالسخط والانتقام... وهو أن يؤخذ بيده وتضرب عنقه »[2].

وجوه العقل:

أولاً: إن بناء الكلام على تلك الصورة يكون تخليطاً سخيفاً، وتناقضاً عجيباً إذ كيف يصف الأوثان بالأخرى وهي صفة ذم أي المتأخرة الوضيعة القدر ثم يصفها بالغرانيق العلا؟

كيف يقول إن شفاعتهن لترتجى ثم يقول: إنها أسماء لا حقيقة لها وخرافات مبتدعة؟

هذا كلام لا يصدر عن عاقل فضلاً عن أن ينزل به وحي حكيم.

ثانياً: كيف يمتدح الرسول صلى الله عليه وسلم الأوثان ورسالته تقوم على التوحيد وتحطيم الأوثان؟

ثالثاً: لو جاز ذلك وأن الشيطان ألقى بها على لسانه لارتفع الأمان عن شرع الله وجاز مثله في كل موضع.

رابعاً: لو جاز ذلك لانتفى الحفظ الذي وعد الله به في قوله:

---

(١) الحاقة: ٤٤ - ٤٧

(٢) الكشاف ج ٤ ص ١٣٧

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (١)

يشهد لكل هذا ما ثبت عن الأئمة الأعلام:
قال إمام الأئمة ابن خزيمة: إن هذه القصة من وضع الزنادقة
وقال الرازي: هذه القصة باطلة موضوعة لا يجوز القول بها.
وقال القاضي عياض في الشفاء: إن الأمة أجمعت على أن الرسول صلى الله عليه وسلم معصوم من الإخبار عن شيء بخلاف ما هو عليه لا قصداً ولا سهواً ولا غلطاً.

« والذي جاء في الصحيح أن الرسول قرأ سورة النجم في محفل يضم مسلمين ومشركين وخواتيم هذه السورة قوارع تطير لها القلوب.. فلما أخذ صوت الرسول يهدر بها، ويرعد بنذرها حتى وصل إلى قول الله:

وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ
مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ
تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٢)

كانت روعة الحق قد صدعت العناد في نفوس المستكبرين والمستهزئين فما تمالكوا أن يخروا لله ساجدين مع غيرهم من المسلمين.

فلما نكسوا على رؤوسهم، وأحسوا أن جلال الإيمان لوى

---

(١) الحجر: ٩

(٢) النجم: ٥٣ - ٦١

زمامهم، ندموا على ما كان منهم، وأحبوا أن يعتذروا عنه بأنهم ما سجدوا مع محمد إلا لأن محمداً عطف على أصنامهم بكلمة تقدير [كذا]، وليس يستغرب هذا من قوم يؤلفون النكت للضحك من المسلمين. ولا يستحي أحدهم. وهو ابن خال النبي - أن يقول له ساخراً: أما كلمت اليوم من السماء يا محمد؟

وليس أسمج من اعتذار المشركين عن سجودهم إلا تصديق هذا الاعتذار.

وقد حاول المشركون أن ينشروا فريتهم هذه ليعكروا على الرسول، ويشوشوا على الوحي، وليوهموا بأن محمداً في بعض أحيانه مال إليهم. وهيهات فإن الحرب التي شنها محمد على الوثنية لم تزدها الليالي إلا ضراماً، ولم تزد من عبيدها إلا خصاماً»[1].

ولا صلة بين هذه الفرية وبين قول الله تبارك وتعالى:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[2]

«هناك من النص ذاته ما يستبعد معه أن يكون سبب نزول هذه الآية شيئاً كهذا وأن يكون مدلوله حادثاً مفرداً وقع للرسول صلى الله عليه وسلم. فالنص يقرر أن هذه القاعدة عامة في الرسالات كلها مع الرسل كلهم.. فلا بد أن يكون المقصود أمراً

---

(١) فقه السيرة ص ٨٩

(٢) الحج: ٥٢

عاماً يستند إلى صفة في الفطرة مشتركة بين الرسل جميعاً بوصفهم من البشر، مما لا يخالف العصمة المقررة للرسل.

فالرسل عندما يكلفون حمل الرسالة إلى الناس، يكون أحب شيء إلى نفوسهم أن يجتمع الناس على الدعوة، وأن يدركوا الخير الذي جاءوهم به من عند الله فيتبعوه... ولكن العقبات في طريق الدعوات كثيرة، والرسل بشر محدودو الأجل، وهم يحسون هذا ويعلمونه فيتمنون لو يجذبون الناس إلى دعوتهم بأسرع طريق.. يودون مثلاً لو هادنوا الناس فيما يعز على الناس أن يتركوه من عادات وتقاليد وموروثات فيسكتوا عنها مؤقتاً لعل الناس أن يفيئوا إلى الهدى، فإذا دخلوا فيه أمكن صرفهم عن تلك الموروثات العزيزة!.. يودون مثلاً لو جاروهم في شيء يسير من رغبات نفوسهم رجاء استدراجهم إلى العقيدة، على أمل أن تتم فيما بعد تربيتهم الصحيحة التي تطرد هذه الرغبات المألوفة !

ويودون. من مثل هذه الأماني والرغبات البشرية المتعلقة بنشر الدعوة وانتصارها.. ذلك على حين يريد الله أن تمضي الدعوة على أصولها الكاملة، وفق موازينها الدقيقة، ثم من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر...

ويجد الشيطان في تلك الرغبات البشرية، وفي بعض ما يترجم عنها من تصرفات أو كلمات فرصة للكيد للدعوة، وتحويلها عن قواعدها، وإلقاء الشبهات حولها في النفوس، ولكن الله يحول دون كيد الشيطان، ويبين الحكم الفاصل فيما وقع من تصرفات وكلمات. ويكلف الرسل أن يكشفوا للناس عن الحكم الفاصل. وعما يكون قد وقع منهم من خطأ في اجتهادهم للدعوة. كما حدث في بعض تصرفات الرسول صلى الله عليه وسلم وفي بعض اتجاهاته مما بين الله فيه بياناً في القرآن.

بذلك يبطل الله كيد الشيطان، ويحكم الله آياته، فلا تبقى شبهة في الوجه الصواب ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ فأما الذين في قلوبهم مرض من نفاق أو انحراف، والقاسية قلوبهم من الكفار المعاندين فيجدون في مثل هذه الأحوال مادة للجدل واللجاج والشقاق:

﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ﴾ (١)

وأما الذين أوتوا العلم والمعرفة فتطمئن قلوبهم إلى بيان الله وحكمه الفاصل

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسۡتَقِيمٍ﴾ (٢)

وفي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم، نجد أمثلة من هذا تغنينا عن تأويل الكلام».

من ذلك قصة ابن ام مكتوم.. وقصة زينب بنت جحش.

«ومنه أيضاً ما رواه مسلم في صحيحه.. عن سعد بن أبي وقاص قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ستة نفر، فقال المشركون للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا.

قال: وكنت أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما. فوقع في نفس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شاء الله أن يقع. فحدث نفسه، فأنزل الله عز وجل:

﴿وَلَا تَطۡرُدِ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ (٣)

(١) الحج: ٥٣
(٢) الحج: ٥٤
(٣) الأنعام: ٥٢

وهكذا رد الله للدعوة قيمها المجردة، وموازينها الدقيقة، ورد كيد الشيطان فيما أراد أن يدخل من تلك الثغرة. ثغرة الرغبة البشرية في استمالة كبراء قريش بإجابة رغبتهم في ألا يحضر هؤلاء الفقراء مجلسهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقيم الدعوة أهم من أولئك الكبراء، وما يتبع إسلامهم من إسلام الألوف معهم وتقوية الدعوة في نشأتها بهم. كما كان يتمنى رسول الله صلى الله عليه وسلم، والله أعلم بمصدر القوة الحقيقية، وهو الاستقامة التي لا ترعى هوى شخصياً ولا عرفاً جارياً.»[1].

مفتريات يهودية

يقول الله تعالى:

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا﴾[2]

في هذه الآية:

(١) اعتراف اليهود بقتل المسيح.
(٢) شهادة الله برسالة عيسى تنويهاً بذكره.
(٣) نفي قتل المسيح وصلبه.
(٤) إثبات أن القتيل ليس عين المسيح.

---

(١) في ظلال القرآن ص ٢٤٣٣
(٢) النساء: ١٥٧

(٥) دمغ المختلفين في شأن عيسى بالارتياب والجهل.
(٦) تأكيد نفي القتل.

وهذا ما قاله الطوفى حول هذه الفرية عند قوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾

قال: اختلف أهل الملل في قتل المسيح وصلبه:
ادعاه اليهود والنصارى
وأنكره المسلمون.

أما اليهود فادعوه على جهة التشفي بالمسيح حيث بدل دين التوراة وأحل السبت ونحو ذلك.

وأما النصارى فادعوه على جهة المرتبة للمسيح، والتشنيع على اليهود بقتل داع إلى الحق.

واحتجوا بأن التواتر ثابت بين اليهود والنصارى والمجوس على قتل المسيح وصلبه قبل ظهور الإسلام، وهو سبب العداوة بين اليهود والنصارى، وبأن قتل المسيح ثابت في الإنجيل المتواتر.

واحتج المسلمون بوجهين:

أحدهما:

أن نفي قتل المسيح ثابت في القرآن المعصوم، وكل ثابت في القرآن المعصوم فهو حق معصوم، فنفي قتل المسيح حق معصوم. أما أن نفي قتله ثابت في القرآن فلهذه الآية ﴿وَمَا قَتَلُوه﴾ وأما أن القرآن معصوم فلقيام البرهان على أنه كلام الله عز وجل وكلام الله عز وجل معصوم. وأما أن ما ثبت في المعصوم معصوم فلأنه جزء من المعصوم، وجزء المعصوم معصوم.

فثبت بذلك نفي قتل المسيح فلو ثبت قتله مع ذلك لاجتمع النقيضان، وأنه محال.

الوجه الآخر:

أن قتل المسيح لو ثبت لتواتر كتواتر مولده ودعواه التي ادعاها، واللازم باطل فالملزوم كذلك.

بيان الملازمة:

ان قتل المسيح بعد ظهور أمره، وانتشار دعوته، وظهور الخوارق على يده أمر شنيع جداً في العقول والطباع، كما أن ولادته من غير أب أمر غريب في العادات والعقول، فلو كان لقتله أصل لوجب اشتهاره اشتهاراً مساوياً لولادته. ولو اشتهر كذلك لتواتر كتواتره لقضاء العادات بتواتر المشهورات.

بيان انتفاء اللازم:

أنه لو تواتر قتله كتواتر مولده لما اختلف فيه كما لم يختلف في مولده لكن الخلاف وقع في قتله، ولم يقع في مولده ودعوته.. فدل على أن قتله لم يتواتر، وإلا كان أحد المتواترين المتساوين في القوة مختلقاً فيه دون الآخر وهو محال.

حاصل الدليل:

أن تواتر قتله لازم لقتله، واللازم منتف والقتل منتف.

الجواب عن شبهتهم:

قولهم التواتر ثابت بين الملل الثلاث على قتل المسيح.

قلنا :

إنما يحتج بالتواتر إذا كان داعيه متفقاً ، وليس كذلك ههنا .

لأن داعي اليهود إلى إثباته التشفي بالمسيح .

وداعي النصارى إلى إثباته التعدي على اليهود والتشنيع عليهم .

أما داعي المجوس إلى إثباته فيحتمل أنه التقليد للطائفتين . ويحتمل أنه السخرية بهم .. ويحتمل استدراجهم إلى الضلال ..

فهذا التواتر مركب الداعي محتمل للباطل فلا يسمع .

ولو سلمنا ثبوت التواتر بينهم لكن لا نسلم أنه على قتل المسيح ، بل على قتل شخص ظن الراءون أنه المسيح ، ولا يلزم من ذلك أنه عين المسيح لاحتمال أنه شبه لهم كما جزم به القرآن ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ويدل على تحقيق ذلك أن في الإنجيل أنهم لما أخذوا المسيح ليقتلوه أظلم الوجود من الساعة الثالثة من النهار إلى الساعة التاسعة حتى ظن الناس أن الساعة قد قامت ففي هذه المدة المزعجة ألقى شبح المسيح ، إما على أحد تلاميذه وأحبائه منحة له ، وفداء للمسيح به ، أو على عدوه يهوذا الأسخريوطي الذي دل عليه ، وأسلمه كيداً له ، ومكراً به فقتل ، وعرج بالمسيح .

وهذا الاحتمال لا ينفي أبداً ، وما لم ينتف لا تتم حجتهم ، ولا تسلم من كدورات الظن ، فلا يعتمد عليها في مقام القطع .

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً﴾

هذا يحتمل أنه نفي ليقين القتل

ويحتمل أنه يقين لنفي القتل وهو المراد[١]

---

(١) الإشارات الإلهية

هذا هو الفكر اليهودي الذي اجترأ على الله

فقالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ (١)

وقالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾ (٢)

فتهددهم الله وتوعدهم:

﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ (٣)

ودعا عليهم ولعنهم:

﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ﴾ (٤)

قد اجترأ على أنبياء الله، فاستحل دماءهم:

﴿كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ﴾ (٥)

ووقع في أعراضهم:

قالوا: على مريم بهتاناً عظيماً

ورد الله عليهم بأن مريم حَصانٌ، مصدقة. قانتة.

---

(١) آل عمران: ١٨١

(٢) المائدة: ٦٤

(٣) آل عمران: ١٨١

(٤) المائدة: ٦٤.

(٥) المائدة: ٧٠

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ (١)

كما وصموا داود بالاغتصاب والزنا وتدبير قتل أوريا.

ودفعهم الله فذكر القرآن داود بالإعزاز والتكريم والثناء.

﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٧ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ١٨ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ١٩ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ (٢)

هؤلاء أولاد صهيون ينشرون الفساد في الأرض، فجحدوا نعم الله، وقتلوا أنبياء الله، وادعوا قتل عيسى، وحاربوا محمداً صلى الله عليه وسلم. يسجل القرآن كفرهم:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ - بموسى -

﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ حين عبدوا العجل

﴿ثُمَّ ءَامَنُوا۟﴾ بعد عودة موسى

﴿ثُمَّ كَفَرُوا۟﴾ بعيسى

﴿ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا﴾ بكفرهم بمحمد ﷺ

---

(١) التحريم: ١٢

(٢) ص: ١٧ - ٢٠

لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا (١)

مفتريات نصرانية:

قال الله تعالى:

لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢)

إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ (٣)

ادعى النصارى في الآية الأولى أن المسيح هو الله..

وغالطوا في الآية الثانية حيث قالوا: إن المسلم والمسيحي التقيا في كون المسيح كلمة الله، وروح الله بشهادة القرآن.

وهذا افتراء ومغالطة أرادوا بهما البلبلة والتضليل.

يقول الطوفى:

«واعلم أنهم قرروا هذه الدعوى بأن قالوا:

---

(١) النساء: ١٣٧

(٢) المائدة: ١٧

(٣) النساء: ١٧١

كلمة الله عز وجل في هيكل المسيح، وكلمة الله لا تنفك عن ذات الله، فهيكل المسيح لا ينفك عن ذات الله بواسطة الكلمة الحالة فيه.

وهذه المقدمات كلها باطة من وجوه:

أولاً:

﴿كَلِمَتُهُ﴾ عند المسلمين: أن الله خلقه بكلمته وهي [كن] التي يخلق بها وخص عيسى بتسميته كلمة الله تشريفاً نحو ناقة الله، وبيت الله.

ومعناها عند النصارى: كلمة الله الحقيقية التي هي صفة النطق حلت في مريم واستحالت لحماً ودماً حتى تكوّن منها عيسى وهذا محال:

لأن انتقال صفة الكلام مجردة عن محلها إلى غيره محال.

لأن حلول الصفة القديمة في المحل الحادث وهو مريم محال.

لأن استحالة القديم وتغيره إلى لحم ودم محال.

ثانياً:

﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ ومعناها عند المسلمين:

ما حكى في سورة الأنبياء[1] وغيرها من تعرض الملك لها ونفخه في فمها أو جيب درعها حتى حملت بالمسيح.

ومعناها عند النصارى: حلول الكلمة القديمة في مريم.

---

(١) التي أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا/٩١.
ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا التحريم/ ١٣

ثالثاً:

﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ معناها عند المسلمين: أنه روح مخلوق خاص سلكه الله في المسيح، له قوة إظهار الخوارق والتعدي إلى الغير لتصوير الطين ضرباً من الطير.

ومعناها عند النصارى: أنه روح من ذات الله عز وجل وبه كان المسيح إلهاً عندهم، وهو المسمى روح القدس وهو صفة الله القديمة يعني حياته.

والجواب:

أن [منه] ههنا لابتداء الغاية لا للتبعيض كقوله عز وجل:

﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ (١)

أي ابتداؤه منه ومن فضله وكذلك [روح منه] أي الله عز وجل مبدأ هذا الروح خلقاً لئلا يظن قدمه.

يقول الإمام البخاري:

« قالت النصارى عيسى روح الله من ذات الله وكلمته من ذات الله، كما يقال: إن هذه الخرقة من هذا الثوب.

وقلنا نحن: إن عيسى بالكلمة كان، وليس عيسى هو الكلمة.
وأما قول الله [وروح منه] يقول من أمره كان الروح فيه، كقوله:
﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جميعاً مِنْهُ﴾

---

(١) الجاثية: ١٣

يقول من أمره.

وتفسير روح الله إنما معناه بأنها روح بكلمة الله خلقها له، كما يقال عبد الله ومن ثم حكم الله على النصارى بالكفر والخروج عن حدود الله.

وقد رد القرآن الكريم هذه الأباطيل، وفند هذه الدعاوى وأبطلها بردود:

أولاً:

﴿فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ (١)

وتقريره:

لو كان الله هو المسيح بن مريم لامتنع عليه إهلاكه، واللازم باطل فالملزوم كذلك.

بيان الملازمة:

إن الله عز وجل لو كان هو المسيح لكانا ذاتا واحدة قديمة إذ القديم لا يقبل العدم والهلاك ولا التأثر بوجه.

بيان انتفاء اللازم:

إن الله عز وجل قادر على إهلاك من في الأرض جميعاً بل جميع العالم، فعلى إهلاك المسيح وحده أولى. وإذا كان قادراً على إهلاكه لزم أنه ليس هو الله عز وجل، لأن إهلاك المسيح مقدور، وإهلاك الله عز وجل نفسه غير مقدور ينتج أن المسيح ليس هو الله.

---

(١) المائدة: ١٧

ثانياً:

﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ﴾ (١)

قيل لمن زعم إلهية المسيح: إن المسيح نفسه لن يستنكف، ولا يأنف من الإقرار بالعبودية فأنتم - يا نصارى - في تنزيهه عنها فضولية.

وقد أعلنها المسيح فقال:

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمۡ﴾ (٢)

فهذا اعتراف منه بأنه عبد مربوب، وقد نطق الإنجيل الذي بأيدي النصارى بمثل هذا.

وحينئذ يقال: المسيح مربوب، ولا شيء من المربوب بإله. فالمسيح ليس بإله أما الأولى فبنص القرآن، وأما الثانية فبالاتفاق.

لكن النصارى زعموا أن المربوب ناسوته لا لاهوته، فلا ينتج الدليل المذكور إلا سلب الإلهية عن الناسوت لا عن جملة المسيح.

وجوابه:

أن النص دل على مربوبية المسيح، والمسيح هو مجموع الجملة المركبة من كثيفه ولطيفه، وذلك ينفي أن يكون فيه لطيف غير مربوب، فينتفي أن يكون فيه شيء من اللاهوت، على أن دعوى حلول اللاهوت فيه باطلة ممنوعة.

---

(١) النساء: ١٧٢

(٢) المائدة: ٧٢

ثالثاً:

﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ (١)

يقول الطوفى:

اعلم أن هذه الجملة تضمنت نفي إلهية المسيح خلافاً للنصارى، وإثبات رسالته خلافاً لليهود.

والاستدلال ههنا بقوله: ﴿كَانَا- يعني هو وأمه- يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

وهذا كناية عن شيئين:

أحدهما:

أنهما كانا يفتقران إلى أكل الطعام للبنية، وكل مفتقر إلى ذلك فليس بإله. ينتج: أنهما ليسا بإلهين.

الثاني:

أنهما كانا يحتاجان إلى الخلاء وقضاء الحاجة، وكل من احتاج إلى ذلك فهو حادث، وكل حادث فليس هو بقديم، وكل من ليس بقديم، فليس هو بإله، ينتج: أنهما ليسا بإلهين.

وقد جعل ابن كثير احتجاج النصارى بقوله تعالى:

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ﴾ (٢)

---

(١) المائدة: ٧٥

(٢) النساء: ١٧١.

من زيغ قلوبهم، واتباع المتشابه ابتغاء الفتنة، لأنهم تعلقوا بهذه، وتركوا الاحتجاج بالصريح المحكم كقوله تعالى:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾[1]

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[2]

فهذه وأمثالها[3] صريحة في أنه خلق من خلق الله، وعبد ورسول من رسل الله.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[4]

فإذا جاز ادعاء النبوة في عيسى لكونه مخلوقاً من غير أب فجواز ذلك في آدم بالطريق الأولى، وذلك باطل بالاتفاق، فدعواه في عيسى أشد بطلاناً وأظهر فساداً.

---

(١) الزخرف: ٥٩

(٢) ال عمران: ٥٩

(٣) من المحكم الذي لا اشتباه فيه قوله تعالى:

﴿وإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ سورة البقرة: ١٦٣
﴿إِنَّنِي أَنَا اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ أَنَا فَٱعْبُدْنِي﴾ سورة طه: ١٤
﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ سورة المؤمنون: ٩١
﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي ٱلْمُلْكِ﴾ سورة الفرقان: ٢
﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾ سورة الإخلاص: ٣ - ٤

(٤) مريم: ٣٤ - ٣٥

وإنما أراد الله أن يظهر قدرته لخلقه حين:

خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى.

وخلق حواء من ذكر بلا أنثى.

وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر.

كما خلق البرية من ذكر وأنثى[1]

ذلك هو الحق يكشف صفحة القوم، وتلبيسهم، وباطلهم فماذا بعد الحق إلا الضلال؟!

مفتريات مشتركة:

أولاً:

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾[2]

هذه الآية تجمل الفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ، فليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح، بل مقولة اليهود في عزير:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٥٥

(٢) البقرة: ١١٦

(٣) التوبة: ٣٠

كما أنها تشمل مقولة المشركين أيضاً في الملائكة

وقد رد القرآن هذا الادعاء الباطل من وجوه:

(١) أن الله نزه نفسه عن ذلك بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ﴾

(٢) أن الله أثبت لنفسه ملك السموات والأرض، فكل ما فيها مملوك له وحده، خاضع لعظمته، خاشع لجلاله، يقر بالعبودية له.

يقول ابن كثير:

ليس الأمر كما افتروا، وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم، وهو خالقهم، ورازقهم. ومسخرهم. ومسيرهم، ومصرفهم كما يشاء. والجميع عبيد له. وملك له فكيف يكون له ولد منهم؟[١].

(٣) أن الولد إنما يكون متوالداً من شيئين متناسبين، وهو تبارك وتعالى ليس له نظير، ولا كفاء، وليس له صاحبة فكيف يكون له ولد؟

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[٢]

---

(١) ص ١٦٤

(٢) الأنعام: ١٠١

(٤) أنها مقالة منكرة. وداهية فظيعة تنفطر لها السموات، وتنشق لها الأرض، وتنهد منها الجبال، فالكون كله يغضب لبارئه، وهو يحسُّ بتلك الكلمة تصدم كيانه، وتجافي ما وقر في ضميره، وما استقر في فطرته. قال تعالى:

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا (١)

(٥) أنها مجرد دعوى ليس لهم عليها برهان، يوافقون فيها عبدة الأوثان في قولهم: اللات والعزى ومناة بنات الله.

ذَٰلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ

(٦) أن الله دعا عليهم بالهلاك لهذا الاجتراء قال تعالى:

قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ (٢)

(٧) قال البخاري في تفسيره: عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

---

(١) مريم: ٨٨ - ٩٥

(٢) التوبة: ٣٠

قال الله تعالى: كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك.

فأما تكذيبه إياي فيزعم أني لا أقدر أن أعيده كما كان.
وأما شتمه إياي فقوله: إن لي ولداً، فسبحاني أن اتخذ صاحبة أو ولداً.

وفي الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله، إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافيهم».

ثم يوجه الله رسوله الكريم إلى قول يقوله لهم، ثم يدعهم لمصيرهم:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ ۝٨١ سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝٨٢ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ (١)

يقول الواحدي في أسباب النزول ص٢٠
«نزل قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ﴾

في مشركي العرب حيث قالوا: الملائكة بنات الله.
ويهود الحجاز إذ قالوا: عزير بن الله.

---

(١) الزخرف: ٨١ - ٨٣

ونصارى نجران حيث قالوا: المسيح بن الله.

وقد رد الله سبحانه على هؤلاء

بالتنزيه في قوله: سُبْحَٰنَهُۥ

وبالملكية العامة في قوله: بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وبالعبودية العامة لكل من عداه في قوله: كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ

وبالمخلوقية العامة لكل من عداه في قوله: بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ

وبالقدرة الشاملة والإرادة النافذة التي لا تحتاج في نفاذها إلى شيء من تصورات الإنسان الخاصة التي يستوحيها من أحواله الخاصة وذلك إذ يقول:

وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ (١)

ثانياً:

قال الله تعالى:

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ (٢)

أثبتت اليهود لأنفسها ما أثبتت لعزير حيث قالوا: عزير بن

---

(١) البقرة: ١١٦ - ١١٧.

(٢) المائدة: ١٨

الله وأثبتت النصارى لأنفسها ما أثبتت للمسيح حيث قالوا: المسيح بن الله وقيل الكلام على حذف مضاف، والتقدير: نحن أتباع أبناء الله. وهكذا أثبتوا لأنفسهم أنهم أحباء الله بمجرد الدعوى الباطلة، والأماني العاطلة.

ويرد القرآن عليهم من وجوه:

(١) أن الله يعذبهم على ما يقترفون من الذنوب بالقتل والمسخ والنار في الآخرة باعترافهم حيث يقولون: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً﴾ والابن من جنس أبيه، لا يصدر عنه ما يستحيل على الأب.

(٢) أن الله أثبت أنهم بشر من جنس من خلق الله يحاسبهم، ويجازيهم.

(٣) أن من يملك السموات والأرض يستحيل أن يكون له شبيه من خلقه أو شريك في ملكه.

(٤) أن شأن الألوهية أعز مما يهدف به الجهلة من ولادة واتصال وإنسال.

ثالثاً:

قال الله تعالى:

﴿وَقَالُوا۟ كُونُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ تَهْتَدُوا۟ ۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (١)

(١) البقرة: ١٣٤

قال ابن عباس رضي الله عنهما نزلت الآية في رؤساء اليهود كعب بن الأشرف وغيره، وفي رؤساء نصارى نجران السيد والعاقب وأصحابهما، وذلك أنهم خاصموا المؤمنين في الدين، فكل فريق يزعم أنه أحق بدين الله، وقد رد القرآن هذا الادعاء الباطل الذي لا يقوم على حق، وإنما يقوم على التعنت المرذول - من وجوه:

(١) أن ابراهيم أبا الأنبياء لم يكن يهودياً ولا نصرانياً، وإنما كان مائلاً عن الأديان كلها إلى الدين المستقيم وهو الإسلام:

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (١)

(٢) أن الهدى ملة ابراهيم الحنيف المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الحق.

﴿بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ (٢)

(٣) أن في نفس الشرك عن ابراهيم تعريضاً باليهود لقولهم: عزير بن الله وبالنصارى لقولهم المسيح بن الله.

(٤) أنه حين ادعت كل طائفة أن ابراهيم كان على ملتها دفعهم بعدم التعقل والتفكر. فقال:

---

(١) آل عمران: ٦٧

(٢) البقرة: ١٣٥

﴿وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [1]

(٥) أن دين الله واحد، فلا تفرقة ولا تعصب، وأن جميع الكتب التي أنزلت على الأنبياء من عند الله.

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [2]

(٦) أن الاهتداء ليس في اليهودية ولا النصرانية ولكن في الإيمان بجميع كتب الله ورسله دون تفرقة بين أحد منهم.

﴿فَإِنْ ءَامَنُوا۟ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا هُمْ فِى شِقَاقٍ ۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [3]

(٧) القربى في ميزان الله ليست وشيجة لحم ودم ولكنها وشيجة دين وعقيدة.

ومن ثم يقرر الله هذه القاعدة الكبرى في عهده لإبراهيم بالإمامة فيعلن أن استحقاقها بالإيمان والعمل لا بوراثة من قرابة ونسب.

﴿قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾

---

(١) آل عمران: ٦٥
(٢) البقرة: ١٣٦
(٣) البقرة: ١٣٧

قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي
قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ [1]

وهذا قاطع في إبعاد اليهود عن القيادة والإمامة بفسقهم وفسادهم.

---

(١) البقرة: ١٢٤

الباب الثالث

الغيبيات والقدر

الفصل الأول: اليوم الآخر
الفصل الثاني: القدر

الفصل الأول

اليوم الآخر

أسماؤه - أشراطه - أوله وآخرة - وقت وقوعه.

أسماؤه:

لليوم الآخر أسماء كثيرة كلها تدل على ما يحدث فيه أو الغاية منه وتلك بعضها:

الساعة: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [1]

الغاشية: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [2]

الحاقة: ﴿الْحَاقَّةُ ① مَا الْحَاقَّةُ ② وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾ [3]

الطامة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَىٰ﴾ [4]

الصاخة: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ﴾ [5]

يوم الدين: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑰ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ⑱ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [6]

---

(١) سميت القيامة بالساعة لسرعة حسابها أو لأنها عند الله على طولها كساعة من الساعات عند الخلق. الحج: ١

(٢) الغاشية: الداهية التي تغشى الناس بأهوالها. الغاشية: ٣

(٣) الحاقة: التي يحق فيها، ويظهر ما أنكر من البعث والحساب والجزاء. الحاقة: ١ - ٣

(٤) الطامة: الداهية التي تطم وتعلو على سائر الدواهي. النازعات: ٣٤

(٥) الصاخة: التي تصم الآذان من شدتها. عبس: ٣٣ (٦) الانفطار: ١٧ - ١٩

يوم الخلود:

﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ﴾ (١)

يوم التلاق:

﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾ يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَ ۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ ۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ (٢)

أشراطه:

قال الله تعالى:

﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ﴾ (٣)

يقول سيد قطب:

« ماذا ينتظر هؤلاء الغافلون الذين يدخلون مجالس رسول الله صلى الله عليه وسلم ويخرجون منها غير واعين، ولا حافظين، ولا متذكرين؟ ماذا ينتظرون؟ فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة؟ فتفجأهم وهم سادرون. غافلون ».

---

(١) ق: ٣٤

(٢) غافر: ١٥ - ١٦

(٣) محمد: ١٨

هل ينتظرون إلا الساعة؟ فقد جاء أشراطها، ووجدت علاماتها والرسالة الأخيرة أضخم هذه العلامات، فهي إيذان بأنها النذارة الأخيرة قرب الأجل المضروب. وقد قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم:

« بعثت أنا والساعة كهاتين » وأشار بأصبعيه السبابة والتي تليها. وإذا كان الزمن يلوح ممتداً منذ هذه الرسالة الأخيرة فإن أيام الله غير أيامنا، ولكنها في حساب الله قد جاءت الأشراط الأولى، وما عاد لعاقل أن يغفل حتى تأخذه الساعة بغتة حيث لا يملك صحواً ولا ذكراً »[1].

لليوم الآخر - إذاً - علامات: صغرى وكبرى.

فمن الصغرى:

أولاً: أن يكون السادة من أولاد السراري حيث تلد الجارية بنتاً أو ابناً من سيدها، والولد بمنزلة أبيه في السيادة عليها.

ثانياً: أن يصير أهل البداوة والرعي أصحاب ثراء عريض، وترف ظاهر، وقصور عالية.

جاء في حديث جبريل عن الشيخين:

قال: فأخبرني عن الساعة.

قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل.

قال: فأخبرني عن أماراتها

قال: أن تلد الأمة ربتها..

---

(١) في ظلال القرآن ص ٣٢٩٥

وأن ترى الحفاة العراة العالة[١] رعاء[٢] الشاء[٣] يتطاولون في البنيان.

ثالثاً: كثرة الأموال في أيدي الناس. وزيادتها حتى تفيض.

رابعاً: ظهور الفتن العمياء التي لا تبقي على آصرة ولا قرابة ولا جوار.

خامساً: وقوع القتل وكثرته في الناس كما يحدث في الحروب المدمرة. أخرج ابن ماجة بسند صحيح عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«لا تقوم الساعة حتى يفيض المال. وتظهر الفتن. ويكثر الهرج. قالوا: وما الهرج يا رسول الله؟

قال: القتل القتل القتل»

سادساً: إسناد الأمور لغير أهلها. وذلك بعدم وضع الرجل المناسب في المكان المناسب. وتلك ظاهرة تبدو في واقع الناس كثيراً. أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: متى الساعة؟

فقال: إذا ضيعت الأمانة فانتظر الساعة.

قال: وكيف إضاعتها؟

قال: إذا أسند الأمر لغير أهله فانتظر الساعة.

---

(١) العلة: بفتح اللام جمع عائل. وهم الفقراء

(٢) رعاء: بكسر الراء جمع راع. ويجمع على رعة

(٣) الشاء: جمع شاة.

ومن الكبرى:

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1]

في هذه الآية إشارة إلى أن دابة ستخرج تتكلم فتقول: ﴿أنَّ النّاسَ كَانُوا بآياتنا لا يُوقنُون﴾.

متى يكون ذلك؟ عند مقاربة وقوع ما وعد الناس به من قيام الساعة. وظهور أشراطها. وحين لا تنفع التوبة.

وتلك علاماتها الكبرى:

أولاً: طلوع الشمس من المغرب.

أخرج أبو داود ومسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

« إن أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها. وخروج الدابة على الناس ضحى. وأيتهما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على أثرها قريباً »

ثانياً: ظهور الدابة تكلم الناس، وتكليمها للناس متناسق مع مشاهد السورة ففيها:

---

(١) النمل: ٨٢

نملة تتكلم:

﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ (١)

هدهد يتكلم:

﴿فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (٢)

جن يتكلم:

﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾ (٣)

فكما نسب القول إلى هؤلاء نسب الكلام إلى الدابة على هذا النحو: وحسبنا أن نقف عند النص القرآني والحديث الصحيح.

ثالثاً: خروج المسيح الدجال.

وهو شخص موجود معين ابتلى الله به عباده بما يجري على يديه من عجائب، وما يصنع من خوارق العادات حيث يأمر السماء أن تمطر فتمطر، والأرض أن تنبت فتنبت، يجيء ومعه مثل الجنة والنار يفتن به بعض الضالين، ويثبت الله الذين آمنوا، فلا يغترون به، ولا يخدعون بما معه.

وسمي المسيح لأنه يمسح الأرض ويقطعها في أربعين يوماً، ولأنه ممسوح العين اليمنى، والدجال الكذاب.

---

(١) النمل: ١٨

(٢) النمل: ٢٢

(٣) النمل ٣٩

ولهذا حذرت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم من فتنته، ونبهوا على نقصه، ودلائل إبطاله.

أخرج الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع استنصت الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم ذكر المسيح الدجال فأطنب في ذكره، وقال:

ما بعث الله من نبي إلا أنذره أمته، وإنه يخرج فيكم، فما خفي عليكم من شأنه، فليس يخفى عليكم أن ربكم ليس بأعور، وأنه أعور العين اليمنى كأن عينه عنبة طافية».

وأخرج الشيخان عن حذيفة رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال:

إن الدجال يخرج وإن معه ماء ونارا.
فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق.
وأما الذي يراه الناس نارا فماء بارد عذب.
فمن أدرك ذلك منكم، فليقع في الذي يراه نارا، فإنه ماء عذب طيب.

رابعاً: نزول عيسى عليه السلام قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ (١)

قال ابن كثير: آية الساعة خروج عيسى قبل يوم القيامة

---

(١) الزخرف: ٦١

وقال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[١]

قال ابن جرير:

اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم:

يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون بعيسى إذا نزل لقتل الدجال. فتصير الملل كلها واحدة. وهي ملة الإسلام الحنيفية دين ابراهيم.

وقال قتادة وغيره:

إن الله رفع إليه عيسى. وهو باعثه قبل يوم القيامة مقاماً يؤمن به البر والفاجر.

وقال ابن كثير: قال الحسن: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لليهود:

إن عيسى لم يمت. وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة.

وأخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً[٢]

---

(١) النساء: ١٥٨

(٢) بحكم شريعة الإسلام الخالدة فإنها لا تنسخ بل يكون عيسى على ملة محمد صلى الله عليه وسلم

مقسطاً. فيكسر الصليب[١] ويقتل الخنزير[٢] ويضع الجزية[٣] ويفيض المال[٥]، حتى لا يقبله أحد. حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها. ثم قال أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم:

﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾[٤]

وأخرج أحمد عن جابر رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال:

يخرج الدجال في خفقة[٥] من الدين، وإدبار من العلم، فله أربعون ليلة

---

(١) قال البدر العيني المراد من كسر الصليب إظهار كذب النصارى حيث ادعوا أن اليهود صلبوا عيسى على خشب. فأخبر الله تعالى كذبهم فقال: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وذلك أنهم لما نصبوا له خشبة ليصلبوه عليها ألقى الله شبه عيسى على الشخص الذي دلهم عليه وصلبوه مكانه، ورفع عيسى إلى السماء. ثم تسلطوا على أصحابه بالقتل والصلب حتى بلغ أمرهم إلى ملك الروم. فأرسل إلى المصلوب. فوضع عن جذعه. وجيء بالجذع الذي صلب عليه. فعظمه صاحب الروم. وجعلوا منه صلباناً. فمن ثم عظمت النصارى الصلبان. فكسر عيسى للصليب حين ينزل، إشارة إلى كذبهم في دعوى الصلب. وإلى إبطال دينهم.

(٢) يقتل الخنزير لحرمة اقتنائه وأكله. لأنه نجس العين لا ينتفع به شرعاً.

(٣) لا يقبل من أهل الكتاب إلا الإسلام. لأن قبول الجزية في شريعتنا مؤقت بنزول عيسى عليه السلام.

(٤) تكثر الخيرات بسبب العدل. وتقل رغبة الناس فيه لعلمهم بقرب الساعة. اهـ الدين الخالص للشيخ محمود خطاب السبكي.

(٥) أي ضعف من الدين وقلة لأهله.

يسيحها في الأرض. اليوم منها كسنة، واليوم منها كشهر، واليوم منها كجمعة، ثم سائر أيامها كأيامكم هذه...

فيقول للناس: أنا ربكم، وهو أعور وإن ربكم ليس بأعور... فيفر المسلمون إلى جبل الدخان بالشام، فيأتيهم فيحاصرهم، فيشتد حصارهم ويجهدهم جهداً شديداً، ثم ينزل عيسى بن مريم، فينادي من السحر. فيقول: يا أيها الناس، ما يمنعكم أن تخرجوا إلى الكذاب الخبيث؟ فيقولون: هذا رجل جني، فينطلقون، فإذا هم بعيسى بن مريم صلى الله عليه وسلم فتقام الصلاة فقال له: تقدم يا روح الله. فيقول ليتقدم إمامكم، فليصل بكم، فإذا صلوا صلاة الصبح، خرجوا إليه، فحين يرى الكذاب ينماث [١] كما ينماث الملح في الماء، فيمشي إليه فيقتله، حتى إن الشجرة والحجر ينادي يا روح الله هذا يهودي، فلا يترك ممن كان يتبعه أحداً إلا قتله»

وبهذا ثبت أن نزول عيسى عليه السلام، وقتله الدجال، وحكمه بشريعة نبينا صلى الله عليه وسلم حق ليس في العقل ما ينقضه، ولا في الشرع ما يبطله.

ولا تنافي بين هذا وبين قول الله تعالى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾

وقوله صلى الله عليه وسلم: «لا نبي بعدي».

لأن عيسى لا يأتي بشرع جديد ناسخ للإسلام، وإنما ينزل حكماً مقسطاً يحكم بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم، ويحيي ما هجره الناس.

ولا تنافي بين هذا وقول الله تعالى:

---

(١) يقال: ماث الشيء = ذاب

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾[1]

قال الفراء: في الكلام تقديم وتأخير تقديره إني رافعك ومطهرك ومتوفيك بعد انزالك من السماء.

قال الزمخشري: متوفيك أي مستوفي أجلك، ومعناه إني عاصمك من أن يقتلك الكفار ومؤخر أجلك إلى أجل كتبته لك ومميتك حتف أنفك لا قتلاً بأيديهم.

أوله وآخره

اختلف في أوله فقيل: أوله من الموت لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «القبر أول منزل من منازل الآخرة فإن نجا منه فما بعده أيسر، وإن لم ينج فما بعد أشد منه»

وقيل: أوله من النشر - وهو الخروج من القبور - لما ثبت بالآيات من أن اليوم الآخر يبدأ بأحداث هائلة تدمر الكون:

فالنجوم مطموسة..
والسماء مفروجة..
والجبال منسوفة..
والبحار مسجورة..
والأرض مستوية..

﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَبَرَزُوا۟﴾ خرجوا من

(١) آل عمران: ٥٥

قبورهم في العراء - ﴿لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ (١)

قال ابن عباس:

هي تلك الأرض، وإنما تغير، وتبدل السماء بانتثار كواكبها وكسوف شمسها، وخسوف قمرها، وانشقاقها.

أما الأرض فتبدل أوصافها، وتسير جبالها، وتفجر أنهارها وتسوى. فلا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً.

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ (٢)

وقت وقوعه:

قال الله تعالى:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣)

---

(١) إبراهيم: ٤٨.

(٢) طه: ١٠٥ - ١٠٨.

(٣) الأعراف: ١٨٧.

الساعة غيب غائر في ضمير المجهول، استأثر الله بعلم وقت وقوعها، فلم يخبر به أحداً من خلقه ملكاً أو نبياً.

قال تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[1]

وقال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾[2]

ولذا يأمر الله نبيه أن يجيب سائليه من اليهود أو قريش عن موعد إرسائها ووقت وقوعها بأن:

- علمها من خصائص الألوهية، لا يكشف خفاءها إلا الله وحده.
- أمرها عظيم وعبئها ثقيل على الملائكة في السماء والثقلين في الأرض.
- وقوعها بغتة فتفجأكم على غفلة منكم.

وفي الآية صرف للناس عن السؤال عنها. فليس من شأن الرسول البحث عن موعدها، والتعلق بمعرفة وقتها، لأنه يعلم طبيعة الرسالة وحقيقة الألوهية. ولتأكيد اختصاص الله بها كرر الجواب قل: إنما علمها عند الله.

ولا شك أن ذلك أدعى إلى الطاعة، وأزجر عن المعصية، وأوجب للاستعداد لها وفي الوقت متسع وفي العمر بقية.

---

(١) الزخرف: ٨٥

(٢) فصلت: ٤٧

ماذا في اليوم الآخر؟

البعث: موقف الكافرين منه، أدلته، حكمة الإيمان.

الحشر -الحساب: مجادلة الإنسان الشهود.

الميزان - الصراط - الكوثر - الشفاعة

النار والجنة: إزلاق الجنة لأهلها - رؤية الله.

البعث:

هو إحياء الموتى، وخروجهم من قبورهم. ليحشروا إلى ربهم. وقد ذكر القرآن الكريم تلك القضية. وأكد حقيقتها في معظم سوره.

وحين عرضها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بلاغاً وإنذاراً وتذكيراً بكمال قدرة الله، وكمال علمه. وكمال نعمته قائلاً:

﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ (١)

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (٢)

ونادى في الناس:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ
فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۞ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا
وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۞ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۞ وَيَصْلَىٰ
سَعِيرًا ۞ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۞ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۞
بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ (٣)

---

(١) طه: ٥٥

(٢) الملك: ٢٤

(٣) الانشقاق: ٦ - ١٥

عندئذٍ كذب الكفار ذلك، واستعظموا أن تصير الأجسام بعد تفرقها وتحللها وفسادها وفنائها في الأرض - أجساماً حية تسعى وتدرك وزعموا أن لا حياة بعد الموت.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ (١)

بل تهكموا بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وشهروا به وقال بعضهم لبعض أرأيتم رجلاً غريباً ينطق بقول مستنكر بعيد يقول: إنكم بعد الموت والبلى والتمزق تخلقون من جديد، وتعودون للوجود:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ۗ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ﴾ (٢)

موقف الكافرين منه:

يتفق أهل الكفر على إنكار البعث، والتكذيب به، وإن اختلفت أسباب ذلك الإنكار في نفوسهم، والقرآن الكريم يتتبع كل فريق فيحكي مزاعمهم، ويكشف بطلانها:

منهم من استبعدوا البعث واستعظموا أمره قائلين:

﴿أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾

(١) الجاثية: ٢٤
(٢) سبأ: ٧ - ٨

ويرد الله عليهم:

﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا

قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ

فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ

قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ (١)

ومنهم من حسبوه غير مألوف في السنن الكونية الجارية، وغفلوا عما يجري في الحياة من حولهم لإلفها، وتكرارها.

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ ۚ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)

ومنهم من أنكروه جحوداً وعناداً، وقد رد عليهم القرآن في قسم عظيم على أنه واقع في ثلاث آيات:

﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ (٣)

---

(١) الإسراء: ٥١

(٢) سورة فصلت: ٣٩

(٣) سورة التغابن:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ (١)

﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ (٢)

ومنهم من زعم أنه لا داعي إليه، ولا غاية منه، ولا حكمة فيه ونفى القرآن هذا الزعم فقال:

﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (٣)

وإلى هؤلاء وأمثالهم يقدم القرآن:

قصة من أماته الله مائة عام ثم بعثه(٤)

﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

---

(١) سورةسبأ: ٣

(٢) سورة يونس: ٥٣

(٣) المؤمنون: ١١٥

(٤) البقرة: ٢٥٩

قصة إبراهيم مع أربعة من الطير[1]

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ
أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا
وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ

قصة أصحاب الكهف الذين ضرب الله على آذانهم سنين ثم بعثهم[2]

أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (٩) إِذْ أَوَى
الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا
رَشَدًا (١٠) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا (١١) ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ
أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا (١٢) نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ
آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا
رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤)
هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا (١٥) وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا
إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا (١٦) * وَتَرَى
الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَاوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ
الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِّنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن

---

(١) البقرة: ٢٦٠
(٢) الكهف: ١٠ - ٢٥

يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ
ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ
مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ
مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟
أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ
مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ
أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ
وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟
عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم
مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ
كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا
يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾
وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ
وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ
سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا

فهل يتذكر الجاحدون؟

وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١)

---

(١) الأنعام: ١٢٦

أدلة البعث:

ومن ثم يقرر القرآن أدلة البعث على أربعة أضرب:

أحدها: قياس الإعادة على البدء، فمن قدر على البدء أولاً قادر على الإعادة أخيراً قال تعالى:

﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ (١)

﴿وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ (٢)

﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣)

روي أن أبي بن خلف أتى النبي - صلى الله عليه وسلم - بعظم بال يفتته بيده، وقال:

أترى الله يحيي هذا بعد ما رمّ؟

فقال صلى الله عليه وسلم:

نعم يبعثك ويدخلك النار.

فنزل قوله تعالى:

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا

---

(١) الأنبياء: ١٠٤

(٢) الأعراف: ٢٩

(٣) الروم: ٢٧

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (١)

علـيم بالأجزاء المتفتتـة المتبـددة أصولها وفصولها ومواقعها، وطريق تمييزها، وضم بعضها إلى بعض على النمط السابق.

قال تعالى:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ (٢)

ثانيها: قياس الإعادة على إخراج النار من الشجر الأخضر

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ (٣)

فمن قدر على إحداث النار من الشجر الأخضر بسحق المرخ على العفار، فتنقدح النار مع ما فيها من المائية المضادة لها، فلا الماء يطفىء النار، ولا النار تحرق الخشب - كان أقدر على إعادة الغضاضة فيما كان غضاً فيبس وبلي!

ثالثها: قياس الإعادة على خلق السموات والأرض

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ (٤)

---

(١) يس: ٧٨ - ٧٩

(٢) ق: ٤

(٣) سورة يس: ٨٠

(٤) سورة يس: ٨١

فالله الذي خلق السموات والأرض في تلك الضخامة والعظمة أقدر على خلق مثل هؤلاء الأناس في الصغر.

ومن ثم يأمر الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أن يسأل كفار مكة، وإنه لسؤال خالد يوجهه القرآن الكريم لكل من ينكر البعث، ويظنه أمراً عسيراً فيقول:

﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ﴾ - من الملائكة والسموات والأرض وما بينهما - ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ﴾ (١)

رابعها: قياس الإعادة على إحياء الأرض.

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)

وجاء عن أبي رزين العقيلي قال:

قلت يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى؟ وما آية ذلك؟

قال: أما مررت بوادي قومك جدباً ثم مررت به يهتز خضرا؟

قلت: نعم

قال: فتلك آية الله في خلقه، وكذلك يحيي الله الموتى!

---

(١) الصافات: ١١

(٢) الحج: ٥ - ٦

تلك قدرة الله

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ (١)

حكمة الإيمان به:

إن الإيمان بالبعث يزكي في النفوس روح الثقة واليقين بالله، ويسكب في القلوب الاطمئنان إلى العدل الإلهي في الجزاء.

﴿لِّيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ (٢)

فتقوى دوافع الخير، وتضعف نوازع الشر، وتتأصل في الإنسان رقابته لربه، وخشيته من غضبه، فيخلص له، وينفذ شرعه، طمعاً في ثوابه، وابتغاء مرضاته، بل يجاهد لها، ويضحي في سبيلها. ويكون قرآنياً في آدابه وأخلاقه، إسلامياً في سلوكه وتصرفاته وبذلك تستقيم الحياة على منهج الله القويم.

ومن ثم يقرر القرآن أن حياة الناس على هذه الأرض ليست سدى، ولا فوضى بلا ميزان.

﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ۝٣٧ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً

---

(١) لقمان: ٢٨

(٢) سبأ: ٤ - ٥

﴿فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٣٨ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ (١)

وما يزعمه الملاحدة والشيوعيون الذين:

﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ (٢)

من أن الإنسان جاء من عدم فهو صائر إلى عدم
وأن الدنيا وحدها فترة الجزاء والعمل.

ذلك وهم باطل لا يقبله عقل، ولا يقره دين!

كيف تكون الدنيا التي تتحطم فيها القيم، وتضطرب فيها الموازين، هي نهاية الحياة؟

أمن العدل أن يمرح فريق من الناس يستمتع بما لذ وطاب دون تورع عن الحرام والشبهات، وعرق الكادحين، ودماء الشهداء، وفريق آخر في الحضيض، يرسف في أغلاله مهيض الجناح، مهضوم الحقوق، ينظر إلى مستقبله في حيرة وارتباك؟

أليس في ذلك ما يحرم النفوس اطمئنانها، ويفقدها أمنها، ويقضي على ثقتها بالحق؟

أليس في ذلك ما يناقض العدل الإلهي الذي قام عليه الكون كله وعلم الله الشامل؟

---

(١) القيامة: ٣٦ - ٤٠

(٢) الروم: ٧

بلى .

إنه الكفر بحكمة الله العليا ، وجزاء الله العادل .

يقول ابن القيم في كتابه [مدارج السالكين] ج ١ ص ١٢٦ :

شهادة العقل بالجزاء كشهادته بالوحدانية ، ولهذا كان الصحيح أن المعاد معلوم بالعقل ، وإنما اهتدى إلى تفاصيله بالوحي ، ولهذا يجعل الله سبحانه إنكار المعاد كفراً به سبحانه ، لأنه إنكار لقدرته ولإلهيته ، وكلاهما مستلزم للكفر به .

قال تعالى :

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١)

وفي الآية قولان :

أحدهما : إن تعجب من قولهم : ﴿أئذا كُنَّا تُراباً أئنا لَفي خَلْقٍ جَدِيد﴾

فعجب قولهم! إذ كيف ينكرون هذا . وقد خلقوا من تراب ، ولم يكونوا شيئاً .

الثاني : إن تعجب من شركهم مع الله غيره ، وعدم انقيادهم لتوحيده وعبادته وحده لا شريك له ، فإنكارهم

---

(١) الرعد : ٥

للبعث، وقولهم: ﴿أئذا كُنَّا تُرَاباً أَئنَّا لَفي خَلْقٍ جَديد﴾ أعجب.

وعلى التقديرين: فإنكار المعاد عجب من الإنسان، وهو محض إنكار الرب، والكفر به، والجحد لإلهيته، وقدرته، وحكمته، وعدله، وسلطانه.

الحشر:

قال الله تعالى:

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ۝٨٥ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ (١)

﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (٢)

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ ۚ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ (٣)

﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤)

تدل الآيات على أن الحشر من حقائق الآخرة وهو: سوق الناس إلى الموقف، يفد المؤمنون ركباناً، ويساق الكافرون مشاة عطاشا.

---

(١) مريم: ٨٥ - ٨٦
(٢) ق: ٤٤
(٣) يونس: ٤٥
(٤) الكهف: ٤٧

وذلك يسير على الله. فمن بعثهم قادر على جمعهم.

قال تعالى:

﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍۢ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ﴾ (١)

أخرج الشيخان عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:
قام فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بموعظة فقال:
يأيها الناس إنكم محشورون إلى الله تعالى حفاة عراة غرلاً ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْق نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إنَّا كُنَّا فَاعلين﴾
ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة ابراهيم عليه الصلاة والسلام.
ألا وإنه سيجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال. فأقول: يا رب أصحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك.
فأقول كما قال العبد الصالح - عيسى عليه السلام - ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ... إلى قوله: ٱلعزيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ قال: فيقال لي أنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم فأقول: سحقاً سحقاً».

وأخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف:

---

(١) الشورى: ٢٩

صنف مشاة.. وصنف ركبان.. وصنف على وجوههم.
قيل يا رسول الله: كيف يمشون على وجوههم؟
قال: الذي أمشاهم على أقدامهم قادر أن يمشيهم على وجوههم أما إنهم يتقون بوجوههم كل حدب وشوك.

الحساب

قال الله تعالى:

﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ (١)

﴿أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ (٢)

﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ۝ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ (٣)

تدل الآيات على أن الله سيحاسب الناس على ما قدموا من أعمال في الدنيا.

والحساب: توقيف الله عباده قبل الإنصراف من المحشر على أعمالهم اعتقاداً أو قولاً أو فعلاً من خير أوشر.

﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٤)

---

(١) الرعد: ٤١
(٢) الإنعام: ٦٢
(٣) الغاشية: ٢٥ - ٢٦
(٤) الزلزال: ٨٧

﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ (١)

قال ابن كثير:

« يجمع له عمله كله في كتاب يعطاه يوم القيامة إما بيمينه إن كان سعيداً، وإما بشماله إن كان شقياً.

﴿يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ﴾ (٢)

ولهذا قال

﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ (٣)

« وكيفية التوقيف غيبي، والناس فيه متفاوتون، فمنهم من يحاسب حساباً يسيراً، يعرض عمله عليه، فيطلعه الله على سيئاته سراً بحيث لا يطلع عليها أحد ثم يعفو عنه، ويأمر به إلى الجنة. ومنهم من يناقش الحساب بأن يسأل عن كل جزيئة. ويطالب بالعذر وبإقامة الحجة، فلا يجد عذراً ولا حجة فيهلك مع الهالكين » (٤).

أخرج الترمذي عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

لا تزول قدما عبد حتى يسأل:

---

(١) الإسراء: ١٣

(٢) القيامة: ١٣ - ١٤

(٣) الإسراء: ١٤

(٤) الدين الخالص: جـ ١ ص ٦٢

عن عمره فيم أفناه؟
وعن علمه فيم فعل فيه؟
وعن ماله من أين اكتسبه؟ وفيم أنفقه؟
وعن جسمه فيم أبلاه؟

وأخرج الترمذي عن أبي سعيد وأبي هريرة قالا:
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يؤتى بالعبد يوم القيامة فيقول الله تعالى له:
ألم أجعل لك سمعاً وبصراً ومالاً وولداً وسخرت لك الأنعام والحرث وتركتك ترأس وترتع[1]؟
أكنت تظن أنك ملاقيّ يومك هذا؟
فيقول: لا
فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني[2].

وتعطي العدالة الإلهية للإنسان فرصة الدفاع والمجادلة:

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ

ويقول الإنسان لا أقبل الا شاهداً من نفسي. ويقبل الحكم العدل طلبه، ويعطيه سؤله، ويختم على فيه، وتتكلم جوارحه.

الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ

---

(١) الرتع: التنعم
(٢) أتركك في العذاب.

حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ

وحين يفك عقال اللسان، تبدأ الخصومة بين الإنسان وأعضائه:

وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَا

قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ

ثم تنحى الأعضاء باللائمة على أصحابها لما كانوا عليه من استهتار ومجانة، وغفلة وسوء اعتقاد.

وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ [1]

وهكذا تأتي كل نفس إلى ربها ومعها شهودها:

وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ [2]

وكم عليها من شهود في ذلك اليوم المشهود!

إنهم عشرة:

---

(١) فصلت: ٢٠ - ٢٣

(٢) ق: ٢٠

ستة في الإنسان:

الألسنة، والأيدي، والأرجل، والسمع .والبصر، والجلود..

ثم..

الحفظة الكرام: ﴿وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ﴾

الأرض:

روى الطبراني عن الحارث بن زيد قال: سمعت ربيعة الحدسي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: تحفظوا من الأرض فإنها أمكم، وإنه ليس من أحد عامل عليها خيراً أو شراً إلا وهي مخبرة».

الليل والنهار:

« ما من يوم وليل يأتي على ابن آدم إلا قال: أنا ليل جديد، وأنا على ما تفعل فيّ شهيد».

الميزان:

قال الله تعالى:

﴿وَنَضَعُ ٱلۡمَوَٰزِينَ ٱلۡقِسۡطَ لِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ فَلَا تُظۡلَمُ نَفۡسٞ شَيۡـٔٗاۖ وَإِن كَانَ مِثۡقَالَ حَبَّةٖ مِّنۡ خَرۡدَلٍ أَتَيۡنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾

﴿وَٱلۡوَزۡنُ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡحَقُّۚ فَمَن ثَقُلَتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٨ وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ﴾

تثبت الآيات ذكر الوزن والميزان في مواضع من القرآن وقد اختلف فيهما:

فقيل: إنهما بمعنى العدل والقضاء، وذكرها من باب ضرب المثل

وقال الزجاج: هذا شائع من جهة اللسان، والأولى أن يتبع ما جاء في الأسانيد الصحاح من ذكر الميزان.

وقال القشيري:

قد أحسن الزجاج فيما قال، إذ لا يحمل الصراط على الحق..

والجنة والنار على ما يرد على الأرواح دون الأجسام.

والشياطين والجنة على الأخلاق المذمومة.

والملائكة على الأخلاق المحمودة.

فقد أجمعت الأمة في الصدر الأول على الأخذ بهذه الظواهر من غير تأويل، وإذا أجمعوا على منع التأويل، وجب الأخذ بالظواهر، وصارت هذه الظواهر نصوصاً »(١)

أخرج أبو داود عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت:

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يبكيك؟

قالت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟

فقال صلى الله عليه وسلم: أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحد أحداً:

عند الميزان حتى يعلم أيخف ميزانه أم يثقل.

وعند الكتاب حين يقال: ﴿هاؤُمُ ٱقْرَءُوا كِتَابِيَهْ﴾ حتى يعلم أين يقع كتابه أفي يمينه أم في شماله، أم من وراء ظهره؟

وعند الصراط إذا وضع بين ظهري جهنم حتى يجوز.

(١) فتح البيان ج ٣ ص ٢٨٦

الصراط :

قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (١)

قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : هو المرور عليها .
وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم:
ورود المسلمين المرور على الجسر بين ظهرانيها
وورودالمشركين أن يدخلوها
وروى ابن أبي حاتم وابن كثير عن ابن مسعود قال:
يرد الناس جميعاً الصراط ، وورودهم قيامهم حول النار. ثم يصدرون عن الصراط بأعمالهم:
فمنهم من يمر مثل البرق..
ومنهم من يمر مثل الريح..
ومنهم من يمر مثل الطير..
ومنهم من يمر كأجود الخيل..
ومنهم من يمر كأجود الإبل..
ومنهم من يمر كعدو الرجل..

حتى إن آخرهم مروراً رجل نوره على موضع إبهامي قدميه فيتكفأ به الصراط. والصراط دحض مزلة، عليه حسك كحسك القتاد ، حافتاه ملائكة معهم كلاليب من نار يختطفون بها الناس .

---

(١) مريم: ٧١

الصراط إذن جسر ممدود على ظهر جهنم يمر عليه الأولون والآخرون كل حسب عمله.

الكوثر

قال الله تعالى:

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾

قال النسفي هو فوعل من الكثرة، وهو المفرط الكثرة
وعن ابن عباس رضي الله عنهما: هو الخير الكثير فقيل له: إن ناساً يقولون هو نهر في الجنة فقال هو من الخير الكثير.

أخرج الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال:

بينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في المسجد إذ أغفى إغفاءة، ثم رفع رأسه ضاحكاً، فقيل: ما أضحكك يا رسول الله؟
قال: نزلت على سورة آنفاً فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم. إنا أعطيناك الكوثر. حتى ختمها، قال: أتدرون ما الكوثر؟
قلنا: الله ورسوله أعلم.
قال: إنه نهر وعدنيه ربي عز وجل، عليه خير كثير، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة، آنيته عدد نجوم السماء، فيختلج العبد منهم فأقول: ربي إنه من أمتي.
فيقول: ما تدري ما أحدث بعدك .

الشفاعة:

قال الله تعالى:

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (١)

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (٢)

﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ (٣)

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ (٤)

تقرر الآيات الثلاث الأولى:

- أن الشفاعة كلها لله
- أن أحداً لا يشفع عنده إلا بإذنه.
- أن الشفاعة لا تكون إلا لمن رضي الله قوله وعمله

قال قتادة: لأهل التوحيد.

وقال ابن عباس: الذين ارتضاهم بشهادة أن لا إله إلا الله.

وأخرج الحاكم، وصححه البيهقي في البعث عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا هذه الآية ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وقال: «شفاعتي

---

(١) الزمر: ٤٤

(٢) البقرة: ٢٥٥

(٣) الأنبياء: ٢٨

(٤) الإسراء: ٧٩

لأهل الكبائر من أمتي » فالله سبحانه هو الذي يأذن بها لمن يشاء على يد من شاء.

كما تقرر الآية الأخيرة أن الله يبعث نبيه صلى الله عليه وسلم يوم القيامة مقاماً محموداً.

قال ابن جرير: قال أكثر أهل التأويل: ذلك هو المقام الذي يقومه رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس، ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم.

قال الواحدي: إجماع المفسرين على أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة في فصل القضاء.

أخرج أحمد والترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن المقام المحمود في الآية فقال:« هو المقام الذي أشفع فيه لأمتي».

وأخرج ابن ماجة عن أبي سعيد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:
أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر. وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر».

« والشفاعة لغة الوسيلة والطلب. وعرفاً سؤال الخير للآخرين وتكون من الأنبياء، والعلماء العاملين، والشهداء، والصالحين.

فعن عثمان بن عفان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:« يشفع يوم القيامة ثلاثة: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء» رواه ابن ماجة.

يشفع كل لأهل الكبائر على قدر منزلته عند الله تعالى، ولا يلهم أحد

ممن ذكر الشفاعة في إخراج أحد من النار إلا بعد انقضاء المدة المحتمة عند الله.

والحق أن الشفاعة من باب القضاء المعلق فنفعها ظاهري.»[١]

النار:

قال الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾[٢]

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ كُلَّمَا أَرَادُوا أَن يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾[٣]

﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾[٤]

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾[٥]

---

(١) الدين الخالص ج ١ ص ٧١

(٢) التحريم: ٥

(٣) السجدة: ١٩

(٤) البقرة: ٢٤

(٥) البينة: ٦

تدل الآيات على أن النار دار العذاب والعقاب أعدها الله للكافرين والعصاة، خزنتها ملائكة غلاظ شداد، لها سبعة أبواب لكل باب جزء مقسوم. والكفار مخلدون فيها:

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾

أخرج الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

تخرج عنق من النار يوم القيامة، لها عينان تبصران، وأذنان تسمعان، ولسان ينطق، يقول: إني وكلت بثلاثة:

بكل جبار عنيد.

وبكل من دعا مع الله إلهاً آخر.

وبالمصورين.

الجنة:

قال الله تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (١)

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا
خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾ (٢)

﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا

---

(١) ق: ٣١

(٢) الكهف: ١٠٧ -١٠٨

زَمْهَرِيرًا ۝ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا [(١)]

تدل الآيات على أن الجنة هي دار النعيم المقيم أعدها الله للمؤمنين، ظلها دائم، وهواؤها معتدل، وثمارها دانية مسخرة للقائم والقاعد والمتكىء، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وأنها تقرب من أهلها يوم القيامة.

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. قال أبو هريرة: إقرأوا إن شئتم:

فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ [(٢)]

إنها خالدة لا تفنى

إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ [(٣)]

إنها دائمة لا تزول

أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا [(٤)]

---

(١) الإنسان: ١٢ - ١٤

(٢) السجدة: ١٧

(٣) ص: ٥٤

(٤) الرعد: ٣٥.

إنها باقية لا تنقطع

﴿لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ (١)

﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ (٢)

إزلاف الجنة:

لقد كرر إزلاف الجنة، وتقريبها من عشاقها مقترناً بالجحيم في ثلاث سور من كتاب الله عز وجل:

لماذا؟

لنكون دائماً.

بين الأمل واليأس

بين الرجاء والخوف.

بين الرغبة والرهبة.

آخذين في الأسباب.

متوكلين على رب الأسباب.

ففي سورة التكوير:

﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ۝١٢ وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ (٣)

---

(١) الواقعة: ٣٣

(٢) هود: ١٠٨

(٣) التكوير: ١٢ - ١٣

وفي سورة الشعراء:

﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ۝٩٠ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ﴾ (١)

وفي سورة ق:

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ (٢)

وفي هذا رد على كل دعوة إلحادية تنكر وجود الجنة والنار وتدعي أنهما معنويان لا حسيان، وأن وجودهما في العلم لا في الخارج فالجنة دانية قريبة، والنار مسعرة موقدة، وهذه وتلك موجودتان معدتان.

يقول الله تعالى:

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ (٣)

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (٤)

فالمعدوم لا يقال له أعد فهو معد.

وصدق الله العظيم:

﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٥)

---

(١) الشعراء: ٩٠ - ٩١

(٢) ق: ٣٠ - ٣١

(٣) آل عمران: ١٣١

(٤) آل عمران: ١٣٣

(٥) السجدة: ١٧

رؤية الله تعالى:

أجمع الصحابة والتابعون وأهل السنة والحديث على ثبوت رؤية الله في الآخرة بغير إحاطة ولا كيفية.

قال تعالى:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[١].

فإضافة النظر[٢] إلى الوجه الذي هو محله في هذه الآية، وتعديته بأداة (إلى) الصريحة في نظر العين دليل على أن المراد نظر العين التي في الوجه إلى الرب جل وعلا.

وهذا قول ابن عمر مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وبه قال ابن عباس والحسن وعكرمة والمفسرون من أهل السنة.

وذلك تكريم من الله لأوليائه في الجنة، فالرؤية أقوى الكرامات.

قال تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾[٣]

---

(١) القيامة: ٢٢ - ٢٣

(٢) للنظر عدة استعمالات بحسب تعديته:
فإن عدي بنفسه فمعناه التوقف والانتظار: (انظرونا نقتبس من نوركم)
وإن عدى بـ (في) فمعناه التفكر والاعتبار: (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض)
وإن عدى بـ (إلى) فمعناه المعاينة بالأبصار: (انظروا إلى ثمره إذا أثمر)
اهـ شرح الطحاوية ص ١١٠

(٣) ق: ٣٥

وقال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾(١)

فالزيادة هي الرؤية.

روى مسلم في صحيحه عن صهيب قال:

قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، نادى منادٍ: يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه، فيقولون: ما هو؟ ألم يثقل موازيننا، ويبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجيرنا من النار؟

فيكشف الحجاب فينظرون إليه، فما أعطاهم شيئاً أحب إليهم من النظر إليه. وهي الزيادة.

كما احتج الشافعي وغيره من الأئمة على الرؤية لأهل الجنة بقوله تعالى في شأن المكذبين بيوم الدين:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾(٢)

قال الزجاج: في الآية دليل على أن المؤمنين يرون ربهم، وإلا لا يكون التخصيص مفيداً.

وقال الحسن بن الفضل: كما حجبهم في الدنيا عن توحيده حجبهم في العقبى عن رؤيته.

---

(١) يونس: ٢٦

(٢) المطففين: ١٥

وقال مالك بن أنس: لما حجب أعداءه فلم يروه تجلى لأوليائه حتى رأوه[1].

يقول ابن القيم:

إن نعيم القلب والروح بإزالة الحجاب أعظم من النعيم بالأكل والشرب، والتمتع بالحور العين فهكذا عذاب الحجاب أعظم من عذاب الجحيم.

ولهذا جمع الله سبحانه لأوليائه بين النعيمين في قوله:

﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾[2]

فالحسنى الجنة، والزيادة رؤية وجهه الكريم في جنات عدن وجمع لأعدائه بين العذابين:

﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ۝١٥ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا۟ ٱلْجَحِيمِ﴾

فاجتمع عليهم عذاب الحجاب وعذاب الجحيم، ووحشة الحجاب وألمه أشد من ألم العذاب[3].

أما قوله تعالى: ﴿لَنْ تَرَانِي﴾ حين سأل موسى: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾ فهذا يدل على أن الله يرى لكن موسى لا تحتمل قواه رؤية الله في هذه الدار لضعف قوى البشر، وكيف يرى ما يفنى من لا يفنى؟

وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾

---

(١) تفسير النسفي جـ ٤ ص ٣٤٠ دار الكتاب العربي، بيروت.

(٢) يونس: ٢٦

(٣) مدارج السالكين جـ ٣ ص ٢٨٦

فالنفي منصب على الإدراك وهو الإحاطة أما الرؤية بغير إحاطة ولا كيفية فلا يشملها النفي.

وقد روى أصحاب الصحاح والمسانيد والسنن أحاديث كثيرة منها حديث أبي هريرة قال:

«إن ناساً قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر؟
قالوا: لا يا رسول الله. قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟
قالوا: لا، قال: فإنكم ترونه كذلك.»

الفصل الثاني

القدر

القــدر في القرآن - القضـاء في القرآن - الإنسان مسير ومخير - الأسباب والمسببات - معاني الهداية في القرآن - التعلل بالقدر.

قال الله تعالى:

﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (١)

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ (٢)

﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (٣)

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤)

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ (٥)

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (٦)

---

(١) الحجر: ٢١

(٢) المؤمنون: ١٨

(٣) الحجر: ١٩

(٤) القمر: ٤٩

(٥) الأنعام: ٥٩

(٦) الرعد: ٨

القدر مصدر قدر يقدر بضم الدال وكسرها قدْراً وقدَراً. بسكونها وفتحها جاء في التنزيل:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ (١)

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَـٰمُوسَىٰ﴾ (٢)

وقد ذكر لفظ القدر في القرآن أكثر من عشر مرات، وكلها تدل على أن أحداث الأرض والكون، ووقائع التاريخ والزمن وكل ما ينزل من السماء، وما يخرج من الأرض وزن بميزان الحكمة وقدر بمقدار ما تقتضيه رعاية الله لخلقه.

فالماء الهاطل، والنبات النامي، وكل ما خلق الله صدر في دقة وإحكام وتقدير العزيز العليم.

وتدل الآيتان الأخيرتان على علم الله الواسع فهو سبحانه أحاط بكل شيء علماً، وأحصى كل شيء عدداً، لا شيء يخرج عن علمه سبحانه سواء ما استتر في الأعماق، أو ما ظهر في الآفاق.

كل شيء مسجل عنده في كتاب غيبي لا يعلم حقيقته إلا الله، قد سطرت فيه مصائر الكون أرضه وسمائه، إنسه وجانه، من خير وشر، وسعادة وشقاء، وثواب وعقاب، وآجال وأحوال في الآماد البعيدة، والآفاق الوسيعة، والأغوار العميقة.

---

(١) القدر: ١

(٢) طه: ٤٠

علم الله محيط بكل حمل في أرحام الإناث بهذا الكون المترامي الأطراف، وكل قطرة دم تغيض أو تزيد في تلك الأرحام عنده بمقدار، ومصير الجنين - من ذكر أو أنثى - غيب خاضع لقدر الله، لا علم لأحد به، ولا دخل للبشر فيه.

لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ
يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا
وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ
أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ (١)

فسر الحياة ونشأتها غيب، كنشأة الكون وحركته

مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ (٢)

هذا علم الله صفة كاشفة للواقع ما كان وما سيكون في المستقبل.

القدر إذن:

الخطة الربانية الأزلية كما علم الله وأراد.

القضاء في القرآن

قال الأزهري قضى في اللغة على وجوه مرجعها إلى انقطاع الشيء وتمامه.

---

(١) الشورى: ٤٩ - ٥٠

(٢) الكهف: ٥١

قيل هو مشترك بين معان يقال قضى بمعنى:

أ - خلق: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾[(١)]

ب - أعلم: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾[(٢)]

جـ - أمر: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[(٣)]

د - أوفاه: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾[(٤)]

هـ - أراد: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا﴾[(٥)]

و - حكم: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾[(٦)]

فالقضاء إذن:

إبراز الكائن إلى الوجود بقدرته تعالى

والقضاء والقدر معاً:

علم الله وإرادته كما يظهران على صفحة الحياة اليومية للبشر.

---

(١) فصلت: ١٢

(٢) الإسراء: ٤

(٣) الإسراء: ٢٣

(٤) القصص: ٢٩

(٥) آل عمران: ٤٧

(٦) الزمر: ٧٥

الإنسان مسير ومخير

قال الله تعالى:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (١)

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢)

﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (٣)

﴿وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ (٤)

﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (٥)

﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ (٦)

﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (٧)

---

(١) القصص: ٦٢
(٢) الأنعام: ١٧
(٣) التوبة: ٥١
(٤) آل عمران: ١٤٥
(٥) الكهف: ٢٩
(٦) الطور: ٢١
(٧) التكوير: ٢٨

﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1]

تقرر الآيات الثلاث الأولى أن الله يخلق ما يشاء، ويصيب من يشاء بما يشاء سبحانه كل ذلك مقدر مكتوب، فهناك أعمال خارجة عن حدود إرادة الإنسان، وسلطان قدرته.

أ - تجري فيه كحياته وموته، وطوله وقصره، ونبضات عروقه، وضربات قلبه إلى غير ذلك من الأعمال التي لا تأثير للإنسان في وجودها وتنفيذها.

ب - تقع عليه كالمصائب والبلاء الذي يقع على الإنسان، ولا مفر له ومنه ولا بد له في وقوعه، ولا قبل له برده، ولا سبيل إلى منعه بل هو قدر معلوم، وقضاء مرسوم.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾[2]

هذه الأعمال التي تجري فيه، وتقع عليه دون إرادة منه، لا يسأل عنها الإنسان وهو فيها مجبر غير مريد، مكره غير مختار، مسير غير مخير.

ولو حوسب الإنسان عليها لكان ذلك ظلماً ينافي عدل الله عز وجل ولقد نفى الله ظلمه لعباده مؤكداً بأن والباء الزائدة في ثلاث[1] آيات من كتابه قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

---

(١) الإنسان: ٣٠

(٢) سورة الأنفال: ٥١. سورة الحج: ١٠. سورة آل عمران: ١٨٢

ومؤكداً بالباء في آيتين[1]: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾

كما تقرر الآيات الأخرى تلك الحقائق:

١ - أن للإنسان إرادة ومشيئة وأعمالاً إرادية يتجه إليها وهو مريد لها، وتقوم قدراته التنفيذية بتحقيقها، يشعر عند أدائها بحرية نفسه، وإدراك عقله كالأكل والشرب، والقيام والقعود، وفعل الخير أو الشر.

كل هذه الأعمال وأمثالها داخلة في حدود إرادة الإنسان، وسلطان قدرته. يملك في حرية أن يعملها أو لا يعملها فهو فيها حر غير مجبر. مختار غير مكره.

٢ - هذا الاختيار هو الذي يميزه عن غيره من مخلوقات الله التي لا حرية لها ولا اختيار من ملك وجماد ونبات وحيوان يشير إلى ذلك قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[2]

فكل ما في الوجود من أجناس المخلوقات يسجد لله طائعاً عدا الإنسان فكثير يطيع، وكثير في عصيان.

لماذا؟

---

(١) سورة فصلت: ٤٦. سورة ق: ٢٩

(٢) الحج: ١٨

لأن الإنسان يعمل بمحض إرادته الحرة، ومشيئته المختارة.

٣ - هذه المشيئة تابعة لمشيئة الله المطلقة، فالإنسان يعمل داخل دائرة صغرى في حرية واختيار، هو فيها مخير لا مسير، لكن هذه الدائرة الصغرى تقع ضمن دائرة كبرى هي نطاق النظام الكوني العام.

ولذا فإن عمر رضي الله عنه حين سافر إلى الشام، ووجد بها طاعوناً، رجع عن دخولها..

أليس رجوع عمر عن دخولها بإرادته واختياره؟

بلى.
إنه كان في ذلك حراً يتصرف بكامل إرادته!
وحين قال له أبو عبيدة: أتفر من قدر الله؟
قال عمر في إيمان صادق واع:
نعم. أفر من قدر الله إلى قدر الله.
فليس في فرار عمر من الطاعون هروب من القدر المرسوم.

٤ - لو كان الإنسان مسيراً غير مختار في هذا القدر من الأعمال التي تصدر عنه بإرادته.
فلماذا أرسل الله الرسل؟
لماذا أنزل الله الكتب؟
لماذا رتب الله الجزاء على تلك الأعمال؟
إن ذلك يكون عبثاً وظلماً تنزه الله عنهما، فهو سبحانه الحكيم العادل.

٥ - وعلى هذا فالإنسان مسئول عن أعماله الإرادية، محاسب عليها بشهادة.

الواقع الذي يقرر إرادة الإنسان.
العقل الذي يحدد مسئولية الإنسان.
النصوص الشرعية التي تنسب له العمل والاختيار.

ومن أجل هذا أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب، ورتب الجزاء فجعل الجنة لمن أطاع، والنار لمن عصى.

يقول ابن القيم في الآية الأخيرة:

« قوله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ﴾

رد على الجبرية القائلين بأن العبد لا مشيئة له أو أن مشيئته مجرد علامة على حصول الفعل لا ارتباط بينها وبينه إلا مجرد اقتران عادي من غير أن يكون سبباً فيه.

وقوله: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾

رد على القدرية القائلين بأن مشيئة العبد مستقلة بإيجاد الفعل من غير توقف على مشيئة الله، بل متى شاء العبد الفعل وجد، ويستحيل عندهم تعلق مشيئة الله بفعل العبد، بل هو يفعله بدون مشيئة الله.

فالآيتان مبطلتان لقول الطائفتين.

والذي دلت عليه الآية مع سائر أدلة التوحيد، وأدلة العقل الصريح أن مشيئة العباد من جملة الكائنات التي لا توجد إلا بمشيئة الله سبحانه وتعالى، فما لم يشأ لم يكن ألبتة، كما أن ما شاء كان ولا بد »[1].

(١) التبيان في أقسام القرآن ص ٨١ - ٨٢

الأسباب والمسببات

قال الله تعالى:

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾

﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾

تدل الآيات على أن هداية الله لبعض القلوب جاءت نتيجة الإيمان به سبحانه، والجهاد فيه، وأن إزاغة بعض القلوب كان نتيجة زيغ أصحابها وضلالهم.

كما أن الأرزاق تتطلب سعياً وجهاداً من الزارع في مزرعته، والصانع في مصنعه، والتاجر في متجره، والطالب في مدرسته، فنتائج أعمالهم مرتبطة بما يبذل كل في سبيلها، فالله خلق الكون بنظام وترتيب جعلت فيه المسببات بقدر الأسباب.

يبدأ العبد اختيار الفعل، وييسر الله له طريقه دون جبر أو إكراه.

﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ﴾

﴿وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾

تلك حقيقة كبرى

فالكون كله قائم على نظام إلهي محكم. وسنن ربانية ثابتة فما من شيء في

هٰذا العالم إلا ويحكمه قانون السببية.

« وهذا الخلق المسمى بالإنسان فطرته المشيئة الطليقة على الاستعداد المزدوج للهدى والضلال عن اختيار وحكمة لا عن اقتضاء أو إلزام.. تلك المشيئة التي تعين من يجاهد، وتضل من يعاند، ولا تظلم أحداً من العباد »[1].

هكذا رتب الله المسببات على الأسباب في كل شيء من أمور الدين، وأمور الدنيا.

أمن الحق أن ينتظر الرزق قعود خائر؟
أمن العدل أن ينتظر النجاح كسول متبلد؟
فكيف ينتظر الجنة فاسق متمرد؟

* * *

إن ترك العمل والدعاء نظراً للقدر السابق مخالف للكتاب والسنة فقد أمر الله بالعمل قال تعالى:

﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾[2]

وقال تعالى آمراً السيدة مريم

﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[3]

---

(١) في ظلال القرآن ص ١٠٨١
(٢) التوبة: ١٠٥
(٣) مريم: ٢٥

كما أمر سبحانه بالدعاء فقال:

﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (١)

وروى الشيخان عن علي رضي الله عنه قال: كنا في جنازة ببقيع الفرقد فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله، وبيده مخصرة فجعل ينكت بها الأرض ثم قال: ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة. فقالوا: يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا؟ فقال: اعملوا فكل ميسر لما خلق له. أما من كان من أهل السعادة فيصير إلى عمل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فيصير إلى عمل الشقاء، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ..﴾ الآية.

وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قيل له:

«أرأيت أدوية نتداوى بها، ورقى نسترقي بها، وتقى نتقي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: هي من قدر الله»

وقال ابن القيم:

«ليس إسقاط الأسباب من التوحيد، بل القيام بها، واعتبارها وإنزالها في منازلها التي أنزلها الله فيها هو محض التوحيد والعبودية» (٢)

«ودفع القدر بالقدر نوعان:

---

(١) غافر: ٦٠

(٢) مدارج السالكين جـ ٣ ص ٤٩٥

أحدهما:

دفع القدر الذي قد انعقدت أسبابه - ولما يقع - بأسباب أخرى من القدر تقابله، فيمتنع وقوعه، كدفع العدو بقتاله، ودفع الحر والبرد ونحوه.

الثاني:

دفع القدر الذي قد وقع واستقر بقدر آخر يرفعه ويزيله كدفع قدر المرض بقدر التداوي، ودفع قدر الذنب بقدر التوبة ودفع قدر الإساءة بالإحسان.

فهذا شأن الأقدار، لا الاستسلام لها، وترك الحركة والحيلة أمامها، فإنه عجز، والله تعالى يلوم على العجز»[1]

ومن ثم جاء فيما رواه أبو داود تعوذ النبي صلى الله عليه وسلم منه بقوله:

«وأعوذ بك من العجز والكسل»

معاني الهداية في القرآن

قال الله تعالى:

﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[2]

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾[3]

---

(١) مدارج السالكين جـ ١ ص ٢٠٠

(٢) سورة الشورى: ٥٢

(٣) سورة القصص: ٥٦

الآيتان خطاب للرسول صلى الله عليه وسلم.
إحداهما تثبت له أنه يهدي إلى صراط الله المستقيم.
والأخرى تنفي عنه أنه يهدي من يحب
فكيف؟
قد يتوهم القارىء التناقض بين الآيتين، لكن يزول هذا الوهم إذا علم:

أن الآية الأولى تثبت للرسول صلى الله عليه وسلم هداية البيان والدلالة والدعوة والتعريف بطريقي الخير والشر، فالرسول واسطة لتحقيق مشيئة الله، فهو لا ينشىء الهدى في القلوب، ولكن يبلغ الرسالة، فتقع مشيئة الله، فهي هداية الإرشاد إلى طريق الله.

أما الآية الأخرى فتنفي عنه صلى الله عليه وسلم هداية الإلهام والتوفيق لأن هذه لله سبحانه، فهو وحده الموفق الملهم الخالق للهدى في القلوب، ولذا جاء الاستدراك في الآية يؤكد ذلك ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ فهذه تخرج أمر الهداية على هذا المعنى من اختصاص الرسول صلى الله عليه وسلم وجعله خاصاً بإرادة الله سبحانه وتقديره، وما على الرسول إلا البلاغ والقلوب بعد ذلك بين أصابع الرحمن، والهدى والضلال وفق ما يعلمه من قلوب العباد واستعدادهم.

ولقد جاءت الهداية في القرآن على معان أربعة:
إنها تلك:
أولها: الهداية العامة المشتركة بين الخلق. المذكورة في قوله تعالى:
﴿ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾(١)

---

(١) طه: ٥٠

أي أعطى كل شيء صورته التي لا يشتبه فيها بغيره، وأعطى كل عضو شكله وهيأته. وأعطى كل موجود خلقه المختص به، ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال. فهدى الرجلين للمشي، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع.

وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل.

وهدى الولد إلى التقام الثدي عند وضعه وطلبه.

ثانيها: هداية البيان والتعريف لنجدي الخير والشر وطريقي النجاة والهلاك، وهذه الهداية لا تستلزم الهدى التام، كقوله تعالى:

وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ

أي بينا لهم وأرشدناهم ودللناهم فلم يهتدوا.

ثالثها: هداية التوفيق والإلهام وهي الهداية المستلزمة للاهتداء، فلا يتخلف عنها، وهي المذكورة في قوله تعالى:

يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ

وقوله: إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ

رابعها: الهداية إلى الجنة والنار إذا سبق أهلهما إليهما، قال تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَانِهِمْ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ

وقال في أهل النار: احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا

﴿يَعْبُدُونَ ۝ مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾ (١)

التعلل بالقدر

قال الله تعالى:

﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ (٢)

وقال سبحانه:

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ (٣)

من الناس من يجعل القدر مشجباً يعلق عليه خيبة أمله، وضعف همته، وعجزه عن تحقيق غاياته، وما يصبو إليه في دنياه وأخراه.

وقديماً أراد المشركون أن يحتجوا بإرادة الله على شركهم، ويتعللوا بمشيئة الله في ضلالهم، وتحريمهم بعض الذبائح والأطعمة بغير شريعة الله - فرد الله عليهم فساد تصورهم، وبين لهم:

---

(١) بدائع الفوائد جـ ٢ ص ٣٧

(٢) الأنعام: ١٤٧

(٣) النحل: ٣٤

(١) أن مشيئة الله غيب لا وسيلة لهم إليها. فكيف يعلمونها، ويحيلون عليها شركهم وضلالهم؟

(٢) أن علم الإنسان محدود فهو لا يعلم ما سيقع له في المستقبل ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾[١]

فإن كان عندكم من دليل صحيح، وحجة مقنعة بأن الله راض بذلك فأخرجوه

(٣) أن سطور القدر غيب مصون

إنما الغيب كتاب صانه عن عيون الخلق رب العالمين

ليس يبدو منه للناس سوى صفحة الحاضر حيناً بعد حين

فلستم فيما تدعون إلا أتباع وهم باطل، تكذبون فيه على الله عز وجل.

(٤) أن الله خلق البشر باستعداد للهدى والضلال. ومنحهم العقل لترجيح أحدهما، وبث حولهم الآيات الكونية الهادية. وأرسل الرسل وأنزل الكتب شرائع نيرة. لتكون ميزاناً ثابتاً حتى لا يضل، ولم يجعل الرسل جبارين بل مبلغين عن الله عز وجل، ولو لم يكن البشر كذلك ما أنزل بأسه بالمكذبين قبلهم، لأنه سبحانه عادل لا يظلم مثقال ذرة.

---

(١) لقمان: ٣٤

قال الخطابي:

« قد يحسب كثير من الناس أن معنى القضاء والقدر إجبار الله سبحانه وتعالى العبد على ما قدره وقضاه. وليس الأمر كما يتوهمون وإنما معناه الاخبار عن تقديم علم الله سبحانه وتعالى بما يكون من اكتسابات العبد وصدورها عن تقدير منه تعالى وخلقه لها خيرها وشرها »[١].

ولهذا كان الإمام أحمد رضي الله عنه يقول لتلاميذه ناظروا منكري القدر بالعلم فقولوا لهم:

أيعلم الله هذه الأمور قبل وقوعها أم لا يعلمها؟

فإن قالوا: يعلمها فقد أقروا بالقدر

وإن قالوا: لا يعلمها فقد نسبوا إلى الله الجهل وكفروا وقد ثبت مثل هذا عن الإمام الشافعي رحمه الله[٢].

والذين يحيلون شركهم وفسادهم على إرادة الله بهم، وقضاء الله فيهم، إنما يغالطون في هذه الإحالة. ويخطئون في فهم المشيئة الإلهية، وأهم خصائص الإنسان.

وقد دخل رسول الله على الإمام علي كرم الله وجهه مرة بعد العشاء فوجده قد بكر بالنوم. فقال له:

« هلا قمت من الليل؟ فقال: يا رسول الله. أنفسنا بيد الله، إن شاء

---

(١) الدين الخالص جـ ١ ص ٨٨

(٢) شرح الطحاوية ص ١٨٤

بسطها، وإن شاء قبضها، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وخرج وهو يضرب على فخذه، ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾.

وسرق أحد اللصوص، فلما حضر بين يدي عمر رضي الله عنه، سأله لم سرقت؟ فقال: قدر الله ذلك، فقال عمر رضي الله عنه، اضربوه ثلاثين سوطاً، ثم اقطعوا يده، فقيل له: ولِمَ؟

فقال: يقطع لسرقته، ويضرب لكذبه على الله.

وقد حذر رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يفهم القدر فهماً خاطئاً ودعا إلى مجاهدة من يرى هذا الفهم الخاطىء.

فقد روى عن جابر رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

« يكون في آخر الزمان قوم يعملون المعاصي، ثم يقولون: الله قدرها علينا، الراد عليهم يومئذ كالشاهر سيفه في سبيل الله »

* * *

إن القدر لا يتخذ سبيلاً إلى التواكل، ولا ذريعة إلى المعاصي. ولا طريقاً إلى القول بالجبر. وإنما يجب أن يتخذ سبيلاً إلى تحقيق الغايات الكبرى من جلائل الأعمال.

لقد استعان الرسول، صلى الله عليه وسلم بالقدر على تحقيق رسالته الكبرى. ملتزماً سنة الله في نصره لعباده.

فقاوم الفقر بالعمل، وقاوم الجهل بالعلم، وقاوم المرض بالعلاج، وقاوم الكفر والمعاصي بالجهاد. وكان يستعيذ بالله من الهم والحزن. والعجز والكسل.

وما غزواته - صلى الله عليه وسلم - المظفرة إلا مظهر من مظاهر إرادته العليا التي تجري حسب مشيئة الله وقدره.

هذا هو القدر الذي ينبغي أن نعرفه عن القدر، وما وراء هذه المعرفة عنه فلا يحل لنا البحث فيه، ولا التنازع في شأنه، فإن هذا من أسرار الله التي لا تحيط بها العقول، ولا تدركها الأفكار.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

« خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نتنازع في القدر، فغضب حتى احمر وجهه، وقال: أبهذا أرسلت إليكم؟ إنما أهلك من قبلكم حين تنازعوا في هذا الأمر، عزمت عليكم ألا تنازعوا فيه»[1].

سئل الإمام علي كرم الله وجهه عن القدر فقال:

« طريق مظلم فلا تسلكوه »

وسئل ثانية فقال:

« بحر عظيم فلا تلجوه »

ثم سئل ثالثة فقال:

« سر الله فلا تتكلفوه »[2].

وقال جعفر الصادق فيه:

« إن الله تعالى أراد بنا شيئاً، وأراد منا شيئاً، فما أراده بنا طواه عنا،

(١) العقائد الإسلامية ص ٩٩

(٢) لوائح الأنوار ص ٢٥١

وما أراده منا أظهره لنا ، فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟ »

وهذا قوله في القدر : هو أمر بين أمرين : لا جبر ، ولا تفويض وكان يقول في دعائه :« اللهملك الحمد إن أطعتك ، ولك الحجة إن عصيتك . لا صنع لي ولا لغيري في إحسان ، ولا حجة لي ولا لغيري في إساءة »[1] .

أليس عجباً

أن يشغل الإنسان نفسه بما قضى عليه من حياة وموت ، وسعادة وشقاء ولا يشغلها بما عهد إليه من طاعة وبر ، وعمل وكفاح؟

إن الإيمان بالقدر جزء متمم للإيمان بالله ، وعنصر من حقيقته المشرقة تطلق قوى المؤمن وطاقاته لتعمل بإيجابية في الحياة تبعاً لسنن الله .

---

(١) الملل والنحل جـ ١ ص ١٤٧ - ١٤٨

الباب الرابع

أثر العقيدة

الفصل الأول: صلتها بالعبادات
الفصل الثاني: صلتها بالأخلاق

الفصل الأول

صلة العقيدة بالعبادات

صلة العقيدة بالعمل - العبادات الوظيفة الأولى - المفهوم العام للعبادة - مفهومها الخاص - العبادات مقصودة لذاتها - آثارها.

صلة العقيدة بالعمل الصالح

إن العقيدة التي تغمر القلب والنفس، وتملك الشعور والوجدان لا بد أن تكيف الجسم وتوجهه الوجهة السليمة فالقلب ملك والأعضاء له رعية وجنود فمن صلح قلبه صلح جسده. يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب.

وقد قرن القرآن بين الإيمان والعمل الصالح في كثير من آياته فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا﴾ (١)

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتۡ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡفِرۡدَوۡسِ نُزُلًا﴾ (٢)

﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ (٣)

وإذا كانت العقيدة: تصديقاً بالجنان.
وإقراراً باللسان.
وعملاً بالأركان.

---

(١) مريم: ٩٧
(٢) الكهف: ١٠٧
(٣) التغابن: ٩

كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة - فعطف العمل الصالح على الإيمان من عطف بعض الشيء عليه،

كقوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ﴾[2]

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ﴾[3]

وإذا كانت العقيدة: تصديقاً بالجنان، وإقراراً باللسان دون بالجوارح كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة - فعطف العمل الصالح على الإيمان لما بينهما من تلازم.

كقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾[4]

وأداء الأعمال الصالحة طاعة لله وانقياداً لأمره سبحانه هي العبادة.

العبادة في المفهوم القرآني:

وردت الكلمة في القرآن، ويراد بها في الغالب معنيان:

١ - معنى الطاعة قال الله تعالى:

---

(١) البقرة: ٢٣٨

(٢) البقرة: ٩٨

(٣) الأحزاب: (٧)

(٤) النساء: ٥٨ - شرح الطحاوية ص ٢٤٨

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾[1]

الظاهر أن أحداً لا يتأله للشيطان في الدنيا بل كل يلعنه لذلك فإن الجريمة التي يصم بها الله تعالى بني آدم يوم القيامة هي إطاعتهم لأمره واتباعهم لحكمه وسبله.

٢ - معنى التأله..

وهي بهذا المعنى تشتمل على أمرين اثنين حسبما يدل عليه القرآن:

أولهما: أن يؤدي المرء إحدى الشعائر كالسجود والركوع والقيام والطواف وتقبيل عتبة الباب، والنذر والنسك، وسواء يعتقده إلهاً أعلى مستقلاً بذاته، أو يأتي بكل ذلك وسيلة للشفاعة والزلفى إليه.

الثاني: أن يظن المرء أحداً مسيطراً على نظام الأسباب في هذا العالم ثم يدعوه في حاجته، ويستغيث به في ضره وآفته، ويعوذ به عند نزول الشدائد. هذان الوجهان من عمل المرء كلاهما داخل في معاني التأله.

والشاهد بذلك ما يأتي من الآيات:

﴿قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِن رَّبِّي﴾[2]

---

(١) يس: ٦٠

(٢) غافر: ٦٦

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾[1]

فالمراد بالعبادة فيها هو الدعاء والاستغاثة

وقال تعالى:

﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾[2]

والمراد بعبادة الجن والإيمان بهم في هذه الآية تفصله الآية الآتية:

﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾[3]

فيتبين منه أن المراد بعبادة الجن هو العياذ بهم واللجوء إليهم في الأهوال[4]

العبادة وظيفة الإنسان الأولى:

ومن ثم كانت العبادة أول صيحة صاح بها كل رسول في قومه

بقوله: ﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[5]

---

(١) مريم: ٤٨

(٢) سبأ: ٤١

(٣) الجن: ٦

(٤) المصطلحات الأربعة: ١٠٧.

(٥) المؤمنون: ٣٢

وهي مشتقة من عبد بمعنى خضع وذل. قال تعالى:

﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ (١)

وجاء الفعل في القرآن مشدداً كما في حديث موسى مع فرعون:

﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٢)

أي أخضعتهم وأذللتهم. وقد أمر الله بها الناس جميعاً فقال:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ (٣)

وأمر بها نبيه فقال:

﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ (٤)

وجعلها الغاية من الخلق فقال:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ (٥)

ووصف بها ملائكته فقال:

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ (٦)

---

(١) مريم: ٩٤
(٢) الشعراء: ٢٢
(٣) البقرة: ٢١
(٤) الزمر: ٢
(٥) الذاريات: ٥٦
(٦) الأنبياء: ٢٦

ووصف بها أنبياءه فقال تعالى:

عن نوح: ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾ (١)

عن داود: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٢)

عن سليمان: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٣)

عن أيوب: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (٤)

عن عيسى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (٥)

أما رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم فقد سماه الله - عبده - في أسمى مقاماته:

عند نزول القرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ (٦)

عند الوحي: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ (٧)

عند الإسراء: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ (٨)

---

(١) القمر: ٩
(٢) ص: ١٧
(٣) ص: ٣٠
(٤) ص: ٤٤
(٥) الزخرف: ٥٩
(٦) الكهف: ١
(٧) النجم: ١٠
(٨) الإسراء: ١

عند الدعوة: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾(١)

عند الدفاع: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ ۝ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ﴾(٢)

وقد سمى الله الناس جميعاً عباده وعبيده

قال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٣)

وقال تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾(٤)

وقال الشاعر الإسلامي:

وممـــا زادني شرفـــاً وتيهـــاً
وكـــدت بأخمصي أطـــأ الثريـــا
دخولي تحت قولـــك يـــا عبـــادي
وأن صـــــيرت أحمد لي نبيـــــا

المفهوم العام للعبادة

يطلق لفظ العبادة على كل عمل مباح يؤديه المسلم قاصداً به وجه الله.

---

(١) الجن: ١٩

(٢) العلق: ١٠

(٣) الإسراء: ٥٣

(٤) فصلت: ٤٦

فذهابك إلى عملك عبادة.

ورجوعك إلى بيتك عبادة.

والضرب في الأرض بالزراعة أو التجارة أو الصناعة عبادة بل السعي في طلب الرزق قسيم الجهاد في سبيل الله.

قال تعالى:

﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (١)

والضرب في الأرض قسيم الصلاة في بيت الله

قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ (٢)

روى الطبراني عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال:

مر على النبي صلى الله عليه وسلم رجل، فرأى أصحاب الرسول من جلده ونشاطه، فقالوا: يا رسول الله لو كان هذا في سبيل الله.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله وإن كان يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان.

ونفقة الإنسان على نفسه وعلى أسرته له بها عند الله المثوبة والأجر. حتى اللقمة يضعها في فم امرأته.

---

(١) المزمل: ٢٠

(٢) الجمعة: ١٠

قال صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص: إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها حتى ما تجعله في فم امرأتك.

وقال صلى الله عليه وسلم: ما أطعمت نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة.

بل إن الرجل يقضي شهوته مع امرأته يحفظ دينه، ويصون عفافه له به أجر. قال صلى الله عليه وسلم:

وفي بضع أحدكم صدقة.

قالوا يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟

قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟

فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.

هكذا يريد الإسلام أن يحول المسلم ربانياً في كل أعماله، قرآنياً في كل تصرفاته متى قصد بحركاته وسكناته وجه الله وتجرد عن الأهواء، وأعلن للدنيا: إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له. حتى إذا وقع في المعصية - وهي ضريبة لازمة، فكل ابن آدم خطاء - يفتح الله له باب التوبة بل يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار. ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل.

فإذا تاب المذنبون وآمنوا وعملوا عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات. ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1]

(١) هود: ١١٥

وفي ضوء ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: وأتبع السيئة الحسنة تمحها.

فصلاح النية وإخلاص القصد لله يجعلان العمل الدنيوي البحت عبادة مقبولة.

قال صلى الله عليه وسلم: إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله..

ومن كان هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.

مفهومها الخاص

فرض الله عبادات مخصوصة، من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد في سبيل الله. وحدد هيآتها وأوقاتها ومقاديرها وأماكنها وما يجب لها حتى تكون تامة مقبولة. وذلك لحكم منها:

أولاً: أن تكون رباطاً وثيقاً بالله، ولقاء كريماً بين العبد ومولاه، وضيافة عزيزة عند الله، ومعراجاً للنفس البشرية إلى الملكوت الأعلى.

إذ كيف يكون حب من الله لعبده ولا يكون لقاء؟

كيف يكون ودّ من الله لعبده ولا تكون ضيافة؟

كيف تكون رحمة من الله لعبده ولا تكون طاعة من العبد لربه؟

ثانياً: أن تكون مظهراً لسيطرة العقيدة على أصحابها تنظم حياتهم، وتوجه سلوكهم فيها يتوجهون، وعنها يصدرون، ولأوامرها ينفذون، تملك قلوبهم ومشاعرهم في القول والفعل.. في السفر والحضر.. في الصحة والمرض.. في الرضا والغضب.. في السلم والحرب من ليل أو نهار.

ثالثاً: أن تكون تجرداً لله في دنيا الواقع الإسلامي:

فالصلاة انفصال عن كل ما سوى الله من أجل الاتصال بالله.

والصيام ترفع عن النقص البشري لتخلص الروح إلى التأمل في كمال الله.

والزكاة بذل المادة - على حب - في سبيل مرضاة الله.

والحج تجرد من الذنوب.. من الثياب.. من الشهوات بل خروج إلى الله من أول لحظة في تلبية صادقة لله.

والجهاد بيعة صادقة. وصفقة رابحة فيه التجرد الكامل لله والتقدم في سبيله عنطواعية ورضا وإخلاص ببذل الروح والمال قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ﴾[1]

---

(١) التوبة: ١١٢

رابعاً: أن تكون فصولاً دراسية تدريبية تصقل فيها النفس وتدرب الإرادة على سلامة الصدر، وطهارة القلب، وبذل الندى وكف الأذى، وتحمل مشاق الحياة وتكاليفها.

مزاياها:

تمتاز العبادات بمزايا منها:

أولاً: أنها خالصة لله وحده يقول الله تعالى:

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾(١)

وفي الحديث القدسي:

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك فيه غيري فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك.»

ثانياً: أنها صلة مباشرة بين العبد وربه فلا تحتاج إلى وسيط وإلا تحولت إلى وثنية جاهلية حيث كانوا يقولون:

﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾(٢)

ثالثاً: أنها مبنية على التيسير لا الحرج قال تعالى في وصف أولي الألباب: ﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ﴾(٣)

---

(١) البينة: ٥
(٢) الزمر: ٣
(٣) آل عمران: ١٩١

وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾[1]

قال النبي صلى الله عليه وسلم:

« بعثت بالحنيفية السمحة » أي بالملة فهي:

حنيفية في التوحيد

سمحة في العمل

روى البخاري عن أبي جحيفة قال:

آخى النبي صلى الله عليه وسلم بين سلمان وأبي الدرداء، فزار سلمان أبا الدرداء، فرأى أم الدرداء متبذلة، فقال لها: ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء، فصنع له طعاماً. فقال: كل، فإني صائم. فقال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، قال: نم، فنام، ثم ذهب، فقال: نم، فلما كان في آخر الليل قال: قم الآن، فصليا.

فقال له سلمان:

إن لربك عليك حقاً

ولنفسك عليك حقاً

ولأهلك عليك حقاً

فأعط كل ذي حق حقه

فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:

(١) الحج: ٧٨.

صدق سلمان.
وقالت عائشة رضي الله عنها: ما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثماً.
ومن ثم شرع الله التيمم، والمسح على الخفين، وقصر الصلاة.
وقد وسع الله على عباده.
فبسط عليهم التوبة ما دامت الروح في الجسد، وجعل لكل سيئة كفارة تكفرها من توبة أو حسنة، وجعل بكل ما حرم عليهم عوضاً من الحلال أنفع لهم منه فإذا كان هذا شأنه مع عباده فكيف يكلفهم ما لا يقدرون عليه؟[١]

رابعاً: أن المعتبر فيها النية والقصد

قال صلى الله عليه وسلم:

«إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه»
ولقد قرر القرآن ذلك من قبل، وبين أن الطريق:
إما الحياة الدنيا وزينتها.. وإما الله ورسوله والدار الآخرة.
قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٣٩

أُمَتِّعۡكُنَّ وَأُسَرِّحۡكُنَّ سَرَاحٗا جَمِيلٗا ٢٨ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمٗا[1]

هذه العبادات مقصودة لذاتها

يحاول بعض ذوي النيات الخبيثة صرف المسلم عن العبادات بدعوى أنها وسائل لغايات يمكن تحقيقها بأعمال كثيرة ألصق بالمجتمع والحياة وتلك دعوى مرفوضة..

أولاً: أنها شعائر مشتركة بين المرسلين، أمرهم الله بها ودعوا إليها.

ففي الصلاة والزكاة:

يقول ابراهيم:

رَبِّ ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي

رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

ويمتدح بهما اسماعيل:

وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرۡضِيّٗا

---

(١) الاحزاب: ٢٨ - ٢٩.

وأمر موسى بالصلاة في ساعات الوحي الأولى:

﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾

وأوصى بهما عيسى في مهده:

﴿وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا﴾

وأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم:

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ﴾

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾

في الصوم:

قال تعالى:

﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾

وقال صلى الله عليه وسلم:

أحب الصيام إلى الله صيام داود... كان يصوم يوماً ويفطر يوماً.

في الحج:

قال تعالى:

﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَجِّ يَأۡتُوكَ رِجَالٗا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٖ يَأۡتِينَ مِن كُلِّ

فَجٍّ عَمِيقٍ[1]

ثانياً: أن الله أمر بأدائها والمحافظة عليها وتوعد من تهاون بها.

في الصلاة[2]:

حدد لها أوقاتاً معلومة فقال:

إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَـٰبًا مَّوْقُوتًا[3]

أمر بالمحافظة عليها في الأمن والخوف فقال سبحانه:

حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ[4] وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا ۖ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا۟ تَعْلَمُونَ[5]

---

(١) الحج: ٢٧

(٢) فرضت ليلة الإسراء

(٣) النساء: ١٠٣

(٤) هي صلاة العصر فعن علي رضي الله عنه: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم الأحزاب: ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً كما شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غابت الشمس. رواه البخاري ومسلم

(٥) البقرة: ٢٣٨ - ٢٣٩

تهدد المضيعين لها الساهين عنها فقال:

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾(١)

وقال: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡمُصَلِّينَ ٤ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَن صَلَاتِهِمۡ سَاهُونَ﴾(٢)

وقال: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾(٣)

وقال صلى الله عليه وسلم:

أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة فإن صلحت صلح سائر عمله، وإن فسدت فسد سائر عمله.

في الزكاة(٤):

أمر بها فقال:

﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ﴾(٥)

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾(٦)

---

(١) مريم: ٥٩
(٢) الماعون: ٤ - ٥
(٣) المدثر: ٤٢ - ٤٣
(٤) فرضت بمكة وحددت مقاديرها في السنة الثانية من الهجرة
(٥) التوبة: ١٠٣
(٦) البقرة: ٢٦٧

حدد وقتها فقال:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّٰتٍ مَّعْرُوشَٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ (١)

وعين مصارفها فقال:

﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْعَٰمِلِينَ عَلَيْهَا وَٱلْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَٱلْغَٰرِمِينَ وَفِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (٢)

وتوعد مانعيها فقال:

﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم:

من آتاه الله مالاً فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع له زبيبتان، ثم يطوقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلهزمتيه، ثم يقول: أنا كنزك..

---

(١) الأنعام: ١٤١

(٢) التوبة: ٦٠

(٣) التوبة: ٣٤ - ٣٥.

أنا مالك ثم تلا:

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾

في الصوم[١]:

أمر به فقال:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾[٢]

وتهدد من تركه فقال صلى الله عليه وسلم:

من أفطر يوماً من رمضان في غير رخصة رخصها الله له لم يقض عنه صيام الدهر كله وإن صامه.

في الحج[٣]:

أمر به سبحانه فقال:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾[٤]

---

(١) فرض في السنة الثانية من الهجرة
(٢) البقرة: ١٨٥
(٣) فرض سنة ست بعد الهجرة
(٤) آل عمران: ٩٧

وقال صلى الله عليه وسلم:

يأيها الناس إن الله كتب عليكم الحج فحجوا...

قال رجل: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً.

ثم قال صلى الله عليه وسلم: لو قلت: نعم لوجبت ولما استطعتم ثم قال: ذروني ما تركتكم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم، واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه.

حدد مواقيته فقال:

ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ

في الجهاد:

أمر الله به فقال: وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ

وقال صلى الله عليه وسلم:

من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من النفاق.

وقال: ما ترك قوم الجهاد في سبيل الله إلا عمهم الله بالعذاب

ثالثاً: أنها تعلي الغرائز

فالله الذي خلق الإنسان لا يدعوه إلى كبت غرائزه كبتاً شديداً ينتهي إلى عقد نفسية وأخلاقية خطيرة وإلى رهبانية مبتدعة.

روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه قال:

جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً.

وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر.

وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً.

فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني.

كذلك لا يدعوه إلى إرسال الغرائز مطلقة تعربد وتخرب، ولكن لا بد من قيد:

من يكبح الغرائز في جماحها؟

من يخفف من حدتها وغلوائها؟

من يعليها حتى لا تتكون العادات الضارة؟

أيكفي العقل وحده لإلزام الغرائز، وكشف وجوه الخير والشر في كل الأمور؟

لا..

ولهذا شرع الله العبادات أعمالاً تتكرر ليتغلب الإنسان على أهوائه، ويعلي غرائزه.

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: يا معشر الشباب من استطاع

منكم الباءة فليتزوج فإنه آغض للبصر، وأحصن للفرج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء.

رابعاً: أنها النظام الذي شرعه الله تتمثل فيه طاعته، وتتحقق به مرضاته، وتنال به جنته.

فكيف يكون التجرد لله في ترك منهجه؟

وكيف يستسيغ عاقل أن يقدم أهواء البشر على ما شرع الله؟

ذلك سر الهلاك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه.

آثارها

إن العبادات روافد لزكاة النفس، وطهارة القلب، وتقوية الصلة بالله وبالناس، ومدارج لكل من ينشد الكمال، ويسعى إلى آفاقه على بصيرة من هدى الله.

فالصلاة:

ترتفع بالإنسان عن السقوط في وحل الشهوات، وتسمو به عن نتن الرذائل والفواحش، وتنهاه عن كل ما ينكره الشرع والعقل من قول أو عمل.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (١)

ثم هي تكسب سلامة الصدر، ونقاء السريرة من الحقد والحسد، وتغسل

---

(١) العنكبوت: ٤٥

القلب من النفاق والرياء، يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: إن لله ملكاً ينادي عند كل صلاة: يا بني آدم قوموا إلى صلاتكم التي أوقدتموها فأطفئوها.

كما أنها تعلم المسلم النظام والطاعة وحسن القيادة وتنشر لواء المساواة والتعاطف والإخاء..

ومن ثم يحدد الحديث القدسي خمسة شروط لمن يريد قبول صلاته فيقول سبحانه فيما رواه البزار:

ليس كل مصل يصلي، إنما أتقبل الصلاة:

من تواضع لعظمتي

ولم يستطل على خلقي

ولم يبت مصراً على معصيتي

وقطع نهاره في ذكري

ورحم المسكين وابن السبيل، والأرملة، ورحم المصاب... ذلك نوره كنور الشمس أكلؤه بعزتي واستحفظه بملائكتي، وأجعل له في الجهالة علماً، وفي الظلمة نوراً ومثله في خلقي كمثل الفردوس في الجنة. - رواه البزار

الصيام:

تدريب المسلم على سعة الصدر، والتجمل بالصبر، والقدرة على التحمل، وحرمان النفس من شهواتها، والسمو بها عن الكذب والخداع، والإضرار بالناس، والعزوف عما حرم الله.

قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم:

إن فلانة تصوم نهارها، وتقوم ليلها، وتؤذي جيرانها بلسانها، فقال: لا خير فيها هي من أهل النار.

وقيل له صلى الله عليه وسلم:

إن فلانة تذكر من قلة صلاتها وصيامها، وأنها تتصدق بالأقط - يعني قطع الجبن - ولا تؤذي جيرانها قال: هي من أهل الجنة - رواه أحمد.

وقال صلى الله عليه وسلم:

من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه. - البخاري

كما يربط المسلم بانتصارات إسلامية خالدة:

ففي السابع عشر من رمضان من السنة الثانية للهجرة كانت غزوة بدر.

وفي العاشر من رمضان من السنة الثامنة للهجرة كان فتح مكة.

وفي الثاني والعشرين من رمضان من السنة الثامنة والخمسين والستمائة من الهجرة كانت موقعة عين جالوت.

الزكاة:

تثمر الحب، وزكاة النفس، وطهارة المجتمع، وإسعاد أفراده فهي إرواء للظامىء، وإشباع للجائع، وسلوة للبائس، وتفريج عن المكروب.

يقول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾(١)

وجعلها حقاً مكتسباً، وفرضاً لازماً قال تعالى:

﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ﴾(٢)

---

(١) التوبة: ١٠٣

(٢) الذاريات: ١٩

وتوسع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصدقة فقال:
« تبسمك في وجه أخيك صدقة ، وأمرك بالمعروف ونهيك عن المنكر صدقة ، وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة ، وإفراغك من دلوك في دلو أخيك لك صدقة ، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة » البخاري .

الحج

يربي المسلم على احتمال الشدائد والمشقات والصبر على المكاره ، ومواجهة الحياة كما فطرها الله بأزهارها وأشواكها ، وحرها وقرها .

يدرب المسلم على كثير من الخلال الحميدة والخلق النبيل ، والسلوك الطيب كالتواضع ، وخدمة الآخرين ، وحب الغير ، والعمل على إشاعة روح الإيثار بين الجماعة .

قال الله تعالى:

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾(١)

كما يجدد وثيقة المساواة عند كل شعيرة من شعائره ويحقق الوحدة الإسلامية الكبرى في ظل الله قولاً وعملاً وغاية وهدفاً .

---

(١) البقرة: ١٩٧

ويربط المسلم بذكريات خالدة، وأطياف ترف حول البيت من قريب أو بعيد.

هذا طيف إبراهيم وهو يودع البيت فلذة كبده اسماعيل وأمه هاجر..ويتوجه إلى الله بقلبه الخافق:

﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ (١)

هذا طيف هاجر تستروح الماء لنفسها ولطفلها مهرولة بين الصفا والمروة ثم تجد في الجولة السابعة ينبوع الرحمة يتدفق بين يدي الرضيع.. إنه زمزم.

هذا طيف إبراهيم يجود بأحب الناس إليه، ويجود بأعز من في الوجود عليه استجابة لأمر الله، ويتبعه اسماعيل إلى المكان الذي سيذبح فيه يحكي القرآن ذلك:

﴿يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ (٢)

فلما كان الاستسلام منهما كان الفداء من الله:

﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾

---

(١) ابراهيم: ٣٧

(٢) الصافات: ١٠٧

هذا طيف ابراهيم واسماعيل وهما يرفعان قواعد البيت:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١)

هذا طيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يدخل مكة فاتحاً ويحطم الأصنام التي كانت حول البيت قائلاً:

﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (٢)

هذا طيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يخطب في حجة الوداع. فيحرم الدماء والأعراض والنهب والثأر ويقضي مآثر الجاهلية، ويلغي الربا، ويؤكد المساواة ويرفع من شأن المرأة.

هذا طيف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يرحب بالحجاج ويبشرهم برضوان الله:

مرحباً بوفد الله.. مرحباً بوفد الله.. مرحباً بوفد الله الذين إذا سألوا الله أعطاهم، ويخلف عليهم في الدنيا ويجعل لهم في الآخرة بكل درهم ألفاً.

الجهاد:

تأمين سير الدعوة إلى الله، وحماية الدعاة حتى يبلغوا رسالة الله ويحرروا النفوس من الطواغيت المتألهة في أرض الله.

---

(١) البقرة: ١٢٧

(٢) الإسراء: ٨١

قال تعالى:

﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ (١)

وقال:

﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٢)

فالسلام في الإسلام يقوم على أمرين:

(١) أن تنقطع الفتن التي تلاحق المسلمين في كل أرض.

(٢) أن يكون الدين كله لله.

قال تعالى:

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ ۚ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (٣)

ويحدد ربعي بن عامر - أحد جنود الإسلام - أبعاد رسالة المسلم حين سأله رستم قائد جيش الفرس قبل موقعة القادسية:

---

(١) البقرة: ١٩١

(٢) الممتحنة: ٨

(٣) الأنفال: ٣٩ - ٤٠

ما الذي جاء بكم؟

فقال:

إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

وتحفظ السنة المطهرة للمرأة المسلمة نصيباً في الجهاد الإسلامي.

أثبت البخاري تحت عنوان «باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال» عن أنس رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد انهزم الناس..عن النبي قال: ولقد رأيت عائشة بنت أبي بكر، وأم سُليم وإنهما لمشمرتان أرى خَدَمَ سوقهما، تنقلان القربعلى متونهما - ظهورهما - ثم تفرغانه - أي الماء - في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملآنها، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم.

وذكر تحت عنوان «باب مداواة النساء الجرحى في الغزو» عن الربيع بنت مُعوَّذ قالت كنا مع النبي نسقي، ونداوي الجرحى، ونرد القتلى إلى المدينة.

الفصل الثاني

صلة العقيدة بالأخلاق

أثر العقيدة - اهتمام القرآن بالفرد والأمة - اهتمام القرآن والسنة بتزكية النفس - أثر التوجيه الإسلامي - حماية الإسلام للأخلاق.

أثر العقيدة

قال الله تعالى:

﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (١)

إنه تصوير قرآني للعقيدة وأثرها في النفس الإنسانية فالعقيدة:

حياة ونور

سعادة ورضا

شجاعة وقوة

طاقة إلهية

تحيي العقل والقلب.. توقظ الشعور والحس.. تصحح الخلق والسلوك فيسعد الفرد وتطيب نفسه، وتنهض الأمة، ويلتئم شملها.

يقول ابن كثير:

هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن الذي كان ميتاً في الضلالة هالكاً حائراً، فأحياه الله:

أحيا قلبه بالإيمان، وهداه له، ووفقه لاتباع رسله.

---

(١) الأنعام: ١٢٢

﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾

أي يهتدي كيف يسلك، وكيف يتصرف

والنور هو القرآن كما رواه العوفي وابن أبي طلحة عن ابن عباس، وقال السدي: هو الإسلام، والكل صحيح.

﴿لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾

أي لا يهتدي إلى منقذ ولا مخلص مما هو فيه.

ولقد صنعت العقيدة في دنيا الإسلام الأولى:

من الحفاة قادة..

من العبيد سادة..

من الجهال أعلام علم.. وكواكب هداية.. وأبطال فداء.. حرروا الممالك، ومصروا الأمصار، وامتدت دولة الإسلام من أطراف الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً كيف تم ذلك في أقل من قرن؟

أولاً: اهتمام القرآن بتكوين الفرد

لقد غذى القرآن أرواحهم، فإذا هي متصلة بالله، مستجيبة لهداه، مستشرفة لرضاه وكان الاهتمام بالفرد واضحاً في توجيهاته، لأنه اللبنة الأولى في تكوين الأمة.

من ذلك:

١ - كانت أول مادة دستورية نزلت تحريراً للفرد

من ظلمات الشرك

من أوضار الجهل

من ذل التقليد

من نيران الاستعلاء والفوارق المفتعلة.

قال الله تعالى:

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ (١)

ب - سلح الشاب بدستور العقيدة والأخلاق فجاء على لسان لقمان:

﴿ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ

يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ

يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ

وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ

وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (٢)

تلك موعظة لقمان لولده.

إنها تريك كيف قام القرآن بتربية الفرد.

---

(١) العلق: ١ - ٥

(٢) لقمان: ١٣ - ١٩

من قمة السلوك مع الله:

بتوحيد ذاته فلا شريك له

وتوحيد صفاته فلا يعرب عنه شيء

إلى أدنى السلوك مع الناس:

بالاعتدال في المشي

والغض من الصوت

وفيما بين ذلك أربعة أوامر.. ونهيان.

أمر بإقامة الصلاة ليكون المسلم شاكراً لله.

دعوة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ليكون المسلم داعية إلى الله.

ثم نهي عن الاستعلاء والمرح في الأرض ليكون قدوة صالحة في الناس.

وجاءت الوصية بالوالدين بينها اعتراضاً واستطراداً لما فيها من التأكيد على توحيد الله حيث يقول سبحانه:

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَا﴾[1]

ح - احتفى القرآن بالشباب مثلاً رائدة، ونماذج حية للعقيدة الصحيحة، والإيمان الصادق، والجهاد الخالص لله، وأشاد بهم قوة في الحق لها فاعليتها وإيجابيتها في الحياة. والشباب أس النهضات، ورسل الدعوات، وحملة اللواء، جعل الله منهم في الأمم على مسار التاريخ منار هدى، ولواء حق، ولسان صدق، وبقيت على الأيام آيات تتلى، ونوراً باهراً.

---

(١) لقمان: ١٥

هؤلاء أصحاب الكهف:

﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ
قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ
إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم
بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ
أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾(١)

إنهم فتية جمع فتى وهو من بذل الندى، وكف الأذى، وفعل المكرمات، واجتنب المحرمات.

وقيل: من لا يدعي قبل الفعل، ولا يزكي نفسه بعد الفعل إنهم فتية في ريعان شبابهم.. ونضارة وجوههم، قلوبهم فتية، وفطرهم نقية، فيهم شجاعة لا تخاف الأخطار وجرأة تأبى الذل والهوان.

كرهوا ما عليه قومهم..

وأنكروا أن يكون لله شركاء..

وأعلنوا أن ذلك شطط ومجانبة للحق والصواب..

لكنهم لم يكتفوا بالكراهية، بل أعلنوا سخطهم في مظاهرة سلمية حيث تركوا لقومهم دنياهم العريضة اللينة المنيرة إلى كهف ضيق مظلم خشن

---

(١) الكهف: ١٣ - ١٦

فإذا الكهف الضيق فسيح بإذن الله..
وإذا الكهف المظلم مضيء بنور الله..
وإذا الكهف الخشن لين برحمة الله..

هذا ابراهيم أبو الأنبياء عليهم الصلوات يتفتح عقله وقلبه على التوحيد وهو في شبابه فماذا كان؟

انظروا هذا المثل الكريم:

ثار على التقليد فحطم الأصنام
ودعا إلى التوحيد فهزم الإلحاد

ها هوذا يقف وحده يجاهر بالنكير على أبيه وقومه إشراكهم بالله.

قال:

﴿مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ۝٥٣ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1]

ولما لم ينتفعوا بآيات الله صرخ مقسماً:

﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾[2]

وبهذا انتقل صراع الحق من الحجة القولية إلى المقاومة الفعلية فتناول إبراهيم فأسه، ومر على الأصنام.

﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ﴾[3]

---

(١) الأنبياء: ٥٣ - ٥٤
(٢) الأنبياء: ٥٧
(٣) الأنبياء: ٥٨

وبهذا رسم إبراهيم الشاب خطة الجهاد في سبيل الله:

- معارضة للباطل بالحجة البالغة حتى يفيء أهله إلى الرشاد.
- مقاومة عنيفة إن استبد بهم الغي والضلال.
- عزم لا يلين، وصبر على المكارة مهما اشتدت وقست.

وحين سفه أحلامهم قائلاً:

﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١)

صرخ الشيطان في آذانهم:

﴿حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ﴾ (٢)

لكن.. عين الله تراه وعناية الله ترعاه

وجاء النداء وحكم الله ونصره:

﴿يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۝٦٩ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ﴾ (٣)

وزلزلت تلك الآية الباهرة عرش نمرود فاستشاط غضباً، ودعا إبراهيم إليه، وحاجّه في ربه ممارياً بالباطل.

يسجل القرآن ذلك فيقول:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ

---

(١) الأنبياء: ٦٧

(٢) الأنبياء: ٦٨

(٣) الأنبياء: ٦٩ - ٧٠

﴿قَالَ أَنَا أُحْيِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (١)

هكذا يعرض القرآن الشباب أصحاب عقيدة من أجلها يحيون.. وفي سبيلها يموتون.. وعليها يلقون الله.

د - ضرب الأمثال للناس لعلهم يذكرون

فقد اتخذ القرآن من المثل أسلوباً لبيانه، ووسيلة لوعظه وإرشاده لما فيه من تشبيه الشيء الخفي بالشيء الجلي الواضح تأكيداً لمعناه، ونهاية في الإيضاح.

ولم تكن المرأة سقطاً في حساب الإسلام فقد جعلها الله مثلاً للكافرين كما جعلها مثلاً للمؤمنين فقال:

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ (٢)

والخيانة في القرآن أنواع:

خيانة في النظرة:

﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ (٣)

---

(١) البقرة: ٢٥٨

(٢) التحريم: ١٠

(٣) غافر: ١٩

خيانة في العرض: ﴿لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾

خيانة في العهد: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ﴾(١)

خيانة في الإيمان: ﴿وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ﴾(٢)

وخيانة امرأتي نوح ولوط كانت:

خيانة دعوة لا خيانة فراش

خيانة دين لا خيانة عرض

فمعاذ الله أن تكون زوجة أحد من رسله بغياً، أو يكون فراشه مأوى للزناة..

أماالأولى فكانت كافرة تشارك قومها في السخرية من زوجها والاستهزاء به.

وأما الأخرى فكانت كافرة أيضاً تساير قومها ضد زوجها فتذيع خبر ضيوفه، وتعلم قومها بأمرهم.

فقد جحدتا النعمة.. وكفرتا العشير كما كفرتا بالرسالة من قبل.

وتقريراً لمبدأ التبعة الفردية يعلن القرآن عدم الانتفاع بقرابة الزوجية لانعدام رابطة الإيمان.

﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾(٣)

---

(١) يوسف: ٥٢

(٢) الأنفال: ٥٨

(٣) الأنفال: ٥٨

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾(١)

ذلك أنها حين علمت بدعوة موسى وهارون، وتغلبهما على سحرة فرعون أعلنت إيمانها برب العالمين دون اعتبار لهواتف الملك.. ولا لضغوط القصر.. وتقبلت وعيد فرعون وعذابه الطاغي وهي تناجي ربها:

﴿إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾(٢)

وهذا مثل آخر للتجرد لله:

إنها أمل ولهانة

إنها نذر شاكرة

فكان لها القبول الحسن.. والنشأة الحسنة.. والرزق من غير حساب.. والطهارة والاصطفاء.

قال تعالى:

﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾(٣)

هكذا تفعل العقائد بأصحابها.

هكذا يتحمل أصحاب العقائد في سبيلها.

---

(١) التحريم: ١٠

(٢) التحريم: ١١

(٣) التحريم: ١٢

ثانياً: اهتمام القرآن ببناء الأمة

أ - هذه الوصايا العشر في كتاب الله

يقول ابن مسعود من أراد أن ينظر إلى وصية محمد صلى الله عليه وسلم التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى:

قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ
أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا
وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ
وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ
وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ
وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا
وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ
وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ
وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ
عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١)

---

(١) الأنعام: ١٥١ - ١٥٣

إنها دعائم الحياة الآمنة للأمة كلها أفراداً وجماعات:
فهم متحررون من عبادة العبيد، لا يعبدون إلا الله هو المطاع
أمره.. المتبع صراطه.
هم محاطون بسياج قوى من الأواصر المتينة في الأصول والفروع.
فالبر بالوالدين.. والرعاية للأولاد.
والحياة في ظلالها تقوم على:
حرمة الدماء.. صيانة الأعراض..
حماية الأموال.. العدل الدائم.. الوفاء الشامل.
تلك وصايا الله، وسبيله المستقيم.

وما دونه سبل الشيطان:

ب - تسجيله لأهم ملامح الأمة المسلمة في سلفها وخلفها:

في المهاجرين:

اعتمادهم على الله في فضله ورضوانه
نصرتهم لله ولدينه ولرسوله
صدقهم مع الله عقيدة وسلوكاً
صدقهم مع رسوله اقتداء واتباعاً
صدقهم مع الحق تمثلاً ودفاعاً
قال الله تعالى:

﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (١)

---

(١) الحشر: ٨

في الأنصار:

الحب الصادق لمن لجأ إليهم

التسابق إلى إيوائهم فيما بينهم

الإيثار الذي لم تشهد البشرية له نظيراً

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]

في الخلف:

ذكرهم لكل من شاركهم في الإيمان

طلب المغفرة من الله لهم ولمن سبقهم

طلب طهارة قلوبهم من الغل للمؤمنين

فالإيمان هو الوشيجة التي تتخطى الجنس

والنسب والزمان والمكان.

قال تعالى:

﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[2]

---

(١) الحشر: ٩

(٢) الحشر: ١٠

ج - دعوته إلى ركيزتي الأمة المسلمة

فلكي تقوم الأمة برسالتها، وتنهض بأداء دورها في عالم يتطلب القيادة الراشدة، والمنهج الكامل لا بد لها من ركيزتين هما:

١ - ركيزة الإيمان بالله وتقواه:

قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (١)

٢ - ركيزة الأخوة المعتصمة بكتاب الله

إنها نعمة الله التي ألفت بين القلوب فتجمعت حول راية الإسلام حَذِرةً من أسباب التفرق والاختلاف.

قال تعالى:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (٢)

فإذا تم للأمة الركيزتان أعطت المثل والقدوة وأخذت مكانها

---

(١) آل عمران: ١٠٢

(٢) آل عمران: ١٠٣

من رأس القيادة وصدر العالم.

وإذا فقدت الركيزتين أو إحداهما ضعف شأنها، وهوى نجمها، وسقطت رايتها، وتمزق شملها وتكالبت عليها ذئاب الدنيا من حولها فأذلوا أنفها، وأزالوا سلطانها، وأصبحت غرضاً لكل رام، وطعاماً سائغاً لكل من دان وهان.

وما يجري في دنيا المسلمين اليوم من عدوان سافر، وهجوم مدبر، وفتن تلاحقهم بكل أرض، توقد نيرانها
الصليبية الحاقدة
والصهيونية المارقة
والشيوعية الجاحدة
إلا ثمرة تفرق الكلمة.. وانحلال عرى الوحدة.. وتعدد الرايات، واتباع الأهواء.

﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِى غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ (١)

وقد أعلن القرآن وحدة الأمة فقال:

﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ (٢)

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ﴾ (٣)

---

(١) المؤمنون: ٥٣ - ٥٤
(٢) الأنبياء: ٩٢
(٣) المؤمنون: ٥٢

ورسم وسائل الإبقاء عليها عزيزة الجانب فقال:

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾(١)

د - تحذيره من نهايات الظالمين، لتستقيم قناة الأمة، وتلزم سبيل الله.

حمل القرآن للناس أخبار الأمم السابقة والطغاة الذين أنعم الله عليهم بالأمن العزيز، والرزق الوسيع فقابلوا تلك النعم بالكفر والعصيان

فإذا الأمن فتن ومخاوف

وإذا الأرزاق ضيق وشدائد..

فهل أيقظتهم تلك المقدمات الزاجرة، والأمثلة الشاهدة؟

﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾(٢)

من ظلم لربهم بالتعطيل أو التشريك.

من ظلم لأنفسهم بالبطالة أو الترهيب.

من ظلم لغيرهم بالتقتير أو التبذير.

استحبوا العمى على الهدى فأهلكهم الله

---

(١) الانفال: ٤٦

(٢) النحل: ١١٢

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ (١)

وقد كررت أخوات لهذه الآية في كتاب الله إيقاظاً للأمم اللاهية، وتذكيراً بالذاهبين من الأمم السابقة، لترى مصيرها في مصائر الهالكين.

إنه يذكرهم بأسمائهم:

﴿وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ﴾ (٢)

فهل من معتبر؟

لا نجاة لمن لا يعتبر بسير الذاهبين فرداً كان أو جماعة

لا نجاة لمن لا توقظه النذر الإلهية فرداً كان أو جماعة

لا نجاة لمن لا تزجره العبر الكونية فرداً كان أو جماعة

لا نجاة لمن يتعامى عن آيات الله فرداً كان أو جماعة

وغداً يشهدون على أنفسهم

﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

ثالثاً: اهتمام القرآن والسنة بتزكية النفس

ربى الإيمان في النفوس، فإذا هي مدركة لأوامر الله،

---

(١) ق: ٣٦

(٢) النجم: ٥٠ - ٥٦

مستقيمة على دين الله، أزال الران عن القلوب فعرفت الحق، وأذهب الغشاوة عن العيون، فأبصرت الهدى، وأوجب عليهم الخلاص من عيبة الجاهلية وحميتها، وألزمهم كلمة التقوى، وجدد فيهم الشعور الأخلاقي، وغرس فيهم من الفضائل ما لا يحصى منها:

(١) الخشوع لعظمة الله وجلاله، والتوكل عليه، وأداء فرائضه: قال تعالى:

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

(٢) اتباع هوى النفس، وشهوة القلب، وميل الفطرة لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال:
لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به
وقال: لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده ونفسه التي بين جنبيه.

وفي الصحيح أن عمر رضي الله عنه قال: يا رسول الله والله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي فقال صلى الله عليه وسلم: لا يا عمر، حتى أكون أحب إليك من نفسك
فقال عمر: والذي بعثك بالحق لأنت أحب إلي من نفسي
فقال صلى الله عليه وسلم: الآن يا عمر. أي الآن تم إيمانك.

(٣) التراحم والوفاء والصبر قال الله تعالى:

﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (١)

(٤) تقوية الأواصر والإخاء

قال صلى الله عليه وسلم:

لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه

وقال: والله لا يؤمن.. والله لا يؤمن.. والله لا يؤمن

قالوا: ما ذاك يا رسول الله؟

قال: الجار لا يأمن جاره بوائقه.

وقال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره

ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه

(٥) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وظيفة الأنبياء، وسنة الخلفاء، وواجب العلماء، ووسيلة الإصلاح.

---

(١) البقرة: ١٧٧

قال تعالى:

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (١)

ذلك توجيه إلهي، وأمر بأن تكون منكم أمة منتصبة للقيام بأمر الله في الدعوة إلى الخير، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأولئك هم المفلحون

قال الضحاك: هم خاصة الصحابة، وخاصة الرواة يعني المجاهدين والعلماء.

وقال أبو جعفر الباقر: قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ثم قال: الخير اتباع القرآن وسنتي... رواه ابن مردويه

فالواجب الأمر بالمعروف وهو ما استحسنه الشرع والعقل أو ما وافق الكتاب والسنة.

والنهي عن المنكر وهو ما استقبحه الشرع والعقل، أو ما خالف الكتاب والسنة.

وذكر الأمر والنهي بعد الدعوة إلى الخير من باب عطف الخاص على العام للتأكيد والاهتمام.

لكن من الآمر والناهي؟

أجماعة خاصة؟

---

(١) آل عمران: ١٠٤

أم الأمة كلها؟

هناك رأيان، والخلاف قائم على مفهوم ﴿منكم﴾ في الآية

فمن قال: إن الآمر والناهي جماعة خاصة

فهم أن - مِنْ - في الآية للتبعيض مستدلاً:

أولاً: أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروض الكفاية

ثانياً: أنه لا يصلح له إلا من علم بالمعروف والمنكر، وعلم كيف يرتب الأمر في إقامته.

فإنه يبدأ بالسهل فإن لم ينفع ترقى إلى الصعب

قال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ ثم قال: ﴿فَقَاتِلُوا﴾[1]

ومن قال: إن الآمر والناهي الأمة كلها

فهم أن - مِنْ - في الآية للبيان أي كونوا أمة تأمرون مستدلاً:

أولاً: بقوله تعالى:

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾[2]

ثانياً: قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه،

---

(١) الحجرات: ٩

(٢) كان: عبارة عن وجود شيء في زمان ماض على سبيل الإيهام كأنه قيل: وجدتم خير أمة.
أو كنتم في علم الله أو في اللوح خير أمة.
أو كنتم في الأمم قبلكم مذكورين وموصوفين بأنكم خير أمة.

فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان. وفي رواية: وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل. - رواه مسلم

وقال صلى الله عليه وسلم:

لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً من عنده، ثم لتدعنه فلا يستجيب لكم. رواه الترمذي وابن ماجة

وعن علي كرم الله وجهه:
أفضل الجهاد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر[١]

(٦) الحب:

لقد احتفى الإسلام بروابط الصداقة النقية ووشائج الحب الصادق، وطالب بالحرص عليها لله وفي الله، وجعله إحدى خصال ثلاث يدرك بها المسلم حلاوة الإيمان ولذته قال صلى الله عليه وسلم:

«ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان:
أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.
وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله
وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار»

البخاري

---

(١) تفسير النسفي: ج ١ ص ١٧٩

وهذا ثواب الله وأجره في الآخرة للمتحابين:
يقول الله تعالى في الحديث القدسي:
« المتحابون بجلالي في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي » - أحمد
وقال صلى الله عليه وسلم:

إن من عباد الله ناساً ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله تعالى.
قالوا: يا رسول الله فخبرنا من هم؟
قال: هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها، والله إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يخافون إذا خاف الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس، وقرأ: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَاءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ.﴾ أبو داود

(٧) الأمانة:

سلوك إنساني فاضل، وخلق إسلامي نبيل، ومسئولية اجتماعية عظيمة.
جعلها الله صفة لأنبيائه، فجاء كل رسول يعلن أمانته في قومه بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(١)

وفي هذا دلالة على أن دعوة الله واحدة، وأن منهج الله واحد، وأن رسله جميعاً شركاء في الأمانة.

جعلها الله صفة لجبريل فقال تعالى في وصفه:

(١) الشعراء: ١٠٧

﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ۝٢٠ مُّطَاعٖ ثَمَّ أَمِينٖ﴾ (١)

كما جاءت صفة للمؤمنين في قوله تعالى:

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ (٢)

وما أكثر الأمانات:

العلم أمانة.. العهود أمانة.. الحواس أمانة..

الديون أمانة.. الودائع أمانة.. الصلاة أمانة..

الوضوء أمانة.. الوزن أمانة.. الكيل أمانة..

ثم ينهى الله عن خيانتها فيقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ (٣)

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في مناجاته لربه:

« اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع وأعوذ بك من الخيانة فإنها بئست البطانة »

(٨) الشجاعة:

هي القوة في نصرة دين الله، والجرأة في الحق، جعلها الله

---

(١) التكوير: ١٩ - ٢١

(٢) المؤمنون: ٨

(٣) الأنفال: ٢٧

صفة للرسول وصحبه فقال:

﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (١)

وقد نهى الله موسى عن الخوف حين أوجس خيفة من فعل السحرة فقال له:

﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ (٢)

كما حذر المسلمين بعد غزوة أحد من الضعف والحزن وساق لهم البشارة بالنصر والغلبة فقال تعالى:

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (٣)

وقال صلى الله عليه وسلم: «إذا رأيت أمتي تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم» رواه الحاكم

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن نقول بالحق أينما كنا لا نخاف في الله لومة لائم» متفق عليه

(٩) التواضع:

دليل نبالة النفس.. وسلامة الصدر.. واستقامة الفكر..

---

(١) الفتح: ٢٩

(٢) طه: ٦٨

(٣) آل عمران: ١٣٩

وهو وسيلة إلى استمالة القلوب، وسبيل إلى رفعة الله وإعزازه.
امتن الله به على نبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾[1]

وحين جاء صناديد مكة وعظماء قريش يقولون:

اجعل لنا يوماً ولمن حولك من العبيد يوماً نزل قوله تعالى:

﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[2]

ونهى الإسلام عن الكبر والخيلاء قال تعالى:

﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[3]

وقال صلى الله عليه وسلم:
ما نقصت صدقة من مال
وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً..
وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله.

(١٠) الحياء وإماطة الأذى

قال صلى الله عليه وسلم: الإيمان بضع وستون شعبة

(١) آل عمران: ١٥٩
(٢) الكهف: ٢٨
(٣) الإسراء: ٣٧

فأفضلها قول لا إله إلا الله.
وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.
والحياء شعبة من الإيمان.

ذلك نبأ عن خلق المسلم، وقد جعله الرسول صلى الله عليه وسلم من كمال الإيمان فقال:

«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً» الترمذي
وجعله أفضل شيء في الميزان فقال:
«ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن»
الترمذي

بل جعل الخلق وسيلة لأن يمشي المسلم بين الناس عتيقاً من النار قال صلى الله عليه وسلم:

«إنه خلق كل إنسان من بني آدم على ستين وثلاثمائة مفصل فمن كبر الله، وحمد الله، وهلل الله، وسبح الله، واستغفر الله وعزل حجراً عن طريق الناس أو شوكة أو عظماً عن طريق الناس، أو أمر بمعروف، أو نهى عن منكر عدد الستين والثلاثمائة، فإنه يمشي يومئذ، وقد زحزح نفسه عن النار».

هذا هو القرآن.. يربي المسلم تربية كاملة فينظر إلى الإنسان نظرة شاملة تعنى به ظاهراً وباطناً وتهتم به قلباً وبدناً وترعاه جسماً ونفساً فيدعو: إلى الطهارتين: طهارة الباطن والظاهر ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾[1]

---

(١) البقرة: ٢٢٢.

إلى الزينتين: زينة القلب وزينة البدن

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ، ذَٰلِكَ خَيۡرٞ﴾ (١)

إلى الزادين: زاد النفس وزاد الجسم.

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ (٢)

رابعاً: القدوة الحسنة

تلك نصوص هادية، وحكم مرسلة، بل هي روح يسري في الكون كله، ونور يغمر الآفاق ما إن مست شغاف القلوب، وسكنت حنايا الصدور حتى تحولت في عالم الإسلام تطبيقاً مخلصاً، وحقاً واقعاً، وسلوكاً صادقاً.

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة، والمثل الكامل بل كان التطبيق العملي لمنهج الله.. كان القرآن يمشي على قدمين.. والنور الإلهي يسعى بين الناس. أمره الله بالاستقامة فقال سبحانه:

﴿فَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَ﴾ (٣)

فكان صلى الله عليه وسلم مستقيماً على منهج الله، ملتزماً

---

(١) الأعراف: ٢٦.

(٢) البقرة: ١٩٧

(٣) هود: ١١٢.

لحدود الله، ماضياً في تنفيذ أوامره، في تجرد كامل: فصلاته ونسكه وحركاته وسكناته، ومحياه ومماته لله رب العالمين، لا يميل عن هدى الله قليلاً ولا كثيراً يصور رهبته وحذره فيقول مشيراً إلى أمر الله في تلك الآية: شيبتني هود.

ولهذا يعتذر عن ميل القلب بشأن زوجاته صلى الله عليه وسلم فيقول:

هذا قسمي فيما أملك، ولا قسم لي فيما تملك ولا أملك.

وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن، ثم قرأت:

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ
الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ
إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ
فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ
وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (١)

(١) المؤمنون: ١ - ٩.

وحين جاء رجل يقول: يا رسول الله قل لي في الإسلام
قولاً لا أسأل فيه أحداً غيرك، قال:
قل آمنت بالله ثم استقم..
فالخلق رمز العقيدة
والاستقامة مظهر الإيمان
والسلوك النظيف ثمرة الاستقامة..

قال صلى الله عليه وسلم: لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه، ولا يستقيم قلبه حتى يستقيم لسانه.

أثر التوجيه الإسلامي

أ - استقامة الفرد

هذه الأضواء الشرقة حين تمكنت من النفس، واستقرت في القلب، أيقظت في الإنسان رقابة الله، والشعور بما بينه وبين خالقه، فاستقام المسلم على طريق الله، واتجهت إرادته إلى فعل الخير، وإشاعة معاني البر، بل أصبح نشاطه موجهاً إلى الله.

فإذا العربي نظيف القلب، سليم الصدر، نبيل العاطفة لا يعرف الغش.. ولا يضمر الحقد.. ولا يحمل الحسد.

عن أنس بن مالك قال: كنا جلوساً عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يطلع الآن عليكم رجل من أهل الجنة، فطلع رجل من الأنصار تنطف لحيته من وضوئه، قد علق نعليه بيده الشمال..

فلما كان الغد قال النبي مثل ذلك، فطلع ذلك الرجل مثل المرة الأولى،

فلما كان اليوم الثالث قال النبي مثل مقالته أيضاً، فطلع ذلك الرجل على مثل حاله الأولى. فلما قام النبي تبعه عبد الله بن عمر - تبع الرجل - فقال: إني لاحيت أبي فأقسمت ألا أدخل عليه ثلاثاً، فإن رأيت أن تؤويني حتى تمضي فعلت. قال: نعم.

قال أنس: فكان عبد الله يحدث أنه بات معه تلك الثلاث الليالي، فلم يره يقوم من الليل شيئاً، غير أنه إذا تعارّ ذكر الله عز وجل، حتى ينهض لصلاة الفجر، قال عبد الله: غير أني لم أسمعه يقول إلا خيراً.

فلما مضت الليالي الثلاث، وكدت أحتقر عمله، قلت: يا عبد الله لم يكن بيني وبين أبي غضب ولا هجرة، ولكني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لك - ثلاث مرات -: يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة فطلعت أنت الآن الثلاث مرات، فأردت أن آوي إليك، فأنظر ما عملك، فأقتدي بك، فلم أرك عملت كبير عمل، فما الذي بلغ بك ما قال رسول الله؟

قال: ما هو إلا ما رأيت.

قال عبد الله: فلما وليت دعاني، فقال: ما هو إلا ما رأيت، غير أني لا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشاً، ولا أحسد أحداً على خير أعطاه الله إياه.

فقال عبد الله: هذه التي بلغت بك. أحمد.

وإذا العربي جميل السمت حسن الهيئة استجابة لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله جميل يحب الجمال.

وقوله: من كان له شعر فليكرمه. أبو داود.

وعن أبي قتادة قلت يا رسول الله: إن لي جمة أفأرجلها؟

قال: نعم.. وأكرمها. فكان أبو قتادة ربما دهنها في اليوم مرتين. الموطأ.

وأتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم ثائر الرأس واللحية، فأشار إليه، كأنه يأمره بإصلاح شعره، ففعل، ثم رجع، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان». الموطأ.

نعم تغير الفرد المسلم.
فإذا الذي كان يثور لأتفه الأسباب صبور يعرض عن الجاهلين.
وإذا الذي كان يئد ابنته يطهو الطعام للمسكين واليتيم.
وإذا الذي كان يستبيح النهب الرخيص عفيف عند المغنم أمين على مال الله.

جاء في تاريخ الطبري جـ ٤ ص ١٦.

لما هبط المسلمون المدائن، وجمعوا الأقباض، أقبل رجل بحق معه، فدفعه إلى صاحب الأقباض، فقال هو والذين معه:
ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله عندنا، ولا يقاربه.
فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟
فقال: أنا والله لولا الله ما أتيتكم به، فعرفوا أن للرجل شأناً.
فقالوا: من أنت؟
فقال: لا والله لا أخبركم لتمدحوني، ولا غيركم ليقرظوني، ولكن أحمد الله، وأرضى بثوابه. فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه، فإذا هو عامر بن عبد القيس.

ولما وقف عمر على الخبر قال:
أشكر الله أن جعل في جيشي مثل هذا الأمين.
فقال أحد الحاضرين: يا أمير المؤمنين، عففت فعفوا، ولو رتعت لرتعوا.

وإذا الذي كان يتهرب من القانون يتحول نفساً لوامة تقبل على عقوبة الرجم في صبر ورضا تطهراً من الإثم.

جاء في صحيح مسلم جـ ٥ ص ١٢٠.

إن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني ظلمت نفسي، وزنيت، وإني أريد أن تطهرني، فرده.

فلما كان من الغد أتاه، فقال: يا رسول الله إني زنيت فرده الثانية. فأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى قومه فقال: أتعلمون بأساً تنكرون منه شيئاً؟

فقالوا: ما نعلمه إلا وفيّ العقل من صالحينا فيما نرى.

فأتاه الثالثة، فأرسل إليهم أيضاً، فسأل عنه، فأخبروه أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كانت الرابعة حفر له حفرة، ثم أمر فرجم.

ولم تكن المرأة المسلمة أقل من الرجل طلباً للتطهر في الدنيا تفادياً من عذاب الآخرة.

جاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله إني زنيت فطهرني، وأنه ردّها، فلما كان الغد قالت: يا رسول الله، لِمَ تردني؟ لعلك تردني كما رددت ماعزاً، فوالله إني لحبلى. قال: إما لا، فاذهبي حتى تلدي. قال: فلما ولدت أتته بالصبي في يده كسرة خبز، فقالت: هذا يا نبي الله قد فطمته، فحفر لها إلى صدرها، وأمر الناس فرجموها، فاستقبلها خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فنضح الدم على وجه خالد، فسبها، فسمع نبي الله سبه إياها، فقال: مهلاً يا خالد، فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس

لغفر له. ثم أمر بها، فصلى عليها، ودفنت.

وإنك لترى العربي الذي كان حريصاً على الدنيا تهفو نفسه إلى لقاء الله في جود وصدق.

جاء في صحيح مسلم جـ ٦ ص ٤٤.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض. فقال عمير بن الحمام الأنصاري: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: نعم.

قال عمير: بخ بخ.
قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما يحملك على قولك بخ بخ؟
فقال عمير: لا والله يا رسول الله رجاء أن أكون من أهلها.
قال: فإنك من أهلها.

فأخرج عمير تمرات من قرفه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر، وأقبل على معركته وهو يردد:

ركضاً إلى الله بغير زاد
إلا التقى وعمل المعاد
والصبر في الله على الجهاد
وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

ب - استقامة الأمة

تكون الشعب الإسلامي الأول من تلك اللبنات المؤمنة التي تابت وأنابت إلى ربها فكانت أهلاً لرعاية الله حيث عناها بالذكر، ووجه إليها الأمر بالاستقامة مع نبيه صلى الله عليه وسلم فقال:

﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ (١)

فإذا المجتمع الذي كانت تمزقه البغضاء والأثرة يقوم على الحب والإيثار.

يقول الله تعالى:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (٢)

وإنك لتجد ملامح هذه الحقيقة الكبرى في الكتاب والسنة فإذا جمعتها رأيت بين يديك أمة فريدة جديرة بأن تكون الخاتمة وأن تكون خير أمة أخرجت للناس، وتظل لها خيريتها ما وفت لله بعهودها، وقامت بالتزاماتها من الأمر بالمعروف.. والنهي عن المنكر.. والإيمان بالله.

ومن العناصر البارزة في صورة هذه الأمة الربانية:

الرحمة والشدة: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ (٣)

---

(١) هود: ١١٢.

(٢) الحشر: ٩.

(٣) الفتح: ٢٩.

الولاء والنصرة:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ (١)

التماسك والقوة:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ (٢)

الحنان والمودة:

مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى فيه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

وقال صلى الله عليه وسلم:

المؤمنون كرجل واحد إن اشتكى رأسه اشتكى كله وإن اشتكى عينه اشتكى كله.

وقال: المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً.

ولقد حافظ الإسلام على شخصية الأمة وكيانها حتى في ساعات الضعف النفسي، والهزيمة العسكرية، فأفسح لها أن تبدي رأيها، بل أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يستشيرها كيلا تفنى في شخص أو تذوب في فرد.

زمـــان الفرد يـــا فرعون ولى
ودالـــــت دولـــــة المتجبرينـــــا

---

(١) التوبة: ٧١.

(٢) الصف: ٤.

يقول الله تعالى:

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (١)

هكذا ربى الله الجماعة الإسلامية الأولى بأوامره ونواهيه ومواعظه وأحكامه يوماً بيوم بل ساعة بساعة في جميع شئونها كبيرها وصغيرها: فحين جاء جماعة من اليهود يقولون لرسول الله: صف لنا ربك.
نزل قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾

وحين قالت امرأة من الأنصار: يا رسول الله، إني أكون في بيتي على حال لا أحب أن يراني عليها أحد لا والد، ولا ولد فيأتي الأب، فيدخل علي وأنه لا يزال يدخل عليّ رجل من أهلي وأنا على تلك الحال فكيف أصنع؟

فنزل قوله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (٢)

وبين قمة التوحيد وقاعدة الاستئذان لم يترك الله شيئاً في التعليم والحكم في السياسة والقضاء، في الاجتماع والاقتصاد في المطعم والمشرب، في السلم

---

(١) آل عمران: ١٥٩.
(٢) النور: ٢٧.

والحرب إلا بينه خير بيان وأوضحه غاية الإيضاح.

قال تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾[1]

وقال صلى الله عليه وسلم: ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم. وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أمته كل شيء حتى أدب التخلي.

جاء في مسلم جـ ١ ص ١٥٤.

عن سلمان قال: قال لنا بعض المشركين - وهو يستهزىء - إني أرى صاحبكم يعلمكم حتى يعلمكم الخِراءة، فقال: أجل.. إنه ينهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه أو يستقبل القبلة، ونهى عن الروث والعظام، وقال: لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار.

حماية الإسلام للأخلاق

لما كانت الأخلاق تتأثر بعوامل ثلاثة هي:

الوراثة.. البيئة.. العادة.

فإن الإسلام اهتم بهذه المحاضن التي يولد فيها الخلق وتتربى في أكنافها العواطف، سواء أكان هذا الخلق

طبيعياً: وهو ما يكون الإنسان مفطوراً عليه كالحياء والشجاعة عند بعض الأطفال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمنذر بن عاذر:

(١) الأنعام: ٣٨.

إن فيك لخصلتين يحبهما الله: الحلم.. والأناة.

فقال: يا رسول الله، كانا في أم حدثا؟

قال: بل قديم.

فقال: الحمد لله الذي جبلني على خلقين يحبهما.

أو مكتسباً: وهو ما يربى عليه الإنسان، ويدرب بأساليب التربية.

قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (١)

وقد اهتم الإسلام بكل محضن من هذه الثلاثة اهتماماً بالغاً، ليجعلها مناخاً صالحاً للخلق الفاضل، والسلوك المستقيم.

أولاً: الوراثة

قال الله تعالى: ﴿فَٱنكِحُوا۟ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ (٢)

وقال: ﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ (٣)

وقال:

﴿ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (٤)

---

(١) الرعد: ١١.

(٢) النساء: ٣.

(٣) البقرة: ٢٢١.

(٤) النور: ٣.

ووجه ذلك[1]:

أن الله أباح نكاح المرأة بشرط العفاف والإحصان.

قال تعالى:

﴿وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾[2]

وقال:

﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[3]

والحكم المعلق على شرط ينتفي عند انتفائه.

والإباحة قد علقت على شرط الإحصان فإذا انتفى الإحصان انتفت الإباحة المشروطة به.

فالمتزوج إما أن يلتزم حكم الله وشرعه أو لا يلتزم.

فإن لم يلتزم حكم الله فهو مشرك لا يرضى بنكاحه إلا من هو مشرك مثله وإن التزمه وخالفه ونكح ما حرم عليه لم يصح النكاح فيكون زانياً.

وقال صلى الله عليه وسلم: الدنيا متاع وخير متاعها المرأة الصالحة.

وقال: خير النساء من

إذا نظرت إليها سرتك

وإذا أمرتها أطاعتك.

وإذا أقسمت عليها أبرتك.

---

(١) إغاثة اللهفان لابن القيم جـ ١

(٢) النساء: ٢٤.

(٣) المائدة: ٥.

وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك.

وخطب رجل امرأة عقيماً لا تلد، فقال: يا رسول الله إني خطبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، فنهاه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: تزوجوا الودود الولود فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة.

فلما كانت المرأة حديقة غرس الرجل، ومنجبة أولاده، وعنها يرثون الكثير من الصفات:

حسية: كلون العين والبشرة.

عقلية: كالذكاء والبلادة.

أدبية: كالميول والأمزجة.

حدد الرسول صلى الله عليه وسلم صلاحها: بالجمال.. والأمانة.. والطاعة.. والاستقامة.. والتودد لزوجها.. وأن تنجب له من يعبد الله.

هكذا كان اهتمام الإسلام بالإنسان: أخلاقه.. وسلوكه قبل أن يولد فقال صلى الله عليه وسلم:

إياكم وخضراء الدمن..

قالوا: وما خضراء الدمن يا رسول الله؟

قال: المرأة الجميلة في المنبت السوء.

وقال: فاظفر بذات الدين تربت يداك.

ثانياً: البيئة

هي كل ما يحيط بالإنسان، ويعمل على تكوينه الخلقي.

طبيعية: كالقرية والمدينة وما تتميز به كل منهما.

اجتماعية: كالمنزل والمدرسة والأندية، ونظام الحكم ووسائل الإعلام: مكتوبة، ومسموعة، ومرئية.

قال الله تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1]

بماذا؟

أ - بإيجاد بيئة صالحة فيها القيم مرعية، والفضائل تملأ جو الحياة بالخير والجمال، ومنهج الله ينشر سلطانه على الحياة كلها.

ب - بالحرص على أن يكون جو الأسرة والمدرسة نظيفاً يتنفس فيه الأبناء والبنات العطر الذي ينعش الروح، ويشيع في النفس الأمل والأمن.

جـ - بإعطاء القدوة الحسنة والمثل الصالح الذي يحاكيه الناشئة، كالأب والأم في المنزل، والمعلم والمعلمة في المدرسة، والمذيع والمذيعة على الشاشة الصغيرة، والأديب والأديبة في الصحافة، والصديق والزميل في العمل والطريق.

ومن ثم يحاسب الرسول صلى الله عليه وسلم على ما يبدو مخالفاً للصدق في جو الأسرة، وينهى أن يكذب الآباء على أبنائهم - ولو مزاحاً - كي يشبوا على الصدق.

---

(١) التحريم: ٦

فعن عبد الله بن عامر قال:

دعتني أمي يوماً ورسول الله قاعد في بيتنا فقالت:

تعال أعطك.

فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم: ما أردت أن تعطيه؟

قالت: أردت أن أعطيه تمراً.

فقال لها: أما إنك لو لم تعطيه شيئاً كتبت عليك كذبة.

وقال صلى الله عليه وسلم: من قال لصبي تعال هاك، ثم لم يعطه فهي كذبة.

ويقول عتبة بن أبي سفيان لمعلم ولده:

ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بني إصلاحك نفسك، فإن عيونهم معقودة بك، فالحسن عندهم ما استحسنت، والقبيح عندهم ما استقبحت.

ولينظر الآباء والأمهات إلى القدوة الحسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يعطي المثل الكريم في معاملة الطفولة:

من ذلك:

أنه صلى الله عليه وسلم «كان يصلي وهو حامل أمامة بنت ابنته زينب، فإذا ركع وضعها، وإذا قام حملها».

متفق عليه.

وقال أبو هريرة «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة العشاء فلما سجد وثب الحسن والحسين على ظهره، فلما رفع رأسه أخذهما بيديه من خلفه أخذاً رفيقاً ووضعهما على الأرض، فإذا عاد عادا، حتى قضى صلاته».

رواه أحمد

وقال شداد بن الهاد: عن أبيه:
« خرج علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه وآله وسلم وهو حامل الحسن أو الحسين، فوضعه ثم كبر للصلاة، فصلى فسجد بين ظهراني صلاته سجدة أطالها، فلما قضى الصلاة قال:
إن ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله » أحمد والنسائي.

وقد روى الإمام أحمد - بإسناده - عن عبد الله بن بريدة:
سمعت أبي بريدة يقول:
كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يخطب، فجاء الحسن والحسين - رضي الله عنهما - عليهما قميصان أحمران، يمشيان ويعثران فنزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من المنبر فحملهما، فوضعهما بين يديه، ثم قال:« صدق الله ورسوله، إنما أموالكم وأولادكم فتنة. نظرت إلى هذين الصبيين، يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثي ورفعتهما ».

وثبت أنه - صلى الله عليه وسلم كان يقبل ابني ابنته في أفواههما، وأتى بصبي، فوضعه في حجره، فبال عليه فدعا بماء، فنضحه ولم يغسله.

إنها الإنسانية في أسمى معانيها..
فليسمع ويرى كل مسئول عن بيئة النبتة الإنسانية، وتنشئتها ليعطوها حقها من الرعاية والحنان.

ثالثاً: العادة

فالأخلاق تتكون بالممارسة والاعتياد، وبكثرة تكرار الفعل. وبالمواظبة عليه يصبح اتباعه عادة لازمة وخلقاً يصدر تلقائياً.

قال صلى الله عليه وسلم: مروا أولادكم بالصلاة إذا بلغوا سبعاً، واضربوهم عليها إذا بلغوا عشراً، وفرقوا بينهم في المضاجع.
ويقول الفقهاء: وكذلك يفعل الآباء مع الأبناء في الصوم حتى يتعودوا.

وأثر عن الحسن بن علي رضي الله عنهما: علموا أولادكم مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب تظفروا وإياهم بالجنة.

ويقول ابن خلدون: إن أهل البدو أقرب إلى الشجاعة من الحضر، وأصله أن الإنسان ابن عوائده ومألوفه[1].

ويقول ابن سينا:

«ويمكن للإنسان متى لم يكن له خلق حاصل أن يحصله لنفسه ومتى صدفت نفسه عن خلق حاصل جاز أن ينتقل بإرادته عن ذلك إلى ضد ذلك الخلق.

والذي يحصل به الإنسان لنفسه الخلق ويكتسبه هو العادة، وأعني بها: تكرار فعل الشيء الواحد مراراً كثيرة، زماناً طويلاً، في أوقات متقاربة فإن الخلق الجميل إنما يحصل عن العادة، وكذلك الخلق القبيح[2].

وقد شرع الله العبادات فصولاً دراسية تدرب المسلم على الاستجابة لله، وتزكية النفس، وإعلاء الغرائز، وتقويم الأخلاق، وتجويد السلوك.

فإذا علا جوهره صدأ الذنوب، وإذا كبا في الطريق أخذت بيده لينهض، ومسحت عن معدنه غبار الشهوات، وعبث الأهواء.

---

(١) المقدمة ص ١٢١.
(٢) نقلاً عن العقيدة والأخلاق ص ٢١٧.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أرأيتم لو أن نهراً بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات؟ هل يبقى من دونه شيء؟ قالوا: لا يبقى من دونه شيء.
قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا. متفق عليه.

وعنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة كفارة لما بينهن ما لم تغش الكبائر. رواه مسلم.

بهذا تحول سلوك العرب الذين عاشوا دهوراً على التخاصم والتنابز.. فتطهروا من ظلمات الجاهلية وأرجاسها، وتخلقوا بأخلاق الإسلام من الإخاء والحب، والإيثار والتفاني في سبيل العقيدة، فصاروا ربانيين في الناس: تعلموا فعملوا وعلّموا، وحملوا مشاعل النور في الآفاق.

ومن علم وعمل وعلّم فذلك يسمى ربانياً ويدعى عظيماً في ملكوت السماء[1].

وبعد:

فقد طغت أمواج الترف في دنيا الناس، وحملت إليهم ألواناً من الفساد، وضروباً من الفتن، ودعاوى من الإلحاد
زحزحت العقائد
وغيرت الأخلاق
وبدلت السلوك
وطمست كل ما توارثنا من تقاليد صالحة..

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ٣٩.

فترك المسلمون أصولهم، وتعلقوا بتافه من الحضارة، وقنعوا ببضاعة مزجاة من العلم، فتأخر ركبهم، وتحكم عدوهم، ولا طريق إلى الخلاص إلا بالعقيدة

فلا تنحوها عن موكب الحياة.

ولا تعزلوها عن مجال التربية.

وضعوها في موضعها الصحيح من القيادة

تكن لكم سفينة النجاة.

تلك سنة الله:

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ (١)

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ
وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (٢)

---

(١) الأعراف: ٦٤.

(٢) الصافات: ١٨١ - ١٨٢.

المراجع

١ - القرآن الكريم
٢ - كتب السنة
٣ - تفسير الطبري
٤ - تفسير القرطبي
٥ - تفسير الكشاف
٦ - تفسير ابن كثير
٧ - تفسير النسفي
٨ - تفسير البيضاوي
٩ - الإشارات الإلهية
١٠ - فتح البيان
١١ - محاسن التأويل
١٢ - أسباب النزول
١٣ - سيرة الرسول
١٤ - الاتفاق في علوم القرآن
١٥ - البرهان في علوم القرآن
١٦ - مباحث في علوم القرآن
١٧ - تاريخ الأمم والملوك
١٨ - المقدمة لابن خلدون
١٩ - الفصل في الملل والنحل
٢٠ - الملل والنحل
٢١ - شرح الطحاوية
٢٢ - البيان والتبيين
٢٣ - جامع بيان العلم وفضله
٢٤ - العبودية
٢٥ - النبوات
٢٦ - الفتوى الحموية
٢٧ - الصارم المسلول في شاتم الرسول
٢٨ - زاد المعاد
٢٩ - بدائع الفوائد
٣٠ - مدارج السالكين
٣١ - التبيان في أقسام القرآن
٣٢ - إغاثة اللهفان
٣٣ - نهج البلاغة
٣٤ - الدين الخالص
٣٥ - عقيدة المسلم
٣٦ - فقه السيرة
٣٧ - العقائد الإسلامية
٣٨ - تبسيط العقائد
٣٩ - الإسلام في مواجهة الماديين
٤٠ - التعريف بالإسلام
٤١ - نظرات في سورة الرحمن
٤٢ - الله في العقيدة الإسلامية
٤٣ - النبأ العظيم
٤٤ - العقيدة والأخلاق
٤٥ - الإيمان والحياة
٤٦ - الجفوة المفتعلة بين العلم والدين
٤٧ - المصطلحات الأربعة
٤٨ - ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين

٤٩ - محاضرات إسلامية
٥٠ - قضايا العقيدة
٥١ - تاريخ الإسلام
٥٢ - فيض الخاطر
٥٣ - الله يتجلى في عصر العلم
٥٤ - الله والعلم الحديث
٥٥ - العلم في فنجان
٥٦ - مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة
٥٧ - مجلة المجتمع
٥٨ - مجلة قافلة الزيت.

فهرس

الباب الثاني: الروحانيات والنبوات

الباب الثالث: الغيبيات والقدر

مطبعة العلوم
حارة حريك - لبنان